

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والكتليبيّة

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٤)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق
١٩٩٠ - ١٤١٦ هـ

الجزء السابع عشر

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لابي شامة

الجزء الأول

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشارة اكثر من مرة الى كتاب الروضتين وذيله لأبي شامة، شهاب الدين عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسي [٥٩٩ - ٦٦٥ هـ / ١٢٠٢ - ١٢٦٧ م] على انه أوفى مصدر عربي تحدث بأسهاب عن أحداث الحروب الصليبية ، فهو قد نهل مادة جزئية الأساسيين من مصادر الذين تقدموه، واحسن النهل والاختيار واستوفى الروايات ، وأبدى رأيه في ترجيح بعضها على بعض أحيانا ، أما في الذيل فهو المصدر ، وهو شاهد عيان معاصر لكل ما سجله، وهنا تجلت أصالته وتفوقه على غيره من المؤرخين، وبذلك بات مصدر الجميع الذين جاءوا من بعده..

لقد أكثر أبو شامة من الاشارة الى نفسه واسرته واحواله في الذيل كما ترجم لنفسه، لهذا لن أعرف بهذه التوطئة به وبحياته.

لاشك أن أبا شامة مؤرخ عملاق، كان صاحب أحاسيس مرفهة، ولكم يتمنى المرء لو دفعه فضوله التاريخي وحبه للمعرفة نحو التوغل الى صفوف الفرنجة لوصف أصولهم ودوافعهم ونظمهم وما جبلوا عليه من عادات وتقاليد.

لعله لم يفعل ذلك لأنه كان يؤرخ لدولتين مسلمتين وليس لأعدائهما لكن أو ليس من شروط التغلب على العدو معرفته بالعمق من جميع الجوانب ؟ ومع صحة هذه المسئلة يبدو أن المسلمين جميعا حتى رجال السلطة منهم اهتموا برصد حركات العدو الصليبي عسكريا وسياسيا ،

ولم يأبهوا بما رسا وراء ذلك، كان همهم تحرير الأرض من هذا العدو وردعه ، وكف عاديته والخلاص منه ، فقد ظل الفرنجة طوال قرنين في نظر المسلمين كفارا وأعداء، ومعرفة هذا كافية، ولئن اهتم الفرنج بتاريخ المسلمين وأحوالهم ، فانهم فعلوا ذلك لكونهم غزاة أرادوا العيش على الأرض التي انتزعوها ، وسعوا الى تدبر وسائل الحياة في أوساط عدوانية من كل جانب ، كما استهدفوا حياة المزيد من الأرض ، فعدوانية وليم الصوري جعلته أول المستعربين إن لم نقل المستشرقين ، لكن العرب لم يكونوا عدوانيين، يضاف الى هذا ان المؤرخ العربي ظل على قاعدة الأوائل يؤرخ للملوك والدول ، ويكتب لا لنشر المعرفة بين الناس ، بل تلبية لطلب أحد رجال السلطة، وظل رجال السلطة جندا أحاسيسهم الحضارية فقيرة ، وفهمهم للثقافة العربية سطحي جدا، فزين الدين صاحب إربل وسواها عندما جاءه حيص ييص ليمدحه ، قال له لن أفهم عليك شيئا مما ستقوله ، لكن أعرف أنك تحتاج عوني ، فأمر له بمبلغ من المال، وصالح الدين أمر ببيع خزانة الكتب العظيمة التي وجدها في قصور الفاطميين بالقاهرة ، لكنه احتفظ بالمجوهرات والذخائر لنفسه ولآله.

الانتصارات في حطين وسواها جعلت من بعض رجال الجند والمرتزة والعبيد أبطالا ، لكن لا بد من التمييز بين البطل العسكري وبطل اشادة الحضارة العربية، والحفاظ عليها، ولا بد من التذكير أن رجال الفكر سايروا مشاعر الحكام وماشوا رغباتهم ، ودونوا ما كان يرضيهم ويفقهوه، فهم هنا كانوا على دين ملوكهم .

بفضل التفوق الحضاري العربي جاء النصر في حطين ، وحين بدد خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ثمار حطين السياسية والعسكرية ، ظل التفوق الحضاري يهيء الفرصة لمتابعة التحرير وطرد الغزاة وهذا ما كان ، وعليه يتوجب على الباحث في تاريخ الحروب الصليبية وتاريخ الاسلام

بشكل عام ألا تصممه قعقعة الحديد ، عن سماع أصوات بناء الحضارة ،
وألا يعمي غبار المعارك ناظرية عن رؤية عمق المؤثرات الحضارية وألا
تدفعه عاطفة النصر العسكري الى عدم التوازن في تقرير حقائق الأمور

هذه والحق اشكالية كبرى تحتاج الى البحث المعمق ، ولعله يكفي
هنا اثارتها فالسؤال يشكل نصف المعرفة، والشك هو الطريق نحو
اليقين والايان.

أنا على دراية أن رجال السلطة الأيوبية بنوا المدارس ، لكن جل هذه
المدارس جاءت بمثابة ترب لهم، وكانت دينية ضيقة المجالات ، تعتمد
على دراسة نصوص مكررة لهذا جاء نتاج رجالها إما اختصارات أو
شروح، وكادت جوانب الابداع أن تختفي ، ذلك أن الحضارة العربية
جاءت وليدة حلقات العلماء، ومقارعة الحجة بالحجة في أجواء من
الحرية والالتزام الخلقى، لكن المدرسة لم توفر هذه الشروط ، بل جعلت
من العمل العلمي عملا دينيا ضيقا متوارثا ، وتوافق هذا مع تنامي
عقلية التصوف الطقوسية ، فالتصوف الان لم يعد اعمال زهد وتفكر ، بل
حلقات ذكر وسماع وطعام ، وعيش رغيد داخل الزاوية بدون عمل منتج.

انها المرة الأولى التي يطبع بها كتاب الروضتين مع ذيله بشكل علمي
محقق ، وقد اعتمدت في عملي على مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ،
وهي فيما اعلمه أفضل مخطوطات هذا الكتاب ، وكان أبو شامة قد قسم
الروضتين الى جزئين ، لكن لكبر حجم كل جزء أعدت النظر بالتقسيم
فجعلته ثلاثة أجزاء ، يغطي الأول منها أخبار الأحداث حتى وفاة أسد
الدين شيركوه وتسلم صلاح الدين لوزارة القاهرة ، ويروى الثاني أخبار
نشاطات صلاح الدين حتى تمكنه من الانفراد بالسلطة في الشام ومصر

- ٧٥٠٣ -

وبعض أجزاء الجزيرة ، ويتحدث الثالث عن بقية الأحداث حتى بعيد وفاته.

ان بعض مصادر الروضتين قد توفر لنا ، وما توفر أقدمت على نشره داخل موسوعتنا ، لكن هناك مصادر كثيرة هامة عاد اليها أبو شامة تعد بحكم المفقود لا سيما ما كتبه ابن أبي طي الحلبي مع العديد من الوثائق الهامة.

من الله ارجو التوفيق والعون وله خالص الحمد والشكر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٥ / ٢ / ١٤١٦ هـ - ٢٣ / ٧ / ١٩٩٥ م

سهيل زكار

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف الشيخ الرحلة المحدث المكنن فريد عصره ووحيد دهره
شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي
الشافعي

تغمده الله برحمته وغفرانه

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال، وبكرمه وجوده تدرك
الآمال، وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال، وبارادته تتغير الأحوال، وإليه
المصير والمرجع والمآل، سبحانه هو الباقي بلازوال، المنزه عن الحلول
والانتقال، (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)^(١)، ذو العرش والمعارج
والطول والاكرام والجلال، نحمده على ما أسبغ من الانعام والافضال،
ومن به من الاحسان والتوال، حمداً لاتوازيه الجبال، ملء السموات
والأرض وعلى كل حال، ونصلي على رسوله ونبيه، وخيرته من خلقه

وصفيه، وخليله ووليه، وحييه المفضل، سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، والعلم الراسخ، والجمال والكمال، صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، وعترتهم الطيبين، ما أفل كوكب وطلع هلال، وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل، وعلى تابعيهم بأحسن وجميع الأولياء والأبدال، وعفا عن المقصرين من أمته أولي الكسل والملال، وحشرنا في زمرة، متمسكين بشريعته، مقتدين بسنته، متعظين بما ضرب من الأمثال، مزدحمين تحت لوائه، في جملة أوليائه (يوم لا بيع فيه ولا خلال) (٢).

أما بعد: فإنه بعد أن صرفت جل عمري، ومعظم فكري، في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عنّي لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه، فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه، اقتداء بسيرة من مضى، من كل عالم مرتضى، فقل إمام من الأئمة إلا ويحكى عنه من أخبار من سلف فوائد جمة، منهم إمامنا أبو عبد الله الشافعي رضي الله عنه، قال مصعب الزبيري: ما رأيت أحدا أعلم بأيام الناس من الشافعي، ويروي عنه أنه أقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة، وقال: ما أردت بذلك الاستعانة على الفقه.

قلت: وذلك عظيم الفائدة، جليل العائدة، وفي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم السالفة، وأنباء القرون الخالفة، ما فيه عبر لذوي البصائر، واستعداد لـ (يوم تبلى السرائر) (٣)، قال الله عز وجل وهو أصدق القائلين: (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) (٤) وقال: سبحانه وتعالى: (ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر، حكمة بالغة فما تغن النذر) (٥)، وحدث النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أم ذرع (٦) وغيره مما جرى في الجاهلية، والأيام الاسرائيلية، وحكى عجائب ما رآه ليلة أسري به وعرج، وقال: «حدثوا عن بني اسرائيل ولا

خرج»^(٧) وفي صحيح مسلم عن سماك بن حرب «قال: قلت لجابر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم كثيرا، كان لا يقوم من مصلاه الذي صلى فيه الصبح والغداة حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم»^(٨) وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني إسرائيل حتى نصبح ما يقوم الا الى عظم صلاة»^(٩)

قلت: ولم يزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى، ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى، ويستشددون الاشعار، ويتطلبون الآثار والاخبار، وذلك بين من أفعالهم، لمن اطلع على أحوالهم، وهم السادة القدوة، فلنا بهم أسوة، فاعتنيت بذلك وتصفحته، وبحثت عنه مدة وتطلبت، فوقفت والحمد لله على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين، من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والخلفاء والسلاطين، والفقهاء والمحدثين، والأولياء والصالحين، والشعراء والنحويين، وأصناف الخلق الباقين، ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين، كأنه قد عاصرهم أجمعين، وأنه عندما يفكر في أحوالهم ويذكرهم، كأنه كان مشاهدهم ومحاضرهم، فهو قائم له مقام طول الحياة، وإن كان متعجل الوفاة.

قال نعيم بن حماد: كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقليل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وفي رواية قال: قليل لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن تكثر القعود في البيت وحدك؟ فقال: أنا وحدي، أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، يعني النظر في الحديث. وفي رواية أخرى: وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

قلت: وقد أنشدت لبعض الفضلاء:
كتاب اطالع به مؤنس
أحسب إلي من الأنسة
وأدرسه فيرنبي القرو
ن حضروا وأعظمهم دارسه

وقد اختار الله سبحانه لنا أن نكون آخر الأمم، وأطلعنا على أنباء من تقدم لتعظ بها جرى على القرون الخالية، وتعيها أذن واعيه، (فهل ترى لهم من باقيه) ^(١٠) ولنقتدي بمن تقدمنا من الأنبياء، والائمة الصلحاء، ونرجو بتوفيق الله عز وجل أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم، ونذاكرهم بما نقل إلينا عنهم، وذلك على رغم أنف من عدم الادب، ولم يكن له في هذا العلم أرب، بل أقام على غيه وأكب، والمرء مع من أحب.

هذا وإن الجاهل بعلم التاريخ راكب ظهر عمياء، خابط خبط عشواء، ينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدبر، وإن رد عليه وهمه لا يتأثر، وإن ذكر فلجهله لا يتذكر، لا يفرق بين صحابي وتابعي، وحنفي ومالكي وشافعي، ولا بين خليفة وأمير، وسلطان ووزير، ولا يعرف من سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم أكثر من أنه نبي مرسل، فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصدر الأول، الذين بذكرهم ترتاح النفوس، ويذهب البؤس.

ولقد رأيت مجلساً، جمع فيه ثلاثة عشر مدرساً، وفيهم قاضي قضاة ذلك الزمان، وغيره من الأعيان، فجرى بينهم وأنا أسمع ذكر من تحرم عليه الصدقة، وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن، فقال: جميعهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وعدلوا بأجمعهم في ذلك عما يجب، فتعجبت من جهلهم حيث لم يفرقوا بين عبد المطلب والمطلب، ولم يهتدوا إلى أن المطلب هو عم عبد المطلب، وأن عبد المطلب هو ابن هاشم، فما أحقهم بلوم كل لائم، إذ هذا أصل من أصول الشريعة قد أهملوه، وباب من

أبواب العلم جهلوه، ولزم من قولهم إخراج بني المطلب من هذه الفضيلة، فابتغيت إلى الله تعالى الوسيلة، وأنفت لنفسي من ذلك المقام، فأخذتها بعلم أخبار الأنعام، وتصحيح نسبتها، وإيضاح محبتها، فإن كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها، وإن نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها، وهو باب واسع غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد، زلت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار، ورواة الآثار.

ثم أردت أن أجمع من هذا العلم كتاباً يكون حاوياً لما حصلته، وأتقن فيه ما خبرته، فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين، وهو تاريخ مدينة دمشق، حماها الله عز وجل، الذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العساكري رحمه الله، وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلداً فاختصرته وهذبته^(١١) وزدته فوائده من كتب آخر جليلة وأتقنته، ووقف عليه العلماء، وسمعه الشيوخ والفضلاء.

ومرّني فيه من الملوك المتأخرين، ترجمة الملك العادل نور الدين، فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه، وتغير خلانه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتها في المتأخرين، كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين، فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد، واجتهد في اعزاز دين الله أي اجتهد، وهما ملكا بلدتنا، وسلطانا خططنا، خصنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما، فعزمت على أفراد ذكر دولتيهما بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعله يقف عليه من الملوك، من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا يبعد أنها حجة من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه (فإن الذكرى تنفع المؤمنين)^(١٢) فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم من

الأئمة السابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لاؤلئك من نظير، فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبيه بهما أحد، إن وفق الله الكريم وسدد، وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه الله، وكان أحد السادة الاكابر في الحفظ والدين، قال: إني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله على هذا الخلق، يقال لهم إن لم تدركوا نبيكم فقد رأيتكم سفيان ألا اقتديتم به، وهكذا أقول: هذان الملكان حجة على المتأخرين، من الملوك والسلاطين، فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة، وجميل السريرة، وهما حنفي وشافعي، شفى الله بهما كل عي، وظهرت بهما من خالقهما العناية، فتقاربا حتى في العمر ومدة الولاية، وهذه نكتة قل من تظن لها ونبه عليها، ولطيفة هداني الله بتوفيقه إليها، وذلك أن نور الدين رحمه الله ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وستين، وولد صلاح الدين رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وثمانين^(١٣)، فكان نور الدين أسن من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة، فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين، وملكها صلاح الدين سنة سبعين، فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة، وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة، ثمحى فيها السيئة وتكتب الحسنة، وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما في سيرتيهما، والفضل للمتقدم، فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والارشاد إلى عظم محله، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهد الأمور بعدله وجهاده، وهيبته في جميع بلاده مع شدة الفتق، واتساع الخرق، وفتح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على من بعده على الحقيقة، سلوك تلك الطريقة، لكن صلاح الدين أكثر

جهاداً، وأعم بلاداً، صبر وصابر، ورابط وثابر، وذخر الله له من الفتوح
أنفسه، وهو فتح الأرض المقدسة، فرضي الله عنهما فما أحقهما بقول
الشاعر:

كـم تـرك الأول لـلآخر
وألـبس الله هـاتيك العظام وإن
بلين الثرى عفواً وغفراناً
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت
مشوى قبرهم روحاً وربحاناً

وقد سبقنى إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء، والأكابر
الفضلاء، فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في
تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، ولأجله تم
ذلك الكتاب وذكر اسمه في خطبته، وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد
التميمي في مذيّل التاريخ الدمشقي قطعة صالحة من أوائل الدولة
النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسة، وصنف الشيخ الفاضل عز الدين
أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، عرف بابن الأثير مجلدة
في الأيام الأتابكية، كلها وما جرى فيها وفيه شيء من أخبار الدولة
الصلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى، لكونها متفرعة عنها، وصنف
القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلّي، عرف
بابن شدّاد، قاضي حلب مجلدة في الأيام الصلاحية، وساق ما تيسر فيها
من الفتوح، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله
تعالى، وصنف الإمام العالم عماد الدين الكاتب، أبو حامد محمد بن محمد
ابن حامد الأصفهاني كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة
والمعاني الصحيحة، أحدهما الفتح القدسي اقتصر فيه على فتوح صلاح
الدين وسيرته، فاستفتح به سنة ثلاث وثمانين وخمسة، والثاني البرق
الشامي ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرها مما
وقع من سنة وروده دمشق وهي سنة اثنتين وخمسين وخمسة إلى وفاة

صلاح الدين، وهي سنة تسع وثمانين، فاشتمل على قطعة كبيرة من أواخر أخبار الدولة النورية، إلا أن العماد في كتابه طویل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه، فحذفت تلك الاسجاع إلا قليلا منها استحسنتها في مواضعها، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ما استراه من أخبار فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى، وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال والاسجاع المفضية إلى الملال، وأردت أن يفهم الكلام الخاص العام، واخترت من تلك الأشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال، وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة، ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية، وعلى جملة من الأشعار العمادية، مما ذكره في ديوانه دون دقة من كتب أخرى من دواوين وغيرها، فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحديهما، وما حدث في مدتيهما من وفاة خليفة أو وزير، أو أمير كبير، أو ذي قدر خطير، وغير ذلك، فجاء مجموعاً لطيفاً، وكتاباً ظريفاً، يصلح لمطالعة الملوك والأكابر، من ذوي المآثر والمفاخر، وسميته كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ولله در حبيب بن أوس حيث يقول:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها

فكأنها وكأنهم أحلام^(١٤)

فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود ابن عماد الدين أتابك، وهو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي، ويلقب زنكي أيضاً بلقب والده قسيم الدولة، ويقال لنور الدين ابن القسيم، وستكلم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه، وقدّمت من إجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله، ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسة، وأن جدّه آق سنقر ولي حلب وغيرها

من بلاد الشام، ونشأ أبوه زنكي بالعراق ثم ولي ديار الموصل والبلاد الشامية، وظهرت كفايته في مقابلة العدو عند نزوله على شيزر، حتى رجع خائباً، وفتح الرها والمعرة وكفر طاب وغيرهما من الحصون الشامية، واستنقذها من أيدي الكفار، فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، ثم قصد نور الدين حلب فملكها، وخرج غازيا في أعمال تل باشر، فافتتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز ومرعش وتل خالد، وكسر ابرنس أنطاكية وقتله وثلاثة آلاف أفرنجي معه، وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها الرافضة وبنى بها المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل، وحاصر دمشق مرتين، وفتحها في الثالثة، فضبط أمورها، وحصن سورها، وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طرقها، ووسع أسواقها، ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها، وعاقب على شرب الخمر، واستنقذ من العدو ثغر بانياس، والمنيطرة وغيرها .

وكان في الحرب ثابت القدم وحسن الرمي، صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير، ووقف رحمه الله وقوفا على المرضى ومعلمي الخط والقرآن، وساكني الحرمين، وأقطع أمراء العرب لثلا يتعرضوا للحجاج، وأمر باكمال سور المدينة واستخراج العين التي بأحد، وبنى الربط والجسور والخانات، وجدّد كثيرا من قنى السبيل، وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها، ووقف كتباً كثيرة، وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج، وكسر الروم والفرنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفاً، ثم فتح حارم، وأخذ أكثر قرى أنطاكية، ثم فتح الديار المصرية، وكان العدو قد أشرف على أخذها، ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة، وكان حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعا للأثار النبوية، مواظبا على الصلوات في الجماعات عاكفاً على تلاوة القرآن،

حريصا على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الانفاق، متحريا في المطاعم والملابس، لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو ارشاد إلى سنة يتبعها.

وقال أبو الحسن بن الأثير: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يسديه، ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وآخره، فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف بيت واحد.

أما زهده وعبادته وعلمه، فإنه كان مع سعة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحله، ولم يتعده إلى غيره ألبته، ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة، ومنع من شرب الخمر، وبيعها في جميع بلاده، ومن إدخالها إلى بلد ما، وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء.

حدثني صديق لنا في دمشق، كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرها قال: كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لاتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال، أو في مطالعة كتاب أتاه، ويحجب عنهما، وكان يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار فإذا جاء الليل وصلى العشاء

ونام يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة فيظهر الركوب، ويشغل بمهام الدولة •

قال: وإنما قلت عليها النفقة، ولم يكفها ما كان قرره لها فأرسلتني إليه اطلب منه زيادة في وظيفتها، فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه، ثم قال: من أين أعطيها أما يكفيها مالها، والله لأخوض نار جهنم في هواها إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال لي، فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق إن كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها، فلا أخونهم فيها •

ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها، قال: وكان يحصل منها قدر قليل •

قال ابن الأثير: وكان رحمه الله لا يفعل فعلا إلا بنية حسنة، كان بالجزيرة رجل من الرجال الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاثره ويراسله ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقادا حسنا فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة، فكتب إليه يقول: ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية، فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، وإنما نحن في ثغر العدو قريب منا، وبيننا نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهاراً شتاء وصيفا إذ لا بد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جاما لا قدرة لها على ادمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة •

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظر، الذي يقل في

أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب يفعل بنية صالحة، حتى يصير من أعظم العبادات، وأكبر القربات يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة، وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين.

و حكى لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فلم يحضرها عنده، فوصفت له، فلم يلتفت إليها، وبيناهم معه في حديثها وإذا قد جاءه رجل صوفي، فأمر بها له فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة، فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار.

قلت: قرأت في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الاثير بخط ابن المعطى إياها قال: أعطها لشيخ الصوفية عماد الدين أبي الفتح بن حموية بغير طلب ولا رغبة، فبعثها إلى همدان فبيعت بألف دينار.

قال ابن الاثير: وحكى لنا الامير بهاء الدين علي بن السكري، وكان خصيصاً بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصبا وأنس به، وله معه انبساط، قال: كنت معه يوماً في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجري فرسه، وهو يلتفت وراءه وقال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها.

قلت: رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا، وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه
مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه متبعاً
فإذا وليت عنه تبعك

قال ابن الاثير: وكان - يعني نور الدين رحمه الله - يصلي كثيراً من الليل، ويدعو ويستغفر، ويقرأ ولا يزال كذلك إلى أن يركب جمع الشجاعة والخشوع
ما أحسن المحراب في المحراب

قال: وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه^(١٥)، ليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته في كل شيء، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف، وترك المحرمات من المأكّل والمشرب والملبس، وغير ذلك فإنهم كانوا قبل ذلك كالأهلية، همّة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكراً حتى جاء الله بدولته، فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم واستحبوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة *

قال: فإن قال قائل: كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة، فليذكر نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، مع ملكه، وهو سيد الزاهدين في زمانه، ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضر موت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين *

قال: وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها^(١٦)

قال: وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة، وأعدلهم حكماً، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكسا ولا عسراً بل أطلقها رحمه الله

جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها، والموصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه، وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، وهذا لم تتسع له نفس غيره، وكان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم، كائناً من كان، والقوي والضعيف عنده في الحق سواء، وكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها *

قال: ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن سخر لها نمضي أوامرها، فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة، فرأى أنساناً يحدث آخر ويومي بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني، فعاد إليه ولم يتجاسر أن يعرفه ما قال ذلك الرجل، وعاد يكتمه، فلم يقبل منه غير الحق، فذكر له قوله فألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان وسار إلى القاضي وهو حيثئذ كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إلى القاضي يقول له: إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري، فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال نور الدين حيثئذ للقاضي ولمن حضر: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا، فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه، وهو له دوني وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له *

قال ابن الاثير: وهذا غاية العدل والانصاف، بل غاية الاحسان، وهي درجة وراء العدل، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق الواقفة معه *

قلت: وهذا مستكثر من ملك متأخر، بعد فساد الأزمنة، وتفرّق الكلمة، وإلا فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر، وعلي رضي الله عنهما، ثم حكى نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور، وقد نقلنا ذلك كله في التاريخ الكبير، وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا، لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمض إليه، وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استدعي مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه، فدخل حاجبه عليه متعجباً وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب، فأنكر عليه تعجبه، وقام رحمه الله مسرعاً ووجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب بعض الحشوس واستخراج ما فيه، فوكل من ثم وكيلاً وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل، ورجع.

قال ابن الاثير: ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الاعصار على الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته، مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة، والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل، واتباع الشرع المطهر.

قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا، فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه، فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فردّه إلى الخزانة، وقال: إذا سأل الملك العادل عنه، فقولوا له عني: إنه له، فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب، وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال إلى أصحابه؟ فذكروا له قول كمال الدين: فردّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين: أنت تقدر على

حمل هذا المال، وأما أنا فرقتي دقيقة لا أطيق حمله، والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى، يعاد قولاً واحداً.

قال: ومن عدله أيضاً بعد موته، وهو من أعجب ما يحكى، أن انساناً كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله، فلما توفي تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي، وقد شق ثوبه، وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى، وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين فقبل له: احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه، وطيب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشد من الأول، فقال له صلاح الدين: لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكلما ترى فينا من العدل فمته تعلمناه.

قلت: ومن عدله أنه بنى دار العدل، قال ابن الأثير: كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العدل، وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراً، وفيهم أسد الدين شيركوه، وهو أكبر أمير معه، وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك، واقتنوا الاملاك فأكثر الشكاوى إلى كمال الدين فأنصف يجاوره في قرية أو غيرها، فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين فأنصف بعضهم من بعض، ولم يقدم على الانصاف من أسد الدين شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين فأمر حيثنذ ببناء دار العدل، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا إن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين، ووالله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي، فقالوا له:

إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب، فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أبي ظالم، أو يساوي بيني وبين أحاد العامة في الحكومة، فخرج أصحابه من عنده، وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحدا يشكو من شريكوه، فعرفه الحال، فسجد شكراً لله تعالى، وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الاثير: فانظر إلى المعدلة ما أحسنها، وإلى هذه الهيبة ما أعظمها، وإلى هذه السياسة ما أسدها. هذا مع أنه كان لا يريق دماً ولا يبالغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته.

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه، فقد كانت النهاية إليه فيهما فإنه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك.

سمعت جمعاً كثيراً من الناس، لا أحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر فرس أحسن منه كأنها خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل، وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها، لم ير جوكانه يعلو على رأسه، وكان ربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا تری والجوكان فيها بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب، وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين وباشر القتال بنفسه، وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها، سمعه يوماً الامام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك: فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإنك

عمادهم، ولئن أصبت والعياذ بالله في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف، وأخذت البلاد، فقال: يا قطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذي لا اله الا هو.

قال: وكان رحمه الله يكثُر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج، خذلهم الله تعالى، وأكثر ما ملكه من بلادهم به، ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن، صاحب الدروب، فإنه مازال يخدمه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الافرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاع منيعة، وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الاقطاع على سبيل التأليف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا، وساعدنا على الفرنج.

قال: وحيث توفي نور الدين رحمه الله، وسلك غيره غير هذا الطريق، ملك المتولي الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد الاسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقه.

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً أقر الاقطاع عليه، فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه، وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب، وكان أيضاً يثبت أسماء أجناده كل أمير في ديوانه، وسلاحهم خوفاً من حرص الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد، ويقول نحن كل وقت في

النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد، دخل الوهن على الإسلام.

قال: ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال: وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عيانا.

قال: وأما فعله في بلاد الاسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم، من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها: حلب وحماه، وحمص، ودمشق، وبارين، وشيزر ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها، وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس، وبنى أيضا المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية، وبنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعه في الموصل اليه النهاية في الحسن والاتقان، ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوّض أمر عمارته والخروج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله، وهو رجل من الصالحين فقيل له: إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل، فقال: إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الاوقات ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظلم كان الاثم عليه لا علي. قال: وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم، وبنى أيضا بمدينة حماه جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو غيرها، وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن اعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخروج جدا، بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب بل على كافة المسلمين من غني وفقير.

قلت: وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعرا بذلك، وإنما هذا كلام مشاع على السنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء

للفقراء فيه، والله المستعان، وإنما صرح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها، لا يمنع منه من احتاج إليه، من الأغنياء والفقراء، فخص ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لاسيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطي، والله أعلم.

وبلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسر بعض أكابر ملوك الفرنج، خذلمهم الله تعالى فقطع على نفسه في فدائه مالا عظيما، فشاور نور الدين أمراء فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه، فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع لهم الحسنتين وهما الفداء وموت ذلك اللعين، فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان، ومنع المال الأمراء، لأنه لم يكن عن إرادتهم كان.

قال ابن الاثير: وبنى أيضا الخانات في الطرق، فأمن الناس، وحفظت أموالهم وبياتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر، وبنى أيضا الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً، وكان هذا من ألطف الفكر، وأكثرها نفعاً.

قال: وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأدّر عليهم الإدارات الصالحة، وكان يحضر مشايخهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويسطهم ويتواضع لهم، فإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتقه ويجلسه معه على سجادته، ويقبل عليه

بحديثه، وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر، فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملية كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه، وكان أمراءه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيبا يقول: ومن المعصوم، وإنما الكامل من تعد ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي، وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان إليه، فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين، فقال له: يا هذا إن صبح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها، وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا إن صحت مع وجود حسنته، على أنني والله لأصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبني فكف عنه.

قال ابن الاثير: هذا والله هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بهاء الذهب.

وبنى بدمشق أيضا دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة فهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه. وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة، وبنى أيضا مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن. قال: وهذا فعل لم يسبق إليه، بلغني من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا، وهو سنة ثمان وستائة، كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها غير ملك صحيح

شرعي ظاهراً وباطناً، فإنه وقف ما انتقل إليه ووزن ثمنه، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه

قال: وأما هيئته ووقاره فإنه النهاية فيها، ولقد كان كما قيل شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعف، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده إلى غاية لامزيد عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه، ومجد الدين بن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالعود، وكانت مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه، وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم في بيت المال حق فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا، وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم^(١٧)، وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو لا يتعدى هذا، بلغني أن الحافظ ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللطيف وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا أحد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي، وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال: نزهت نفسي عن مجلسك فإنني رأيتك كبعض مجالس السوق، لا يستمع فيه إلى قائل ولا يرد جواب متكلم، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين، فكنا كما قيل كأنها على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة

والوقار، فإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنه لا يكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ. قال ابن الاثير: فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله مضبوطة محفوظة، وأما حفظ أصول الديانات فإنه كان مراعيها لا يهملها، ولا يمكن أحداً من الناس من اظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته، وكان يبالغ في ذلك ويقول: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل.

قال: وحكي أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم، كان يظهر الزهد والنسك، وقد كثر اتباعه أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حملاً وأمر بصفعه، فطيف به في البلد جميعها، ونودي عليه: هذا جزاء من أظهر في الدين البدع، ثم نفاه من دمشق، فقصد حران وأقام بها إلى أن مات. قال: ويسوق الله القصار الاعمار إلى البلاد الوخمة.

قلت: وذكر العماد الكاتب في أول كتابه البرق الشامي أنه قدم دمشق في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسة في دولة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وأخذ في وصفه بكلامه المسجوع فقال: كان ملك بلاد الشام ومالكها، والذي بيده ممالكها، الملك العادل نور الدين، أعف الملوك وأتقاهم، وأثبهم رأياً وانقاهم، وأعد لهم. وأعبد لهم. وأزهدهم. وأجهدهم. وأظهرهم. وأطهرهم. وأقواهم. وأقدرهم. وأصلحهم عملاً. وأنجعهم أملاً. وأرجحهم رأياً. وأوضحهم رأياً^(١٨). وأصدقهم قولاً. وأقصدتهم طولاً. وكان عصره فاضلاً ونصره واصلًا. وحكمه عادلاً. وفضله شاملاً. وزمانه طيباً. وإحسانه صيباً. والقلوب بمهابته ومحبة ممتلئة. والنفوس بعاطفته وعارفته ممتلية وأوامره ممتثلة. وجدّه منزّه عن الهزل. ونوابه في أمن العزل. ودولته مأمولة مأمونة. وروضته مصوبة مصونة. والرياسة كاملة. والسياسة شاملة. والزيادة زائدة. والسعادة مساعدة. والعيشة ناضرة.

والشيعة ناصرة. والانصاف صاف. والاسعاف عاف. وأزر الدين قوي. وظماً الاسلام روي، وزند النجح وري. والشرع مشروع. والحكم مسموع. والعدل مولى. والظلم معزول. والتوحيد منصور. والشرك مخذول. وللتقى شروق. وما للفسوق سوق. وهو الذي أعاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام. وقد غلب الكفر، وبلغ الضر. فاستفتح معاقلها. واستخلص عقائلها وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد. والابرار والنقض. والبسط والقبض. والوضع والرفع. وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الاسلام بالشام قطائع. فقطعها وعفى رسومها ومنعها. ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم. وبدد سلوكهم. وصان الثغور منهم. وحماها عنهم. وأحيا معالم الدين الدوارس. وبنى للأئمة المدارس. وأنشأ الخانقاهات للصوفية. وكثرها في كل بلد وكثر وقوفها. وقرر معروفها. وأدنى للوافدين من جني جنانه قطوفها. وأجدد الأسوار والخنادق. وأنمى المرافق. وحمى الحقائق. وأمر في الطرقات ببناء الربط والخانات. فضافت ضيوف الفضائل. وفاضت فيوض الأفاضل. وهو الذي فتح مصر وأعمالها. وأنشأ دولتها ورجالها^(١٩).

. ثم ذكر العباد في أثناء حوادث سنة تسع وستين وهي السنة التي توفي فيها نور الدين قال:

وفي هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصدقات، وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، واسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، فما أبقي سوى الجزية والخراج، وما يحصل من قسمه الغلات على قويم المنهاج.

قال: وأمرني بكتب مناشير لجميع أهل البلاد، فكتب أكثر من ألف منشور وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عاداته في الصدقة أنه يحضر جماعة من أمائل

البلد من كل محلة ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل
الحاجة، ثم يصرف إليهم
صدقاتهم، وكان له برسم نفقة الخاص في كل شهر من جزية أهل الذمة
مبلغ ألفي قرطيس يصرفها في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة
خياطة وجامكية طباخه، ويستفضل منه ما يتصدق به في آخر الشهر،
وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم فإنه كان لا يتصرف في
شيء منه لاقليل ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجهم إلى مجلس القاضي
ويحصل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة، وتقدم باحصاء ما في
محال دمشق فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعين له
وقوفاً. قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطل
الكتاب، ولم أبلغ إلى أمد، ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغني
عن خبرها بالعيان، ويكفي أسوار البلدان عن الربط والمدارس
على اختلاف المذاهب، واختلاف المواهب وفي شرح طوله طول، وعمله
لله مبرور مقبول.

وواظب على عقد مجالس الوعاظ، ونصب الكراسي لهم في القلعة
للانذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابوري، وهو
مشغوف ببركة أنفاسه، واغتنام كلامه واقتباسه، ووفد من بغداد ابن
الشيخ أبي النجيب الأكبر، فبسط له في كل أسبوع منبر وشاقه وعظه،
وراقه معناه ولفظه، وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد
المؤمن بن شوروه (٢٠) وما أيمن تلك الايام وأبرك تلك الشتوه.

وقال: ولما اسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل
الشحن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين
ابن الشهر زوري: انظر أنت ذلك واحمل أمور الناس فيها على الشريعة،
قال: ولم يكن لمال المواريت الحشرية حاصل، ولا لديوانه طائل، فجعل
نور الدين ثلث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم، فوفره نوابه وكثروه،
وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول أنا قد

قلدته على ان يتصرف بالمعروف، وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه في بناء الأسوار، وحفظ الثغور. وكانت دولته نافذة الأوامر، منتظمة الأمور.

قلت : وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم، رحمه الله، مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث. فمرّ في أثناء الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفاً فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه، وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف، يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هم على خلاف ذلك لأنهم ير بطونه بأوساطهم، قال: فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم ، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلد للسيف، وجميع عسكره كذلك، فرحمة الله على هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الحالة، لما بلغته رجع بنفسه، ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فما الظن بغير ذلك من السنن، ولقد بلغني أنه أمر باسقاط ألقابه في الدعاء له على المنابر، ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه، وقص ذلك عليه ففكر ساعة ثم أمره بكتابة اسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك، وكان في تهجده يقول: ارحم العشار المكاس، وبعد أن أبطل ذلك استجعل من الناس في حل، وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدو الإسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله فرداً في زمانه من بين سائر الملوك، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها وإن اشتملت على ألفاظ، قد أغلظ له فيها.

أرضيت أن تحيى وقلبك دارس
عافى الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه
أبدأ وأنت مبعده مهجور
مهد لنفسك حجة تنجوها
يوم المعاد لعلك المعذور (٢١)

قلت: ولعل هذه الايات من أقوى الأسباب المحركة للسلطان في
إبطال المظالم، والخلاص من تلك المآثم رضي الله عن الواعظ والمتعظ
بسببه، ووفق من رام الاقتداء به *

ونقلت من خط صاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد
ابن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه، وسمعت
من لفظه أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه
قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها في شهر ربيع
الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأحسن إلى الرعية وثبت العدل
ورفع الجور، وأبطل البدع واشتغل بالغزو وفتح قلاعاً كثيرة من عمل
حلب، كانت بيد الفرنج، وحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء
أجازوا له منهم: أبو عبد الله بن رفاعة بن عزيز السعدي المصري.

روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد، وأبي البركات
الحسن، وأبي المنصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن
هبة الله الشافعي.

قال: ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر بن صغير
القيصري كتبها إلى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة
وبين السطور، فنقلت جميع ما فيها من خطيهما، قال: وكان رحمه الله
كتب رقعة يطلب من ابن القيصري أن يكتب له صورة ما يدعى له به

على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب، وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد:

أعلى الله قدر المولى في الدارين، وبلغه أماله في نفسه وذريته، وختم له بالخير في العاجلة والآجلة بمنه وجوده وفضله وحمده، وقف المملوك على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاؤه إلى الله تعالى بأن يرضى عنه، وعن والديه وأن يسهل له السلوك إلى رضاه، والقرب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير، وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف، زاده الله شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى: «اللهم اصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتمد بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر، ناصر أمير المؤمنين» فان هذا جميعه لا يدخله كذب ولا زيادة، والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته: مقصودي أن لا يكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لأعمل قلة عقل عظيم. الذي كتب جيد أكتب به نسخ حتى نسيره إلى جميع البلاد، وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق، اللهم أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس

قال: وحدثني والدي قال: استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم، وشرف الدين بن أبي عصرون إلى الميدان الأول، وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص، فلما شهدنا عليه التفت إلينا وقال: بالله انظروا أي شيء عملتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد من بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه.

وقال: قال لي والدي: دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر

فمات بها وخلف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ها هنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب على رقعة: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعه الله^(٢٢).

قال: وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضاً، وحدثني الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النوري قال: سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكيراً عظيماً، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض، فتعجبنا من فكره وقلنا: ترى في أي شيء يفكر في عائلته أو في وفاء دينه، فكأنه فطن بنا، فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فقلنا: ما قلنا شيئاً، فقال: بحياتي قولاً لي، فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا يفكر في عائلته أو في نفسه، فقال: والله إنني أفكر في وال وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام لاتريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وأرفعها إليّ.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئاً يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملاء.

قال: وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة

الموصل أن لا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي به، وأن لا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بأمر الشيخ عمر الملاء.

قال: فكان لا يعمل بالسياسة، وبطلت الشحنة في أكابر الدولة، وقالوا لكمشتكين: قد كثرت الذعار وأرباب الفساد، ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له في ذلك، فقال لهم: أنا لا أكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين وقال له: إن الذعار والمفسدين وقطاع الطرق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء يشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر الملاء أهل الموصل وأقرأهم الكتاب، وقال انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المعدل يقول: سمعت مقلداً يعني الدولعي يقول: لما مات الحافظ المرادي وكنا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد، فمننا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف وأراد أن يستدعي قطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدس ثم عاد إلى بلاد العجم، فوقع بيننا كلام بسبب ذلك، ووقعت فتنة بين الفقهاء، فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين، يعني ابن الداية عن لسانه، وقال لهم: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من

هذه البلدة، واطهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضي الطائفتين، ونستدعي شرف الدين ابن أبي عصرون، وقطب الدين النيسابوري فاستدعاهما جميعاً، وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين، ومدرسة النفري^(٢٣) لقطب الدين.

قال: وعلقت أيضاً من خط فقيه كان معيذا بالنظامية يقال له أبو الفتح بنجة بن أبي الحسن بن بنجة الاشترى، وكان ممن ورد دمشق، وجمع لنور الدين سيرة مختصرة قال: كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرعية، وكشف الظلامة لا يطلب بذلك درهما ولا دينارا أو زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، وطلباً للثواب والزلفى في الآخرة، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقول، ويحضر في جلسة العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها، ولا المكاملة معه فيأمر بمساواته لها، فتغلب خصمها طمعاً في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله تعالى على لسانه ما هو موافق الشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه الا محض الشريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم، وأما فكره ففي اظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والربط، وترتيب أمورهم والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم، ولو لم يكن من هذه الخصال إلا ما علم

منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء وقف عليه، ولا يخالف قوله ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لكفى، ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك، ولا يطمع في أخذ أموال الناس ولا يرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئاً بغير حق.

قال: وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها، بتأتم شرائطها، وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة، حكاية عن الكفار أنهم يقولون: ابن القسم له مع الله سر، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه، ويعطيه سؤاله، وما يردّ يده خائبة، فيظفر علينا، قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين، فقام رجل وادّعى على الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالب بذلك، فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني فإني ما ورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل.

قال: وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان، وكان قد أودع عند أخيه أبي

البيان وديعة، وقد توفي فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبه بالردّ عليه، فانكر هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حكم الشرع أن يحلف أنه لا علم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك فجعل المودع يشنع عليه ويقول انه حلف كاذباً، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التمس وغيره، فحضر عند الملك العادل شاكياً منه وذاكراً سيرته وطريقته، ومن الذي يقدر أن يقول في حقي هذا، ويتعرض بالتماسه من الملك العادل التقدّم باحضاره والانكار عليه فيما يقول في حقه، فلما فرغ من الكلام، ورمى ما كان في جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الانكار عليه، فقال الملك العادل: أليس إن الله تعالى يقول في كتابه: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ^(٢٤)) فإذا كان يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل مالا يجوز، فيجب عليك أن لاتعمل معه مثل معاملته فتكون مثله، فكأنك قابلت الاساءة بالاساءة، ومن حقك أن تقابل الاساءة بالاحسان، فقلت في نفسي: الحق ما قال الملك العادل إما قرأ هذا في كتب التفسير فثبت في قلبه أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعة من التجار وشكوا أن القراطيس كان ستون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينار، وتزيد وتنقص فيخسرون، فسأل الملك العادل عن كيفية الحال فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار ولا يرى الدينار في الوسط، وإنما يعدون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار، وتارة سبعة وستين بدينار، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدينار الملكية، وتبطل القراطيس بالكلية، فسكت ساعة وقال: إذا ضربت الدينار وابطلت المعاملة بالقراطيس فكأنني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد من السوق عنده عشرة آلاف، وعشرون ألف قرطاس أي شيء يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته.

قال: فأني شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية.

قال: وحضر صبي وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاسا، وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرق له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح، حتى كأن الانعام كان في حقه.

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردي قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى سويداً يحضر الخصوم إلى مجلس الحكم، فحضر بعض التجار وأدعى أن له على نور الدين دعوى، فقال الكردي لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرفه أنه حضر شخص يطلب حضوره، وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد إلى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده، فتقدم سويد إليه وقال: سيرني تاج الدين، يعني القاضي، وذكر أنه حضر تاجروذكر أن له دعوى على المولى نور الدين، وقد أنفذني تاج الدين وقال لي: كذا وكذا، فضحك اسماعيل الخزندار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئاً: يقوم المولى، فقال: إلى أين؟ فقال: حضر سويد غلام تاج الدين الكردي، وقال إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على اسماعيل استهزائه، وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم، وقال نور الدين: يحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة، قال الله تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله

ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا^(٢٥) ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويداً وقال له: امض إلى القاضي تاج الدين وسلم عليه وقل له: إني جئت إلى ها هنا امتثالاً لأمر الشرع، واحتاج في الحضور إلى جلسة إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الاطيان وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجهت عليّ يمين أحضر إن شاء الله تعالى، قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى، وتوجهت اليمين فقال الكردي: قد توجهت اليمين فليحضر، فلما بلغ نور الدين ذلك وعلم أنه لامندوحة عن حضور مجلسه لليمين، استدعى ذلك التاجر وأصلح الأمر فيما بينه، وأرضاه.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شيركوه، وكان لا يفعل شيئاً إلاّ بمشورته، فقال: امض وقل لأسد الدين: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤمن والمكوس، وخذ رأيي في ذلك، قال: فجئت إليه وأنهيت ما قال لي، فقال: امض وقل له: يامولانا إذا فعلت ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم للغزاة، وخروج العساكر؟ قال السلطان صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمر قد ألهمه الله إياه، فساعده عليه فصاح في وقال: امض إليه، وقل له ما أقول لك.

قال: فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليه ما قال عمي، فقال امض إليه وقل له إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج، قال: فعدت إلى عمي وقلت ما قال، فقال: قل له إن تركوك نقعد فجيد هو، فراجعته في أن لا يثبطه عن ذلك، فصاح في وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك، فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدة، ثم أمضى ما كان عزم عليه.

قال لي صقر بن يحيى: بلغني أن موفق الدين خالداً رأى في النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين، فحجل موفق الدين وبقي أياماً على غاية من الخجل، فاستدعاه يوماً نور الدين، وقال: قد أن لك أن تغسل ثيابي أقعد وأكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت عليكم ما أثبته الله عليكم، قال: فكتب موفق الدين توقيعا.

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول: سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين، يعني كسرة البقيعة، تكلم البرهان البلخي فقال: اتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمر والطبول والزمر، كلا، وكلاماً مع هذا، فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الأفرنج.

سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سود كين بن عبد الله النوري، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين، فاعتقه، يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحاً ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل، قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع، ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سير نور الدين إلى بغداد كتاباً يعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ أن يستجعلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل إليه، يعني من أموالهم، فتقدم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

حدّثني رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن منذر أن نور الدين حين خرج لأخذ شيزر ، خرج أبو غانم بن منذر صحبته، فأمره نور الدين بكتابة منشور باطلاق المظالم بحلب . ودمشق. وحمص. وحران. وسنجار. والرحبة. وعزاز. وتلّ باشر، وعداد العرب، فكتب عنه توقيعا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقرّب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحا، وأطلقه مساحا لمن علم ضعفه من الرعايا رعاهم الله ،لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار أبادهم الله عند إستيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين، ولطفاً بالضعفاء المرابطين الذين خصهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمحنهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً،(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)^(٢٦) وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمرية، وأقرّها في الدولة الاسلامية، بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدّمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاحين، فطمس عنهم بذلك معالم الجور، وهدم أركان التعدي، وأقرّ الحق مقرة لقوله تعالى:(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)^(٢٧)والله يضاعف لمن يشاء^(٢٨) ثم لما أعانته الله بعونه وأيده بنصره وقمع به عادية الكفر وأظهر بهمته شعائر الاسلام وأظفّره بالفئة الطاغية، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنوع الرقاد ، وآخرين مقرنين في الاصفاد، هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب، (وان له عندنا لزلفى وحسن مآب^(٢٩)) علم أن الدنيا فانية، فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخراً للمعاد، فالتقوى مادّة دارة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين يلتبس الجواد (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ

لله^(٣٠) فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه، وحرّمها على متناول إليها ومتهافت عليها، تجنباً لإثمها، واكتساباً لشواحبها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه إتباعاً لكتاب الله، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، جهة ذلك : حلب خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جدّدته الفرنج خذلهم الله على المسافرين عشرة آلاف دينار. تلّ باشر أحد وعشرين ألف دينار. المعرة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدو، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه الفيئة عشرون ألف دينار، حصص ستة وعشرين ألف دينار. حرّان خمسة آلاف دينار. سنجار ألف . الرحبة عشرة آلاف دينار. عداد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدّق به وأجراه في سبل الخيرات، ووجوه البرّ والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدّرساتها وفقهائها، وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور، والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبل في طريق الحجاز، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ومقرّ الغرباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها الله تعالى من أملاكهم التي تقدم ذكرها، فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه، جعل ذلك ذريعة عند الله وتقرباً إليه، مضافاً إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد ، واستئصال شأفة أهل الكفر والعناد، من خزائنه المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورة طلباً لما عند الله (والله عنده حسن الثواب)^(٣١) فالواجب على كل إمام عدل وسلطان قادر أن يمدّه ويؤدّه، ويشدّ عضده، ويقوّي عزمه، وينفذ حكمه، وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء أثناء الليل وأطراف النهار.

كتبه خادم دولته، وغذّي نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان ابن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي، غفر الله له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين، وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا المتعبدين وكافة التجار والمسافرين، أحسن الله توفيقهم، وسدّد إلى أغراض الخير توفيقهم، ليشعروا بذلك من حضرهم من التجار والمتردّدين إليهم من السفار، ليعرفوا قدر ما أنعم الله به عليهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، ويمدّوه بأدعيتهم، ويرثوا ذمّته مما سبق من أخذ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلّا في خدمة وجهه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنذر: فلما وقف نور الدين على قوله: ويرى ذمّته مما سبق، استحسن ذلك كثيراً، ووعدته باقطاع حسن، واتفق موته بعد ذلك^(٣٢).

قلت: ونقلت من خط الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخضر بن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقي: وقف المولى نور الدين بستان الميدان سوى الغيضة التي من قبله بعد عمارته واصلاح ما يحتاج إليه على تطيب المساجد التي يأتى ذكرها وهي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعة دمشق، مدرسة الحنفية التي جدّدها نور الدين، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية، مسجد ابن لبيد بالفسقار، مسجد سوق الرماحين، المسجد المعلق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيخ المعلق، مسجد العباسي بسوق الأحد، مسجد نور الدين بجوار بيعة اليهود، جامع الصالحين بجبل قاسيون، يتاع بذلك عود وطيب، ويفرّق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً: جزآن للمدرسة، وتسعة أجزاء للتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزءاً واحداً، تطيب هذه الأماكن في الأوقات

الشريفة، ومواسم الاجتماعات وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضا أن نور الدين رحمه الله حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي والفقيهاء : الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الماسح الشافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الإسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد ابن أسد التميمي، رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم : عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائين أبو الحسن، وغيرهم فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه، وأن يظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به، ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدق للناطق، ومصوب لقوله، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه، وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل، وما يجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعاً موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح دون الوقف، فافتتح بالسوق المستجد تحت المأذنة الغربية بجوار البيمارستان، فقال الصائين وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكما له لمصالح المسلمين، وليس من

وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أو في مما غرم على عمارته من وقفه، فصَدَّقَهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة، ثم عين للمصالح أيضا ما في زيادة الجامع القبلي، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت والحجر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع، والفرن المستجدَّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت الخواصين في الصف الغربي، واثننا عشر حانوتا متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدَّة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي، وعدتها ثلاثة عشر حانوتا ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي ملصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللبادين والتي بحضرة الفوارة وتحت اللبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي بحضرة البيطرة، وقطعة بجوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمس عشرة عضادة وستة أسهم من طاحونة السقيفة، وذلك كله بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشترى بهال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم، ولم يكن له مال، وبعضه أحدث في الطريق.

قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح، قال نور الدين: إن أهم المصالح سدَّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، فصَوَّبُوا ما أشار اليه وشكروه، ثم سألهم عن فواضل الاوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين،

فأفتى شرف الدين عبد الوهاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روى في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون الشافعي: لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين لجهة إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك فليس طريقة إلا أن يقترضه من إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح، ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الائمة الحاضرون معه على ذلك، ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا، وهل كان إلا مبلغاً للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا باذني وأنا أمرت به وبفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزينين، وكتب مبلغاً عني ومؤدياً أمري.

قلت: وقد رأيت المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة، وتأکید لما نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشرع، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين، وصورة ما كتبه المالكي المفتي: «حضرت المجلس المذكور، عمره الله وزينه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه، وشهدت على ماتضمنه من المشورة المباركة، ومانسب إلى الجماعة من الشهادة بالمواضع المشهورة كما نسب إليهم وقد أخل بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح المشهورة، ومانسب إليّ من الفتوى، فقد كنت قيده بالحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهماتهم الدينية. كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكي».

فصل

وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مدح به، وكان في أول دولته شاعرا زمانها أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملة منها في مواضعها وقد رأيت أن أقدم منها شيئاً هنا.

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني: كتبت إلى نور الدين سلام الله وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على من عصم بعزه العواصم، وخصم بحجته الدهر المخاصم، وألجم بهيته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل الله سيوف الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة الله وليس غير الله من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقاب ملكته، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر، ومن رأى الحكم دارسة، فبنى مدارسها، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها، ومن عمر ربع السنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان: ذوالجهاديين من عدو ونفس

فهو طول الحياة في هيجاء
فهو المالك الذي ألزم الناس
سلوك المحجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل لما
سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسما ملكت في الناس حتى
لقسمت التقى على الاتقياء

شيم الصالحين في جتر الترك
وكم من سكينه في قباء
أنت حيناً تقاس بالاسد الورد
وحيناً تعد من الأولياء
صاغك الله من صميم المعالي
حيث لا نسبة سوى الآلاء
وكان القباء منك لما ضم
من الطهر مسجد بقباء
أنت إلاتكن نبيا فإفباتك
إلا خلائق الأنبياء
رأفة في شهامة وعفاف
في اقتدار وسطوة في حياء
وجمال بمنطق بجلال
وكمال متوج به
وإذا ما الملوك خافت سهام الذ
ذم زرت عليك درع الثناء
اعجب الناس منك إنك في الحر
ب شهاب الكتيبة الشهباء
وكان السيوف من عزمك الما
ضي أفادت ما عندها من مضاء
ولعمري لو استطاع فذاك ال
قوم بالامهات والآباء (٣٣)

وله فيه شعر
لله عزمك أي سيف وغى
طبعته مضارب به على القهر
ما زفت الحرب العوان به
الا انجلت عن معقل بكر

هل وجه نور الدين غير سنى
صدع الدجى عن خجلة البدر
ملك مهابت به طليعته
أبدأ أمام جيوشه تسري
كم فل كيدهم بصاعقة
شغلت قلوبهم عن الكفر
تركت حصونهم سجونهم
فالقوم قبل الأسر في أسر
عصم العواصم فهي ضاحكة
تجلوا الظبى ثغرا على ثغر
فإذا سرايا خيله قفلت
نهضت سرايا الخوف والذعر
ورمى القلاع بمثل جندها
حتى استكان الصخر بالصخر
ياسائلي عن نهج سيرته
هل غير مفرق هامة الفجر
عال حقيق من تأمله
أن يحیی العمرین بالذكر
وشهامة في الله خالصه
عقدت عليه تائم الأجور
وندى يدماضر وأردها
أن لا يبيت مجاور البحر
هذا المخيم في ذرى حلب
وثناؤه أبداً على ظهر

وله فيه وقد وصف داره:
دار تغار الشمس في أفق
من حسنهما والشمس مغيار

يزأر فيها ضيغم ماله
غير سيقوف الهند أظفار
تمسي وتضحكي وهو جوار لها
والله ذو العرش له جوار
لسيفه الباتر من دهره الـ
جائر ما يهوى وما يختار
قدملاً الأسفار من ذكره
نشر له في الأرض إسفار
حمد يضوع الجؤ من طيبه
كأنها راوي به عطار
إن خطرة في قلبه خطرت
أجابهام باض وخطار
وإن دعا داعيه يوم الوغى
سيقوفه لبت به أقدار
وإنما صارمه مرسلا
له من التأيد أنصار
يا ملك الدنيا ولكنها
دنيا لها في الدين آثار
ويجاءوا دام لا لآله
غير قضاء الحمم مضمار

وله فيه أيضا:

تدارك ملّة العربي ذبا
إلى أن عده منته معده
وحل ذرى العواصم وهي نهبي
فأجل الشك حتى ليس ضد
ثنى يده عن الدنيا عفا
ومال بها عن الأموال زهد

رأى حط المكوس عن الرعايا
فأهدر قبل ما أنشأه بعد
ومد لها رواق العدل شرعا
وقد طوى الرواق ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها
لدولته دعاء لا يرد

وله فيه:

ملك أشبهه الملائك فضلا
وشبيهه بالملك الأمر جنده .

عم إحسانه فأصبح يتلى
شكره في السورى ويدرس حمده
فسقى الله ذكره أينما حل
ولافاته من النصر رفده

وله فيه:

ضحكت تبشير الصباح كأنها
قسمات نور الدين خير الناس
المشتري العقبى بأنفس قيمة
والبائع الدينيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه
إن الدعاء يعد في الحراس
راض الخطوب الصدم بعد جماحها
وألان من قلب الزمان القاسي
وأعاد نصور الحق في مشكاته
وأقام وزن الحق بالقسطاس

واختار مجد الدين سائس ملكه
فحمى السياسية منه طود راسي
فهو الخبير بكل داء معضل
يأسوجراح زماننا ويواسي
وأذل سلطان النفاق بعزة
خضعت لها الأساد في الأخياس
وعرته أقران الخطوب فصدها
ألوى يارسها أشد مراس
ولو أن فيض النيل فائض نيله
لم تفتق مصر إلى مقياس
سكنت شعب الدهر بعد تخمط^(٣٤)
وألنت من عطفه بعد شماس
وفتحت باب الحظ بعد رتاجه
وأذنت لالطامع بعد اليأس
حتى منحت الخلق كل مسرة
فالناس في عرس من الأعراس

وله فيه:
سام الشام ويالها من صفقة
لولاها ما عنت على يد سائم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحت
فيها العواصم وهي غير عواصم
تلك التي جمحت على من راضها
ودعوت فأنقادت بغير شكائم

وإذا سعادتك اجتبت في دولة
قام الزمان لها مقام الخادم
حصن بلادك هيبة لارهبة
فالدرع من عدد الشجاع الحازم

هيهات يطمع في محلك طامع
طال البنساء على يمين الهادم
كلفتم همتك السموف حلقت
فكأنها هي دعوة في ظالم
وأظن أن الناس لما يروا
عدلا كعدلك ارجفوا بالقائم

وله فيه:
قلت بقول الله لا خائفا
مع حكم القرآن حكم القران
لأراقب النجوم ولا سائلا
مأفعل السعدان والنيران
بل غرت لاسلام حتى لقد
دان له من بالطواغيست دان
رعت نواويس نواقيسها
بحلبة الأذان وقست الأذان
تمحو تصاوير الدمى عن يد
تبني المحاريب خلال المجان
هذا وكم أنشأت من منبر
فارسه فارس سحر البيان

من نال بالاخلاص ما نلته
كان من الله مكين المكان
يا شائما بالشام صوب الحيا
ودانيام من كل قاص ودان
هذي سجوف الملك مرفوعة
عن ملك أخباره كالعيان
أوضح سبيل العدل مفتتحة
فللبرايا بالدعاء افتتان

ألغى حقوقا كلها باطل
إلى مال حط مال الضمان
عظفا ورفقا بالرعيا وان
أصبح تأديب ملوك الزمان
كم بين من نام على نشوة
وساهر في صهوة من حصان
في كل يوم يتنبي سيفه
ببلدة بكر وأخرى عوان

وقرأت في ديوان أحمد بن منير الطرابلسي من قصائد يمدح بها نور
الدين رحمه الله تعالى:
يا محيي العدل ويا منشره
من بين أطباق البلى وقد همد
وركن الاسلام الذي وطده
طال وأرسى العز فيه ووطد
وشارع المعروف إذ لا سفه
يجنح للقول ولا تسمع يد
محوت ما أثبتته الجور مضى
عليه إخلاص الليال مخلد
من كل مكاس يظل قاعدا
لما يسوء المسلمين بالرصدا
كانت لأرجاس اليهود دولة
أزالها منك الهصور ذو اللبد
الملك العادل لفظ طابق الـ
— معنى وفي الوصف معار مسترد
خير النعوت ما جرى الوصف على
صفحته جري النسيم في الومد

عدل جنيت اليوم حلوريعة
وسوف يجنى لك أحلى منه عند
لا زال لاسلام منك عدة
تقيم منه كل زيغ وأود
الناس أنت والملوك، شرط
تعدليثا ويعدون نقد
مثلك لا يسخوبه زمانه
ومثل ما أوتيت لم يوت أحد

وله فيه
أيانور دين خبانوره
ومذشاع عدلك فيه اتقد
راك الصليب صليب القنساء
أمين العثمان مرتين العممد
تهم فتسلبه ما اقتنسى
وتدنى (٣٥) فتشكله ما احتشد
زبنتهم أمس عن صرخد
ففضوا كأن نعاما شرد
ويوم العريمة أقبلتهم
عراما يثعلب منه الأسد
جنببت مليكهم في الصفاد
وعفوك عنه أعسم الصفد
وقبل أزدتهم في الهرها
موازي مزقن جرد الجرد
بقيت ترقع خرق الزما
ن قياما لابنائهم إن قعد
تثقف من زيغه ما التوى
وتصلح من طبعه ما فسد

وله فيه:

أياملك الدنيا الحلال والذي
له الأرض دار البرية أعبد
ولست بدعوى لا يقوم دليلها
ولكنه الحق الذي ليس يحد
أخو الغزوات كالعقود تناسقت
تحل بأجساد الجياد وتعقد
لسان بذكر الله يكسونهاره
بهاء وجفن في الدجى ليس يرقد
وبذل وعدل أغرقا وتألقا
فلا الورد مثمود ولا الباب موصد
مرام سمائي وحزم مسدد
ورأي شهابي وعزم مؤيد

وله فيه:

أبدا تنكب عن ضلال سادرا
بثقب زندق أو تدل على هدى
سدت الكهول من الملوك مراهقا
وشأوت شبيههم البوازل أمرد
إن شيدوا صرحا أناف مناره
أو يسجدوا للكاس جدد مسجدا
وإذا استهزتهم فلا يد معبد
هزته موعظة فعرف معبدا
قسما بشام الشام منك مهندا
أرضاه مشهورا وراع مقلدا
وتمسك الإسلام منك بعروة
الله أبرم حبلها فاستصحدا

أشفي فكنت شفاءه من حادث
غاداه عارضه مردى بالردا
كنت الصبح لليله لما دجى
والغوث كف لظاه حين توقدا
لله يوم أطلعك به النوى
يجتاب من مهج الأضا فر مجسدا
نشوان غنتك الظبي مفلولة
وأمال عطفك الوشيح مقصدا
في معرك ما قام بأسك دونه
إلا أقام المشركين وأقعدا
ولكم مكرّ قمت فيه معلما
أرضى إلهك والمسيح وأحمدا
يوم العريمة والخطيم وحارم وشدا
عاب باسوطا وهاب وصرخدا
لا يعدم الاشرار جددك أنه
ما سئل فيهم حاكما إلا اعتدى
أهمدتهم من بعد ما ملأ والملا
زجلا فهل كانت سيوفك مرقدا

طلعت نجوم الحق من آفاقها
وأعادها كرا العصور كما بدا
وهوى الصليب وحربه وتبخرالا
سلام من بعد التافف أغيدا
سبق المجلي للخطي فرفعه
نسق فتم وقد رفعت بالابتدا

وله فيه:

محمود المربى على اسلافه
إن زاد في حسب الحبيب نجار

تقفو طريق الصالحين مسابقا
لهم وتطلع خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد مثلك في الذي
فيه تفاننت يعرب ونزار
ومتى ادعى ما تدعيه محكم
أوهى معاقدينه دينار
لله ما ظفرت به منك المنى
وتكنفت من ركنك الاستار
وسقى الغمام ثرى أيبك فانه
أزكى ثرى قطرت عليه قطار
شهدت نصارة عودك الغض الجنى
أن الذي استخلصت منه نضار
أما نهارك فهو ليل مجاهد
والليل من طول القيام نهار
فلذلك النصر العزيز أدلة
أنى اتجهت وللفتح أمار
وله أيضا فيه رحمه الله تعالى:

رأينا الملوك وقد ساجلو
كتمنا وامنونا وغرّوا غرورا
أبى لك أن يدركوه أب
يزير فينسي الأسود الزئيرا
وجد إذا جديوم الرها
ن أبقى لتاليه جدا عثورا
تصب عصاك على من عصاك
يوماعبوسا بها قمطيرا
لقد ألبس الشام هذا الإباء
لبوسا من الامن لينسا وثيرا

تداركت أرمأقه والقلو
بـنوافر أن يستحسن الصدورا
أقمت جثا (٣٧) وكانت جثا
وشدّت قصورا وكانت قبورا
وكم لك من غضبة للهدى
تميت الهوى وتجب الذكورا
إذا قطب اليأس كانت ردى
وإن ضحكك العفو عادت نشورا
كملت فوقيت عين الكمال
تبيد السنين وتفني العصورا
وجاد لنا بك رب برا
كـلـكـفر نارا ولـلـدين نورا
إذا ما خدمت فمولى كريما
وأما عبت فعبدا أشكورا
امام المحارب برأ حصورا
وتحت الحروب هزبرا هصورا
تبارك من شادهذي الخلال
في ظله الملك طودا وقورا
وألـفـ في معقد التاج منـ
كـسطـ وأسـعـرـ وأعـفـ وانمـيرا

وله فيه:

عقل الحق السمن المدعينا
أنت خير الملوك دنيا ودينا
وأسد الانام قنولا وأفعلا
لأ ونفسا وأنيعة ويقينا
أنت أسناهم أباء وإباء
وأمرأحيا وأمرع حينا

بسط الرزق في البسيطة كفاك
فكلت يا يديك تلفى يميننا
فيد تحسم النوائب عنا
ويد تقسم الرغائب فينا
أيها البحر لو تساجلك الأبحر
عامت في ساحليك سفينا
ولكان المحيط منها محاطا
مثل نون الهجاء أو خيل نونا
مشرعاً مترعاً ومنامهنا
ورباعاً فيحاً وكفال بونا
ومحيطاً طلقاً ومالاً طليقاً
وابتهاجاً قصداً وحبلاً ممتيناً
بين ذب يميست عادية الشر
كوهب يحى به المسلمونا
تسنى من الفتوح ألوفنا
أنت أعلى من أن تعد المئينا
كلما اجتبت ثوب نصر عزيز
من مرام أقبلت فتجامينا

صرف الله عنك صرف الزمان
أنت علمت صرفه أن يهونا
يابن من طبق البسيطة آثا
رأو علل لمنابذيه الاجونا (٣٨)
وغدت حصنه على شرح هذا الد
ين من شكة الأعادي حصونا
كم تعالى صهيلها في ربي الشا
م فأعلى خلف الخليج الرنيننا
كان صنو الرشيد أبقاك للحك
سمة والبأس بعده المأمونا

سمع الله فيك دعوة سكن
أوطنوا من حماك حصنا حصينا
غرقتهم مدى الخطوب فأحيي
ت رفاتا من التراب دفينا
البسوا عدلك المديح فاختر
لوا بنات في وشيه وبنينا
سهرت عينك الكلؤونا مورا
تحت أكناف رعيها آميننا

قلت: فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه مع أنها مأتا في سنة
ثمان وأربعين وخمسة قبل أن يفتح نور الدين دمشق، وبقي نور الدين
حيّاً بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقى كل عام في إزدياد من جهاد
واجتهاد، ولو كانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجائب المدائح ، مع أنه
قد تولى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما. ولأبى المجد المسلم بن الخضر
ابن قسيم الحموي من قصيدة فيه:

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه
كالرمح دل على القساوة لينه
ووراء يقظته أنباء مجرب
لله سطوة بأسه وسكونه
هذا الذي في الله صبح جهاده
هذا الذي بالله صبح يقينه
هذا الذي بخل الزمان بمثله
والمشمخ ر إلى العلى عرينه
ملك الوري ملك أغر متوج
لا غدره يخشى ولا تلوينه
إن حلّ فالشرف التليد أنيسه
أوسار فالظفر الطريف قرينه
فالدهر خاذل من أراد عناده
أبدا وجبار السماء معينه

ملك إذ اتليت مآثر قوميه
كسبد اللطيم وهجن النوار
ملا الفرنجة جور سيفك فيهم
فلهم على سيف المحيط جوار
يوم ما يزيرك جوف عرقه معلما
جوف له خلف الدروب أوار
وتجر في الأردن فضلة ذيله
نقع بأكناف الأرنبط مثار
إمات ييح حريم أنطاكية
أوي فجا أالداروم منك دمار
عفى جهادك رسم كل مخوفة
وصفت بصفوة عدلك الاكدار
ومحا المظالم منك نظيرة راحم
لله في خطراته أسرار
غضبان لاسلام مال عموده
فلنوره مماعراه نوار
وجدت كل يد تسور على يد
فاحلت ذاك السور وهو سوار
لم يبق ما كس مسلم شلقا^(٣٦) ولا
ساع لمظلمة ولا عشار
همدوا كما همدت ثمود وقادهم
بخسارهم مما أتوه قذار
العار في الدنيا شقوا بلباسه
ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحييتهم عمريّة
رفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازما
بأقلها تستعيد الأحرار

والدين يشهد أنه لمعه
والشرك يعلم أن أنه لمينه
ما زال يقسم أن يبدد شمله
والله يكبره أن تمين يمينه
فتح الرهاب بالأمس فانفتحت له
أبواب ملك لا يزال مصونه

ومادح نور الدين رحمه الله كثيرة، وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان
قليل الابتهاج بالشعر، ومات حادي عشر شوال سنة تسع وستين
 وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى قبته بمدرسته بجوار
الخواصين.

قلت : وقد جرب استجابة الدعاء عند قبره، وهذا ذكر طرف من
مناقبه جملة ، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصلة مرتبة
وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار إن شاء الله تعالى

فصل

أصل البيت الأتابكي هو قسيم الدولة آق سنقر جد نور الدين،
فنذكره وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده زنكي وما تم في أيامه، ثم نذكر
ولده محمود بن زنكي، ثم نذكر ما بعده، وهي الدولة الصلاحية الأيوبية،
وما تم في أيامها فنقول:

كان آق سنقر تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه بن
ألب أرسلان ، وهو عم دقاق بن تتش بن ألب أرسلان الذي كان
سلطان دمشق، وقبره بقبة الطواويس بها، بته والمشهد والدته، وكان
السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلين على البلاد بعد بني
بويه بالعراق، فكان قسيم الدولة من أصحابه وأثرابه ومن ربي معه في

صغره، واستمرّ في صحبته إلى حين كبره، فلما أفضت السلطنة بعد أبيه إليه جعله من أعيان أمرائه، وأخص أوليائه، واعتمد عليه في مهماته، وزاد قدره علوّاً إلى أن صار يتقيّه مثل نظام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان، وتمكنه من المملكة، فأشار نظام الملك على السلطان أن يولي آق سنقر مدينة حلب وأعمالها، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان، ويتخذ عنده يداً بذلك.

قال ابن الاثير: ومن الدليل على علوّ مرتبته، تلقبه قسيم الدولة، وكانت الألقاب حينئذ مصنونة لا تعطى إلا لمستحقّيها. وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير، وكان زوج ابنة نظام الملك إلى الموصل، وسير معه جيشاً عظيماً، وجعل المقدّم على الجيش قسيم الدولة آق سنقر فسار نحو الموصل، ولقيهم في الطريق الأمير أرتق التركماني جدّ ملوك الحصن وماردين فاستصحبوه معهم، فحاصروا الموصل، وحاربوا من بها وتسلموها، وسار صاحبها إلى السلطان فردّها عليه وكانت يومئذ لأحد أمراء بني عقيل، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي، وكان ملكه من السندية بالعراق على نهر عيسى إلى منبج وما بينهما من البلاد الفراتية: كهيت والأنبار وغيرها، وملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها، وملك مدينة حلب، وكان عادلاً حسن السيرة، عظيم السياسة واتفق ان وقع بينه وبين صاحب أنطاكية خلاف، وذلك أن أنطاكية كان الروم قد استولوا عليها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ولم يزالوا بها إلى هذه السنة، ففتحها سليمان بن قتلмыш، وهو جدّ الملك غياث الدين كيخسرو، صاحب قونية وغيرها، وكان لشرف الدولة صاحب حلب على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها كل سنة، فانقطعت عنه بسبب أخذ سليمان البلاد، فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم وتهدّده، فقال: أنا في طاعتك وهذا الفتح بسعادتك، والخطبة والسكة لك، ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم، فلج شرف الدولة

في طلب المال، فالتقى فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصرها، وسار إليها من دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه، فالتقى عسكر تتش وسليمان، فقتل سليمان وانهزم عسكره، وملك تتش مدينة حلب دون القلعة، فأرسل أهل القلعة إلى ملكشاه ليسلموها إليه، وهو يومئذ بالرها، وكان سبب مسيره إليها أن ابن عطير النميري قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار، وسلمها إليهم فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها، فسار ملكشاه إليها في هذه السنة، فحصرها وفتحها وأقطعها الأمير بزان، فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم، سار إليهم فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي وهو ابن عم شرف الدولة، فسلمها إلى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر، وكان قد ملكها في هذه السفرة، من صاحبها جعبر القشيري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي، فلما ملك السلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر، ودخل في طاعته وسلم إليه اللاذقية وفامية وكفر طاب.

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر، فأقطعه الجميع، وبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمئة، كما سيأتي، وأقطع السلطان مدينة أنطاكية الأمير باغي سغان، ولما استقر قسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيئته في جميع بلاده، ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق، فقدم إليه في تجميل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب، فعاد إليها، فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت، فملكها وفي سنة إحدى وثمانين قصد قسيم

الدولة شيزر فنهبتها، وعاد إلى حلب، وفي سنة ثلاث وثمانين اجتمع قسيم الدولة وبزان وحصروا مدينة حمص فملكوها، ومضى ابن ملاعب إلى مصر، وفي سنة أربع وثمانين ملك قسيم الدولة حصن فامية من الشام، وملك الرحبة.

فصل

وفي عاشر رمضان سنة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الدين أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق، قتله صبي ديلمي بعد الافطار وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم، فلقية صبي ديلمي مستغيثاً به فقربه منه ليسمع شكواه فقتله، وقتل الصبي أيضاً فعدمت الدنيا واحداها الذي لم تر مثله، وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبي صلى الله وسلم في المنام، كأنه أتاه وأخذه من محفته فتبعه، فاستبشر نظام الدين بذلك وأظهر السرور به، وقال: هذا أبغي وإياه أطلب، وكان قد بلغ من الدنيا مبلغاً عظيماً لم ينله غيره، وكان عالماً فقيهاً ديناً خيراً متواضعاً عادلاً، يحب أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم، وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان يناظرهم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حدائته مدة، وأما صدقاته ووقوفه فلا حد عليها، ومدارسه في العالم مشهورة، لم تخل بلد من شيء منها حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضي الدين، وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ لم يسبقه من كان قبله ولا أدركه من كان بعده، وكان من جملة عباداته أنه لم يحدث إلا تَوْضُأً ولا تَوْضُأً إلا صلى، وكان يقرأ القرآن حفظاً، ويحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة حتى أنه كان إذا غفل المؤذن أمره بالأذان، وإذا سمع الأذان

أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل باجابهته، ثم بالصلاة، وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان، والدملكشاه قبل أن يلي السلطنة في حياة عمه السلطان طغر بك أول الملوك السلجوقية ببغداد، فلما توفي طغر بك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرت السلطنة له وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه إلى أن قتل، وكان قد تحكم عليه، إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه، لكثرة مماليكه ومحبة العساكر له والأمراء، وميل العامة والخاصة إليه، لحسن سيرته وعدله، وهذا كلام أبي الحسن بن الأثير.

وقرأت في كتاب المعارف المتاخرة، ويسمى عنوان السير لمحمد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمداني قال: وزر نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي للسلطان ألب أرسلان، ولولده السلطان ملكشاه أربعاً وثلاثين سنة، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً، اغتاله أحد الباطنية، وقد فرغ من فطوره، قال: وقيل إن السلطان ملكشاه ولف عليه من قتله لأنه سئم طول عمره، ومات بعده بشهر وخمسة أيام، وقد تقدّم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم، وأفضل على الخلق الافضال الكثير، وعم الناس بمعرفه، وبنى المدارس لأصحاب الشافعي ووقف عليهم الوقوف، وزاد في الحلم والدين على من تقدّمه من الوزراء، ولم يبلغ أحد منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون فوق على العامل بأنطاكية، بما يصرف على الملاحين، وملك من الغلمان الأتراك ألفوا، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه.

قلت: وأنشد أبو سعد السمعاني في ذيل تاريخ بغداد فقال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني غير مرة من لفظه للأمير شبل الدولة يعني مقاتل بن عطية بن مقاتل بن عطية البكري:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة
ثمينة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها
فردها غيره منه إلى الصدف

فصل

عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثون يوماً، ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاماً ونصف العام، وكانت مملكته قد اتسعت اتساعاً عظيماً، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه اليمن والحجاز، وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية، وأطاعه صاحب طراز، واسييجاب وكاشغر وبلا سغون وغيرها من الممالك البعيدة، وملك سمرقند، وجميع ما وراء النهر، ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به، وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر الكثير، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحفر من الآبار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر ممالي الكوفة بمكان يعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسمرقند أيضاً، قيل إنه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب وبلغ السبعية بقرب الواقعة، وبنى هناك منارة ترك في أثنائها قرون الطي وحوافر الحمر الوحشية التي اصطادها في طريقه، وبعد موته تنازع ابنه بركياروق ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو إثنتي عشرة سنة إلى أن توفي بركياروق، واستقرت السلطنة لمحمد، وفي مدة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل، وملكوا انطاكية أولاً، ثم غيرها من البلاد.

وكان السلطان قد اقطع أخاه تاج الدولة تتش مدينة دمشق وأعمالها وماجاورها، كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران، وياغي سغان صاحب أنطاكية فساروا معه نحو الرحبة ونصيبين فأخذهما، وراسل صاحب الموصل إبراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد فامتنع، فالتقى فهزم صاحب الموصل وقتل، وأخذت بلاده، وسار إلى ميفارقين، فملكها وسائر ديار بكر، ثم سار إلى أذربيجان، فالتقى هو وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه، فانتقل قسيم الدولة وبوزان إلى بركياروق، فرجع تاج الدولة إلى الشام، ورجعا إلى بلادهما بأمر بركياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها، فجمع تاج الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدّهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كربوقا، وهو الذي صار فيما بعد صاحب الموصل، فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ، فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيراً فقتله تاج الدولة صبراً ودخل بُزان وكربوقا حلب فحصرهما تاج الدولة حتى فتحهما، وأخذهما أسيرين، وأرسل إلى حران والرها وكانتا لبزان فامتنع من بهما من التسليم، فقتل بزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين، وأما كربوقا فإنه سجنه بـخمص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة.

قال ابن الاثير: وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمينين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا، فأمنت الطريق وتحديث الركبان بحسن سيرته.

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة، وهو أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر، وأمه تركية، وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ويلقب محمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة، مات في حياة أبيه، فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زنكي

والد نور الدين رحمه الله تعالى على سبيل الاختصار، في فصول إلى حين وفاته، ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد، وهو عماد الدين زنكي والد نور الدين، وكان حيثئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي، وهو صبي أيضاً، ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوجه إلى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها، ثم سار إلى نصبيين فملكها ثم إلى الموصل فملكها وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي، وسار نحو مardin فملكها وعظم شأنه، وهو في طاعة ركن الدولة بركياروق، فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضره عنده، فأقطعهم الاقطاعات السنية، وجمعهم على عماد الدين زنكي واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها، فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين

سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن، فكسره قوام الدولة كربوقا، وهو أول مصاف حضره زنكي بعد قتل والده، ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وملك بعده موسى التركماني، فلم تطل مدته وقتل، وملك الموصل شمس الدولة جكرمش وهو أيضاً من مماليك السلطان ملكشاه، فأخذ زنكي فقربه وأبى به، واتخذ له ولدًا لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمس مائة، فلا جرم أن زنكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدمه وأقطعته أقطاعاً كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذ صهرًا.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاوي سقاوه، فاتصل به عماد الدين زنكي، وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان جاوي قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الدين رضوان، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود، وأقطعته إياها سنة اثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاوي فارقه زنكي وغيره من الأمراء، فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكي أكرمه وشهد معه حروبه، فسار مودود إلى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان كانت للفرنج، وقتل من كان بها منهم، ثم سار إلى الرها فحصرها، ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها، ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فسار إلى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً، وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثله، منها أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه، وتقدم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج، فدخلوا البلد، ووصل ربحه إلى الباب فأثر فيه، وقاتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أولاً، ومن سلامته آخراً، ثم التقى

الجمعان فهزم الفرنج لعنهم الله ووصلوا الى مضيق دون طبرية، فاجتمعوا به وجاءتهم نجدة فأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم، والاجتماع إليه في الربيع، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها فخرج يوماً يصلي الجمعة فلما صلاها وخرج من صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات، وكان صائماً فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل، وقال : لا لقيت الله إلا صائماً فلأنني ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت ، وتوفي في بقية يومه رحمه الله، ف قيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين، فوضع عليه من يقتله، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة.

قال ابن الاثير حدثني والدي رحمه الله قال: كتب ملك الفرنج إلى طغتكين: «إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها». فلما قتل الأمير مودود أقطع السلطان بلاد الموصل وغيرها للأمير جيوش بك، وسير معه ولده الملك مسعود إلى الموصل، ثم أنه جهز آق سنقر البرسقي في العساكر وسيره إلى قتال الفرنج ، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي، فسار البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس فحصرها، وقتل من بها من الفرنج والأرمن ، وضافت الميرة عن العسكر، فرحل إلى سميساط وهي أيضاً للفرنج فأخرب بلدها وبلد سروج، وعاد إلى بلد شبختان فأخرب ما فيه من الفرنج، وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسناً، ثم عادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي إلى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وقد علا قدره وظهر اسمه.

فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولد الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي رحمه الله، وفيها غرقت سنجار من سيل المطر، وهلك منها خلق كثير، ومن أعجب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل ، فتعلق المهد في شجرة، ونقص الماء فسلم ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة.

وفيها أيضا زلزلت إربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة.

وفيها في الرابع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وأول ما خطب له ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عدة مرار، ولقى من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفي أخوه بركياروق، فحيث استقرت له السلطنة وصفت له ودانت البلاد، وأصحاب الاطراف لطاعته، وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر، وكان عادلاً حسن السيرة شجاعاً، وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ومن عدله أنه اشترى عدة ممالك من التجار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خورستان، فأوصل إليه البعض، ومطل الباقي، فحضر التاجر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان، واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حاله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله، فعظم عليه وضاق صدره وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بهال التاجر، ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن أداء الحق.

قال ابن الاثير: وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى للبيت الأتابكي، فإن

الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه، وقد تقدم ذلك

ولما علم الأمراء وغيرهم من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأمن الناس وظهر العدل.

وولي بعد السلطان محمد ابنه محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة، فقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه سنجار حرب إنهم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهد، فأكرمه وأقطعه من البلاد إلى حد خراسان إلى الداروم بأقصى الشام، ومن الممالك همذان وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس، وخوزستان، والعراق وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر، وبلاد الموصل والجزيرة، وديار مصر، وديار ربيعة، والشام، وبلد الروم، الذي بيد قليج أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الاثير : ورأيت منشوره بذلك

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخسمائة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين، خطب لهم ببغداد من السلجوقية وهم: أخو ملكشاه تاج الدولة تتش، وركن الدولة بركياروق بن ملكشاه، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه، وكان المستظهر رحمه الله كريم الاخلاق لين الجانب، مشكور المساعي، يحب العلم والعلماء، وصنفت له من التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسن الخط، جيد التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله، ودفن في حجرة كان يألفها.

وفي أيامه توفي جماعة من العلماء، ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، وفي ذي القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي مصنف «حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن» يزيد على ثلاثمائة مجلد.

قال ابن الاثير: رأيت منه تفسير الفاتحة في مجلد كبير، وفي ذي الحجة توفي الإمام أبو نصر الحميدي مصنف الجمع بين الصحيحين، وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي، وله نحو تسعين سنة، وفي سنة اثنتين وخمسين ومائة توفي أبو زكريا التبريزي اللغوي. وفي ذي الحجة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي ابن الخازن صاحب الخط المشهور، وفي سنة خمس وخمسمائة، توفي الإمام أبو حامد الغزالي، وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الإمام أبو بكر محمد بن الشاشي الفقيه، رحمهم الله أجمعين.

فصل

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقرّ أخاه مسعودا على الموصل، مع أتابكة جيوش بك فبقي مطيعا لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فحسن له الخروج عن طاعته، وطلب السلطنة، فأظهر العصيان، وخطب للملك مسعود بالسلطنة، وكان زكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه، ويحذرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع، فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزم عسكر مسعود وأسر جماعة من الأمراء والأعيان منهم الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن اسماعيل الطغرائي وزير مسعود فقتله السلطان محمود، وقال قد صبح عندي فساد اعتقاده ودينه، وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسن الكتابة جيد الشعر.

قلت: وقيل إنه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثمان عشرة

وخسمائة، وقيل إن الذي قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه،
ذكر ذلك كله أبو سعد السمعاني في تاريخه، وسماه الحسين بن علي بن
عبد الصمد الديلمي، وأنشد له أشعاراً حسناً منها:

إذا ما لم تكن ملكاً مطاعاً
فكن عبد المالك مطيعاً
وإن لم تملك الدنيا جميعاً
كما تهواه فاتركها جميعاً
هـما سيان من ملك ونسك
ينيلان الفتى الشرف الرفيعاً
ومن يقنع من الدنيا بشيء
سوى هذين يجيى بها وضعياً

ثم استأمن من مسعود وأتابكه جيوش بك، فأمنهما السلطان، وأخذ
الموصل منهم فأقطعها آق سنقر البرسقي مع أعمالها كالجزيرة وسنجار
ونصيبين وغيرهما في صفر سنة خمس عشرة وسيره إليها، وأمره بحفظ عماد
الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته، ففعل البرسقي ذلك وزاد
عليه لمكان زنكي من العقل والشجاعة، وتقدم والده في الأيام الركنية،
وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة، فأعظم الناس عندهم
أكثرهم اتباعاً لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زنكي مدينة واسط
وشحنكية البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد
شأنه عظماً وهاب الأمير ديبس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة
ناحيته، وجرت بينه وبين البرسقي حروب ومواقعات، وهم ديبس بقصد
بغداد فسار البرسقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد بالله بنفسه فانهزم
عسكر ديبس وقتل منهم وأسر خلق كثير، وكان لعماد الدين زنكي أثر
حسن في هذه الواقعة أيضاً بين يدي الخليفة، وذلك في أول المحرم سنة
سبع عشرة.

وأما دبيس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد، وصار معه في خواص أصحابه، وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود، وأمر السلطان محمد للبرسقي أن يرجع إلى الموصل فعاد واستدعى زنكي من البصرة ليسير معه إلى الموصل، فقال زنكي لأصحابه: قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة، وتارة بالشام، فسار من البصرة إلى السلطان محمود، فأقام عنده، وكان يقف إلى جانب تحت السلطان عن يمينه لا يتقدم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده من بعده.

ثم أتى السلطان الخبر أن العرب اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر زنكي بالمسير إليها وأقطعه إياها لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي، وقت اختلاف العساكر والحروب، ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله، وكان قد جرى بين يرناقش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة، فتهدده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد، وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق، فسار السلطان إلى بغداد، وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنة بغداد والعراق، يؤمن معه من الخليفة، ويضبط الأمور فولى ذلك زنكي مضافا إلى ما بيده من الإقطاع، وسار السلطان عن بغداد.

وفي سنة عشرين وخمسمائة قتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد صلاة يوم الجمعة، ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس، فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان عادلا لين الأخلاق حسن العشرة، وكان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة، لا يستعين في وضوئه

بأحد، فقرّر السلطان ولده عز الدين مسعود على ما كان لأبيه من الأعمال، وهي الموصل وديار الجزيرة وحلب وحمّاه وجزيرة ابن عمر وغيرها، وكان شاباً عاقلاً فضبط البلاد، فلم تطل أيامه وتوفي سنة إحدى وعشرين، وولي الأمر بعده أخوه الصغير، وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاولي، وهو مملوك تركي من مماليك أبيهما، فجرت الأمور على أحسن نظام.

فصل

في ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البرسقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ، وسبب ذلك أن عز الدين البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرّ البلاد عليه، وكان المراسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغيساني، فحضرنا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولايرضيان بطاعته، والتصرف بحكمه، وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين جقر مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبوا البلاد لعِماد الدين زنكي، ففعلا وقالوا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديّتهم، فمذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل صغير، ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله تعالى واللوم من السلطان، فأنهى الوزير إلى السلطان، فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد؟ فذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي وعظما محله أكثر من غيره، فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعا وكتب منشوره بها.

وسار من بغداد إلى البوازيح ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد، فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسيّره إلى الرحبة وأعمالها، وأقام هو بالموصل يصلح أمورهما، ويقرّر قواعدها، فولى نصير الدين

دزدارية قلعة الموصل، وفوض إليه أمر الولاية جميعها، وجعل الدزدارية في البلاد جميعها له، وجعل الصلاح محمد الياغيساني أمير حاجب الدولة، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها، وما يفتح من البلاد، ووفى لهم بما وعدهم، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطا معه، وقربا منه، ورتب الأمور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

وكانت الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديتهم، وتتابع غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، واستطار في البلاد شر شرهم، وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماه وحمص ودمشق، وكانت سراياهم من ديار بكر إلى آمد، ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين ورأس عين، وأما أهل الرقة وحران فقد كانوا معهم في ذل وهوان، وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر، ثم زاد الأمر، وعظم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجاً وأتاوة يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن أثر العود إلى أهله أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأما أهل حلب فإن الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها، حتى في الرحا التي على باب الجنان، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام، فكان حال أهلها أشد من حال أهل هذين البلدين، فلما نظر الله سبحانه وتعالى إلى بلاد المسلمين، ولاها عماد الدين زنكي، فغزا الفرنج في عقر ديارهم، وأخذ للموحددين منهم بثارهم، واستنقذ منهم

حصوننا ومعاقل، وسيأتى تفصيل ذلك، وما فتحه من البلاد الاسلامية هو وابنه من بعده، إن شاء الله تعالى.

فصل

ثم شرع زنكي رحمه الله في أخذ البلاد، فافتتح جزيرة ابن عمر، ثم مدينة إربل في رمضان سنة اثنتين وعشرين، ثم عاد إلى الموصل وسار في جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين إلى سنجار، فتسلمها وسير منها الشحن إلى الحابور فملكه، ثم قصد الرحبة، فملكها قسراً، ثم افتتح نصيبين، وسار إلى حران، وكانت الرها وسروج وغيرها من ديار الجزيرة للفرنج لعنهم الله، وأهل حران معهم في ضيق عظيم، فراسلوا زنكي بالطاعة، واستحثوا على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفرنج مدة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية، والجزرية، وكان أهم الاشياء عنده عبور الفرات، وملك مدينة حلب، وغيرها من البلاد الشامية، فلما عبر الفرات ملك مدينة منبج وحصن بزاعة، وحاصر حلب، ثم فتحت له، فرتب أمورها، وسار عنها إلى حماه فملكها، وقبض على صاحب حمص وحاصرها، وذلك سنة ثلاث وعشرين.

وفي سنة أربع وعشرين اتفق صاحب آمد مع صاحب حصن كيفا وغيرهم من الملوك، وجمعوا عساكر نحو عشرين ألفاً، وقصدوا زنكي فلقبهم فهزمهم، وملك سرجة ودارا، ثم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب، وكان أضر شيء على أهل حلب، فجمع الفرنج جمعاً عظيماً، فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة، بقيت عظام القتلى بتلك الأرض مدة طويلة، ثم رجع إلى الحصن فملكه عنوة فأخربه، ومحا أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره، ثم رحل إلى حصن حارم، فأنفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج، ومن نجا منها يسألون الصلح، ويبدلون له المناصفة على

ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك، لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل، فأراد أن يستريحوا، فهادنهم، وعاد عنهم، وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن، وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيها استولى زنكي على مدينة حماه وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذ رجاله، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور ديبس بن صدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزما، فطلبه زنكي وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه. ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود بهمدان، وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة، وكان حليماً كريماً عاقلاً كثير الاحتمال، وطلب السلطنة بعده ولده داود ابن محمود، وأخواه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان محمد، فجرت بينهم حروب، واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همدان، وأصفهان والري، وسائر بلاد الجبل.

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى الموصل في ثلاثين ألف فارس، فحصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد، ولم يبلغ غرضاً.

وفي سنة تسع وعشرين استولى زنكي على سائر قلاع الحميرية وولاياتهم منها قلعة العقر، وقلعة شوش، وحاصر مدينة آمد، ثم مدينة دمشق، وفيها توفيت والدته بالموصل.

وفي المحرم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد بن

ملكشاه، فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكر الخليفة، وقبض عليه وعلى خواصه، وأنفذ السلطان شحنة إلى بغداد، فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد، وهو في الخيمة فقتلوه، وكتب السلطان إلى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور ابن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة، ولقب بالراشد، وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشر سنة وسبعة أشهر، وكان شهماً شجاعاً مقداماً فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلا أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديماً يخلعون الخلفاء، ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيئة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة الديلم، فلما ملك السلجوقية جدّدوا من هيئة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيئة إلى أحسن حالاتها، إلا أن الحكم والشحن بالعراق كان إلى السلطان، وكذلك العهد أو ضمان البلاد، لم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دخله، وأما المسترشد فإنه استبدّ بالعراق بعد السلطان محمود، ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر بالحرب.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد إلى الموصل بصحبة زنكي ملتجئاً إليه، وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال، وتلّون في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه، وخافه الباقون، وتقدّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها، فخرج الراشد ملتجئاً إلى زنكي، فسار به إلى الموصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمّة أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ففعل ذلك ولقب

المقتضي لأمر الله، وأما الراشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أذربيجان، ثم إلى همذان، فاجتمع إليه ملوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم فتصافوا فانهزم الراشد، وقصد أصبهان فقتله الباطنية بها في السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ودفن بأصبهان.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضا تزوج زنكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاوي أم شمس الملوك اسماعيل وأخوته بني تاج الملوك بوري ابن طغتكين أتابك، وهي أخت الملك دقاق، وإليها ينسب مسجد خاتون الذي هو مدرسة لأصحاب أبي حنيفة بأعلى الشرف القبلي بأرض دمشق، بأرض صنعاء، وتسلم قلعة حمص.

فصل

في جهاد زنكي للفرنج

كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينة ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصراني، فقصد الشام فخافه الناس خوفا عظيما، وكان زنكي مشغولا بما تقدم ذكره، ولا يمكنه مفارقة الموصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها، وهي على مرحلة من حلب، وفتحها عنوة، وقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان، ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حلب، فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا، وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن منقذ إلى زنكي يستنجد، فنزل على حماه، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل سرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار، وكان الروم والفرنج قد

نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم، فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره، فقال لهم الملك: أظنون أن معه من العساكر ماترون، وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطعموا وتصحروا له فحيث ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم، وكان أتابك زنكي مع هذا يرأسل فرنج الشام، ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يرأسل ملك الروم يتهدده ويوهمه أن الفرنج معه فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق، وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعاه إلى قلعة حلب، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر، لا يبقى لمسلم معهم مقاما لاسيما مدينة حماة لقربها، ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي له قصيدة قد ذكرتها في ترجمته في التاريخ أولها:

بعزمك أيها الملك العظيم

تذل لك الصعاب وتستقيم

ألم تر أن كلب الروم لما

تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلاً

كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه

فكان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته به بك في خميس
تيقن أن ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشا
فأحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور
توقدوه وشيطان رجيم
أراد بقضاء مهجته فولى
وليس سوى الحمام له حميم
يؤمل أن تجود بها عليه
وأنت بها وبالدينا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا
وأنت بقطع دابرهم أزعيم
وكم جرعتها غصص المنايا
بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما ان طلبتهم تمنى الـ
منية جوسلينهم اللثيم
أقام يطوف الافاق حيناً
وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله عليك
وعاد وما يعادله سقيم
إذا خطرت سيوفك في نفوس
فأول ما يفارقها الجسموم

وله من قصيدة مدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان
صاحب حماة.

وما جاء كلب الروم الا ليحتوي
حماة وهل يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوة
وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب

وما ذمّ فيها العيش حتى صدمته
فقال جناح الجيش وانكسر القلب
فولى وأطراف الرماح كأنها
نجوم عليه بالمنية تنصب

ولابن منير قصيدة في مدح أتابك زنكي رحمه الله سيأتي بعضها عند
ذكر فتحه مدينة الرها إن شاء الله تعالى، ومنها:
وما يوم كلب الروم إلا أخو الذي
أزحت به ما في الجناجن (٣٩) من نبل
اتاك بمثل الروم حشدا وإنه
ليفضل اضعافا كثيرا عن الرمل
فقاتلته بالله ثم بعزمة
تصك قلوب العاشقين بما يسلي
توهم أن الشام مرعى ومادري
بأنك أمضى منه في الشزر والسحل (٤٠)
فطار وخير المغنمين ذمّاؤه
إذا اراد عنه مغنم المال والأهل

قال ابن الاثير: ومن عجائب ما يحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما
وصل بقصد الروم شيزر، قام الأمير مرشد بن علي أخو صاحبها، وهو
ينسخ مصحفا، فرفعه بيده، وقال: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت
بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفي بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته.

ولما عاد الروم إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عرقه، وهو من أعمال
طرابلس فحصره وفتحته عنوة ونهب ما فيه، وأسر من به من الفرنج
وأخبره، وعاد سالما غانما، وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين
تمرتاش، وفيها توفي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري قاضي

الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده، وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بتكرت.

فصل

في فتح شهر زور وبعليك وحصار دمشق

قال ابن الأثير: كانت شهر زور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجق بن أرسلان تاش التركماني، وكان ملكها نافذ الحكم على قاضي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً حتماً، فتحامى الملوك قصد ولايته، ولم يتعرضوا لها لخصانتها، فعظم شأنه وازداد جمعه، فلما كانت سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد أتابك عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده، فهزم عسكره وملك بلاد شهر زور وغيرها، فاضافها إلى بلاده وأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان، وعاد إلى الموصل عازماً على المسير إلى الشام، فإنه كان لا يرى المقام بل لا يزال طاعنا إما لردّ عدوّ يقصده، وإما لقصد بلاد عدوّ وإما لغزو الفرنج وسدّ الثغور، وكانت مياثر السروج آثر عنده من وثير المهادر، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوسادر، وأصوات السلاح ألد في سمعه من الغناء، لا يجد لذلك كله عناء.

وفي هذه السنة وهي سنة أربع وثلاثين ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي

وفيه سار الشهيد في جنوده بعد ملك شهر زور إلى مدينة دمشق فحصرها، وصاحبها حيثئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، وكان محكوماً عليه، والغالب على أمره معين الدين أنر مملوك جدّه

طغتكين، وكان أتابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن الشهر زوري بمكاتبة جماعة من مقدّمي أحداثها وزناطرتها واستمالتهم واطماعتهم في الرغائب والصلوات، ففعل ذلك فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين، وجدّد عليهم العهود وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد إليه، فأعلم كمال الدين الشهيد أتابك بذلك فقال: لأرى هذا رأياً فإن البلد ضيق الطرق والشوارع، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه، وربما كثر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم لأنهم يقاتلون على الأرض والسطوحات، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرّق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.

ومن العجب أن محمد بن بوري صاحب دمشق توفي وأتابك يحصره، فضبط أنر الأمور وساس البلد فلم يتغير بالناس حال، وأرسل إلى بعلبك فأحضر ولده مجير الدين أبوق بن محمد بن بوري ورتبه في الملك مكان أبيه فمشى الحال بتمكين معين الدين أنر وحسن تدبيره، وهذا مجير الدين أبوق هو الذي منه أخذ نور الدين محمود بن زنكي دمشق كما سيأتي، ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بعلبك معين الدين أنر، فأرسل إليها نائبه وتسلمها، فلما علم الشهيد ذلك سار إلى بعلبك وحصرها عدّة شهور فملكها عنوة، وترك بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين دزداراً، وعزم على العود عنها إلى دمشق فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعاد عن قصد دمشق، وقد خطب له فيها، وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيى بن أبي طي الحلبي: واتفق أن الأمراء لما نزلوا من بعلبك أفسدوا ذخائرها فقبض عليهم أتابك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم وكان وليّ قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني، فحكى أنه أحضر إليه في جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة ومعه ولد له أمرد كأنه فلقة قمر،

فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك ألا صلبتني قبل ولدي لئلا أراه يعالج سكرات الموت، وكان نجم الدين أيوب واقفاً فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الدين في إطلاقه، فقال ما أفعل خوفاً من المولى أتابك، فذهب نجم الدين إلى أتابك وسأله في الشيخ وولده وقص عليه ما قاله، فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقي من الجماعة، ووهبه نصف بعلبك، وقيل إن نجم الدين قد ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله في الأمراء فأطلقهم له وولاه بعلبك وكتب له ثلثها ملكاً، واستقر فيها هو وأهله، ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زنكي فأخرجه منها على ما سنذكره، ثم إن أتابك بعد ملكه بعلبك سار إلى دمشق فنزل البقاع، فوردت هدية صاحب دمشق، ويطلب العود ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص، فأشار نجم الدين على زنكي بقبول ذلك وقال: هذا مال كثير، وقد حصل بلا تعب، وبلد كبير بلا عناء، ودمشق بلد عظيم وقد ألف أهله هذا البيت وتمرتوا على سياستهم، وقد بلغتهم الأحوال التي جرت ببعلبك، فامتنع زنكي عن قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفرنج ، فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه ، فلقبهم بالقرب من حصن بارين ، وهو للفرنج ، فصبرا الفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير (٤١) ، ونصر الله المسلمين ، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم ، فدخلوا حصن بارين ، وفيهم ملك القدس لأنه كان قرب حصونهم ، وأسلموا عدّتهم وعتادهم ، وكثر فيهم الجراح ، ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلا أخذهم قهراً ، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر عليهم ، فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل ، ومن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك لقوة الحصر عليهم ، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان ، فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقيتهم أمداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين فحلفوا لهم: إنا لم نعلم بوصولكم ، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن ، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الأثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد أخرجوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها ، وتقطعت السبل ، فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم.

وفي مدة مقامه على حصن بارين سار جنده إلى المعرة وكفر طاب ، وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهي بلاد عظيمة.

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج، ويمدح زنكي قصيدة أولها:

حذار منا وأنسى ينفع الحذر
وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر
وأيّن ينجم ملوك الشرك من ملك
من خيله النصر لا بل جنده القدر
سلوا سيفوا كأغما دالسيوف بها
صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا
حتى إذا ماعدا الدين أرهقهم
في مأزق من سنه يبرق البصر
ولوا تضيق لهم ذرعا مسالكهم
والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم
طول وإن كان في أقطارها قصر
وأصبح الدين لأعيننا ولا أثرا
يخاف والكفر لأعين ولا أثرا
فلا تخف بعدها إلا فرنج قاطبة
فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر
إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حاربوا
أو طاردوا طردوا أو حاصروا حاصروا
وطالما استفحل الخطب البهيم بهم
حتى أنسى ملك أراؤه غرر
والسيف مفترع أبكار أنفسهم
ومن هنالك قيل الصارم الذكر
لأفارت ظل محيي العدل لامعة
كالصبح تطوي من الأعداء ما نشروا
ولا اثنى النصر عن أنصار دولته
بحيث كان وإن كانوا به نصروا

حتى تعود ثغور الشام ضاحكة
كأنها حلّ في أكنافهم عمر

وقال ابن منير

فدتك الملوك وأيامها
ودام لنقضك أبرامها
وزلت لعيشك أقدمها
وزال لبطشك إقدامها
ولو لم تسلم إليك القلـو
بـهـواها لما صح إسلامها
أيـاـحيـي العـدـل لـما نـعـا
هـأيـامـي البرايا وأيتامها
ومستنقذ الدين من أمّة
أزال المحارِب أصنامها
دلفت لها تفتيقك الأسـو
دواليب الضـ والسمـر آجامها
جزرت جزيرتها بالسيـو
فحتى تشاء مهاشامها
وصارت عواري أكتافه
متى شئت أرخص مستامها

قال ابن الأثير: ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام ورأوا الأمر قد فات
أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين، فنازلوا حلب
وحصروها، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في
جمع عظيم، فأنحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة، ويحفظ
أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والاغارة عليها، وأرسل القاضي
كمال الدين بن الشهر زوري إلى السلطان مسعود ينهي إليه الحال بأمر
البلاد وكثرة العدو، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر، فقال له كمال

الدين: أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها، فقال الشهيد: إن هذا العدو قد طمع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام اسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار، قال: فلما وصلت إلى بغداد وأدّيت الرسالة وعدني السلطان بانفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه بشيء وكتب الشهيد إليّ متصله يحثني على المبادرة بانفاذ العساكر، وأنا أخاطب فلا أزداد على الوعد.

قال: فلما رأيت عدم اهتمام السلطان بهذا الامر العظيم، أحضرت فلانا (وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء) فقلت: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم، واستغاثوا بصوت واحد: «وا اسلاماه» «وا دين محمداه» ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين، ثم وضعت انساناً آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان، فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه، وألقى عمامته عن رأسه وصاح، وتبعه أولئك نفر بالصياح والبكاء فلم يبق بالجامع إلا من قام يبكي، وبطلت الجمعة وسار الناس كلهم إلى دار السلطان وقد فعل أولئك الذين بالجامع مثلهم، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان ويكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضبط وخاف السلطان في داره، وقال: ما الخبر؟ فقليل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة، فقال: أحضروا ابن الشهرزوري، قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه لأنني قد عزمت على صدقه وقول الحق، فلما دخلت عليه قال: يا قاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر، ولا شك أن السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو وإنما بينكم نحو اسبوع، ولئن أخذوا حلب، انحدروا إليك في الفرات، وفي البرّ وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمر عليه حتى

جعلته كأنه ينظر إليهم، فقال: اردد هؤلاء العامة عنا، وخذ من العساكر ماشئت وسر بهم والأمداد تلحقك، قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم فأخبرتهم وعرفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفرقوا وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشهيد أعرّفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير وأجّدد استئذانه في ذلك، فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة وإذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر، فلما خوطب السلطان في ذلك أصرّ على انفاذ العساكر إلى الجهاد، وقصد بلاد الفرنج وأخذها، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها، فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد.

قال ابن الاثير: فانظروا إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس- يعني كمال الدين - رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا همة عالية ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل يرغبهم ويخطبهم من البلاد ويوفر لهم العطاء.

حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الدين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي، إن كمال الدين يقلّ له هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإن شغلا واحد يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار، وكان كما قال رحمه الله تعالى.

فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلد الهكارية، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم، فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضاً عنها، وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره، فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لأعجز عنه، فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه « القلعة العمادية » نسبة إلى لقبه عماد الدين.

وفي هذه السنة خطب لأتابك بآمد، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتفاء إلى خدمته ، والخطبة له فأجابه إلى ذلك، وفيها ملك الشهيد مدينة عانة

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد دمشق فشتى بها، وفي سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعسكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فترددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السلطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشرط عليه فتح الرها، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له : إن ملك البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين، فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوة، ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من الأكابر، وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة، ولا يقدر على حفظها، ولا يزال

الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بهال، ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدّة حصون وولايات وهزمهم غير مرة واستضعفهم، وعز الاسلام به، ومن الأسباب المانعة له أيضا أن الشهيد كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل، وأرسل إلى نائبه بالموصل يأمره أن يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً ففعل ذلك، وقال له: ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعله، فأرسل إليه فعاد الجواب: إنني لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك، فألزمه بالعود إليه، فعاد ومعه رسول إلى السلطان يقول له: إنني لما بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن لم اجتمع به ورددته إلى بابك، فحل هذا عند السلطان محلاً كبيراً، وأجاب إلى ما أراد الشهيد، ولما استقرّ المال حمل منه نحو عشرين ألف دينار، ثم إن الأمور تقلبت، وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان ، فاحتاج إلى مدارة الشهيد، وأطلق له الباقي، إستمالة له.

وفي هذه السنة سار الشهيد إلى ديار بكر ففتح عدّة بلاد منها طنزة وأسعرد، وملك مدينة المعدن الذي يعمل منه النحاس من أرمينية، ومدينة حيزان، وأخذ من أعمال ماردين عدّة مواضع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حاني، وحاصر آمد، وأرسل عسكرياً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدّم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

في فتح الشهيد الرها

في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين وهو عاتي الفرنج وشيطانهم والمقدّم على رجالهم وفرسانهم، وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية والرها، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرّ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان عدّة حصون : كسروج والبيرة، وجملين، والموزر، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين ورأس عين والركة، وأما حرّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لا ينال منها غرضاً مادام جوسلين بها، فأخذ في إعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الاسلام كحاني وجبل جور وآمد، فكان يقاتل من بها قتالاً فيه ابقاء وهو « يسر حسوا في ارتغاء(٤٢) » فهو يخطبها، وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده، فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنّ أنه لافراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرها، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد:

بجيش جاش بالفرسان حتى

ظننت البربحراً من سلاح

والسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليل بهيم
وغررتهم عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن
قليل الصفح ما بين الصفح
وكان ثباته للقلب قلبا
وهيئته جناحا للجناح

وألح الشهيد في حصارها فملكها عنوة فاستباحها ، ونكس صلبانها،
وأباد قسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من
النهب والسبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأنف لمثله من الخراب، فأمر
بإعادة ما أخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردوا عن
آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ والنادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان
داثراً، ثم رتب البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان
بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها، وأخلى الديار
الجزرية من معرة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمينين، وكان
فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير من
الصالحين والأولياء.

قال ابن الاثير حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح
الرها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من
العلماء العاملين والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها، وله الكرامات
الظاهرة، ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم
وهو مستبشر مسرور عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً، فلما قعد معهم
قال: حدثني بعض إخواني أن أتاك زنكي قد فتح مدينة الرها، وأنه
شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد
اليوم، يردد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم، فكان يوم الفتح، ثم إن

نفرأ من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له: منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح، وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا.

قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب، وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرها سير ملك الفرنج هذا جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس، وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يافقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها، فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله ما قال عن غير علم، واشتد هذا على الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنسأهم شدة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلو منزلة الرها عند النصرانية.

قال وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق إليهم أن رجلا من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها.

قلت: وهنأ القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أولها
هو السيف لا يغنيك إلا جلاده
وهل طوق الاملاك إلا أنجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الطبأ
سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الاسلام فخرأ بطوله
ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وزاد قسيم الدين ابن قسيمها
عن الله ما لا يستطيع زياده
ليهن بني الايمان آمن ترفعت
رواسية عزاً واطمأن مهاده
وفتح حديث في السماع حديثه
شهبي إلى يوم المعاد معاده
أراح قلوبا طرن عن وكناتها
عليها قوا في كل صدر فؤاده
لقد كان في فتح الرهاء دلالة
على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة
ولم يغن عن القوم عنه ولاده
مدينة أفك منذ خمسين حجة
يفل حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار حتى لو أنها
ترقت إليه خان طرفا سواده
وجامحة عز الملوك قيادها
إلى أن ثناها من يعز قياده
فأوسعها حرّ القراع مؤيد
بصير بتميرين الألدل دداده
كان سنالمع الأسنة حوله
سرار ولكن في يديده زناده
فأضر مهاناري من حرب وخدعة
فمارع إلا سورهـا وانهداده
فصدت صدود البكر عند افتضاضها
وهيهات كان السيف حتما نفاده
فيظفر عم البلاد صلاحه
بمن كان قد عم البلاد فساده

فلا مطلق الا وشدة وثاقه
ولا موثق إلا وحل صفاده
ولا منبر إلا ترنح عوده
ولا مصحف إلا أنار مداده
فان يشكل البرنز^(٤٢) فيها حياته
وإلا فقل للنجم كيف سهاده
وباتت سرايا القمص تقمص دونها
كما يتنزاع عن حريق حراده
إلى أين يا أسر الضلالة بعدها
لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم لآمانع من مظفر
يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأي لو أن عزمه
رمى سدذي القرنين أسمى سداه
وقل للملوك الكفر تسلم بعدها
مما الكهـ إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فليتنه الدجى
فيا طامال المغال الظلام امتداده
ومن كان أملاك السموات جنده
فأية أرض لم ترضها جياده
ولله عزم مء سيحان ورده
وروض قسطنطينية مستراده

وله من قصيدة هنا بها القاضي كمال الدين بن الشهر زوري أولها:
هي الجنة المأوى فهل من خاطب ..

يقول فيها:

إن الصفائح يوم صافحت الرها
عطفت عليها كل أشوس ناكب

فتح الفتوح مبشراً بتمامه
كالفجر في صدر النهار الآيب
للّه أية وقفة بدريّة
نصرت صحائبها بأيمان صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه
كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدكم جيش الملائك نصرة
بكتائب محثوثة بكتائب
جنبوا الدبور وقد تم ربح الصبا
جند النبوة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت
ظنت وجوب السور سورة لأعب
لأين يا أسرى المهالك بعدها
إن الدروب على الطريق اللاحب
أفرّكم والثار رهن دمائكم
ما كان من اطراق لحظ الطالب
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه
دون الفريسة فهو عين الوائب

وقال ابن منير:
صفات مجدك لفظ جلّ معناه
فلا استردّ الذي أعطاكه الله
يا صار ما يمين الله قائمه
وفي أعالي أعادي الله حذاه
أصبحت دون ملوك الأرض منفردا
بلا شبيهه إذا الأملاك أشباهه
فذاك من حاولت مسعاك همته
جهلا وقصر عن مسعاك مسعاه

قل للاعادي ألا موتوا به كمد
فاللّٰه خيكم واللّٰه أعطاه
ملك تنام عن الفحشاء همته
تقى وتسهر للمعروف عيناه
ما زال يمسك والأيام تخدمه
فيا ابتلاه وتدني مات وخاه
حتى تعالت عن الشعري مشاعره
قد راوجا وزت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا
وأين عماروه مآر أيناه
أين الخلاف عن فتح أتيح له
مظلل أفق الدنيا جناحاه
على المنابر من أنبائه أرج
مقطوبة بفتية المسك رياه
فتح أعاد على الاسلام بهجته
فاقر مبسمه واهتز عطفاه
يهدي بمعتصم بالله فتكته
حديثها نسخ الماضي وأنساه
إن الرها غير عمورية وكذا
من رامها ليس مغزاه كمغزاه
أخت الكواكب عزامباغى أحد
من الملوك لها وقما (٤٤) فواتاه
حتى دلفت لها بالعزم يشحذه
رأي يبيت فويق النجم مسراه
مشمرا وبنو الاسلام في شغل
عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يا محيي العدل إذ قامت نوادبه
وعامر الجود لما فتح مغناه

يأنةمة الله يستصفى المزيديها
للشاكرين ويستقنى صفاياها
أبقاك للدين والدينا تحوطهما
من لم يتوَجَّح هذا التاج إلا هو

ولابن منير من قصيدة تقدّم بعضها:
أياملكا ألقى على الشرك ككلا
أناخ على أماته كل كل الثكل
جمعت إلى فتح الرهاسد بابها
بجمعك بين النهب والاسر والقتل
هو الفتح أنسى كل فتح حديثه
وتوج مسطور الرواية والنقل
فضضت به نقش الخواتم بعده
جزيت جزاء الصدق عن خاتم الرسل
تجرّدت لاسلام دون ملوكه
تبثك أسباب المذلّة والخذل
أخو الحرب غذته القراع مغطا
يشوب باقدام الفتى حنكة الكهل

وله من قصيدة أخرى:

بعماد الدين أضحت عروة الديـ
من معصوباً بها الفتح المين
واستزادت بقسيم الدولة القسـ
م من ادحاض كيد المارقين
ملك اسهر عيناً لم يزل
همها تشريد همّ الراقدين
لاخلت من كحل النصر فقد
فقات غيضا عيون الحاسدين

كل يوم مرم من أيامه
فهو عيد عائد للمسلمين
لوجرى الانصاف في أوصافه
كان أولاهـ أمير المؤمنين
ماروى الراون بل ماسطروا
مثل ما خطت له أيدي السنين
إذا نـاخ الشـرك في أكنـافـه
بمئـي ألف تـلاهـا بمئـين
وقـعة طـاحت بـكلـب الروم من
قطـعة الـيين إلى قطـعة الـوتين
إن حـمت مـصر فقـد قـام لها
واضح البرهـان إن الصـين صـين
والرهـا لو لم تـكن إلـا الرهـا
لكفـت حـسبـاً لـشـك المـتريـن
هـم قـسطنطين أن يـفرعـها
ومضـى لم يـجـو منهـا قـسطنطين
ولكـم مـن مـلك حـا ولها
فتـحـا لـالحـين وسـما في الجـبين
هـي أخت النـجم إلـا أنـها
منه كـالنـجم لـرأى المـبصرين
زارهـا يـزأـر في أسـد و غـى
تبدل الأسـد من الزأـر الأين
صـولجـوا بـالبـيض بـضرب ثـشـ
ر الـهام في سـاحـاتها ثـر الكـرين (٤٥)
يـسـالـها مـة ثـغر أـضحـكت
من بنـي القـلف ثـغـور الشـامتين
بـرنـست رأس بـرنـس ذلـة
بـعد ما جـاست حـوا يـا جـوسـلين

سروج مـذوعت أسراجـه
فرقت جماعها عن اعضين
تلك أقفال رماها الله من
عزمه الماضي بخير الفاتحين
شام منه الشام برقها ودقه
مؤمن الخوف يخيف الآمنين
كم كنيس كنست قدرا منها
منه بعد الروح في ظل السفين
دنت الآجال من آجالها
فأحلتها القطاب بعد القطين
ومنار يجتلى صلبا نـه
بين بيض تبـاري في البرين
قرعته البيض حتى بدلت
قرعة الناقوس تشويب الازين
بالقسيمات مقسوم لها
سـدر في علـك لجين أو لجين
سبل بها حران كم حرى سقت
بردامن يوم ردت ماردين
شمطت أمس شمشاط بها
نظم جيش منهج للنـاظرين
وغدا يلقي على القدس لها
كل كل يدرسها درس الدرين
همة تمسي وتضحى عزمـة
ليس حصن إن نحتـه بحصين
قل لقوم غرهم أمهاله
ستذوقون شذاه بعد حين
إنه الموت الذي يدرك من
فر منه فشجـا للغافلين

وهو يجيى بمسكاعروته
إنها حبل لمن تـاب متين
من يطع ينـج ومن يعص يكن
من غداة عبرة لـالاخترين
بك يا شمس المعالي ردت الـ
روح في الميتين من دنيا ودين
أقسم الجدب أن تبقى لكى
تملك الأرض يمينـا لا يمين
وتفيض العدل في أقطارها
منسيام مؤلم عسف الجائر ين
لا تزل دارك كيف انتقلت
كعبة محفوفة بالطائفين
كل يوم يتحلى جيدها
من نظيم المدح بالدر الثمين
كلما أخلص فيها دعوة
لك قالت ألسن الخلق آمين

فصل

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها واصلاح حالها والاستيلاء على ماوراءها
من البلاد والولايات، سار إلى قلعة البيرة، وهي حصن حصين مطل على
الفرات، وهو لجوسلين أيضا فحصره وضايقه فأثاه الخبر بقتل نائبه
بالموصل والبلاد الشرقية نصير الدين جقر بن يعقوب، فرحل عنها خوفا
من أن يحدث بعده في البلاد فتق يحتاج إلى المسير إليها، فلما رحل عنها
سير إليها حسام الدين تمرناش بن إيلغازي صاحب ماردين عسكرياً
فسلمها الفرنج إليهم خوفا من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النصير في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين ، وسببه أن الملك
ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان مسعود، وأصحاب

الأطراف يرون أن البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولا أو أجاب عن رسالة فإنها يقول: قال الملك: كذا وكذا، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود، ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة، وبها نصير الدين، وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة، ثم يعود، فحسن المفسدون للملك قتله وقالوا له: إنك إن قتله ملكت الموصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ولا يجتمع معه فارسان عليك، فوقع هذا في نفسه، وظنه صحيحا، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه ظنا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك البلاد، وكان الأمر بخلاف ما ظنوا، فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء، وكان من جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهر زوري أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعبه إلى القلعة وهو يحسن له الصعود إليها، وحيثئذ يستقر له ملك البلد، فلما صعد القلعة سجنوه بها وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال فسكن جأشه، واطمأن قلبه وأرسل زين الدين علي ابن بكتكين والياً على قلعة الموصل، وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه فسلك بالناس غير الطريق التي سلكها النصير وسهل الأمر فاطمأن الناس، وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة، ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار إلى حلب فجهز منها جيشا إلى قلعة شيزر، وبينها وبين حماه نحو أربعة فراسخ فحصرها.

قلت : كذا وقع في كتاب ابن الاثير، وقد وهم من قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالحفاجي غير ألب أرسلان على ما ذكره العماد

بالدين والدنيا الذي يشكو وهل
يهتز فرع لم يقمه ساق
لن تورق القضب ويجري ماؤها
إلا إذا ما التائت الأعراق
إن الرعايا ما سلمت في حمى
للخطب عن طروقه إطراق
غرست بالعدل لهم خمائل
ترتع في حديقها الأحداق
يا هضبة الدين التي عاذ بها
فعداد لا بغتاء ولا أرهاق
لو لم تحطه راحلا وقافلا
أصبح لاشام ولا عراق
عماد دين مذكأقام زيغته
حيى ومات الشرك والنفاق
يا حيي العدل الذي في ظله
تسر بلت زيتها الأفاق
يفديك من لان مهاد جبينه
لما نبأ بجنبك الاقلاق
من يشأسيفك أنبطت له الـ
عذب وماء عيشه زعاق
تجرج السم ولو لم تحميه
بحده لعزه الدر ياق
ملوك أطراف حمى أطرافها
عزمك هذا اللاحق السباق
لو لم ترق ماء كرى العين لما
ساغت بأفواههم الأرياق
شقق من دونهم مرج الردا
وشق أكبادهم الشقاق

أقسم لو كلفتهم أن يسمعوا
حديثك أيامك ما أطاقوا
لما اشتكى تذبذب في أهوائهم
توجس للسمع واستراق
تطاولوا لاعدمت أمالهم
قصر أولاجنا بهما الاخفاق
توهموها غنقائهم انجلت
والصفو ومن مشربهم غساق
لئن ألم ألم بقدم
خذ السهال نعلها طراق
أو كان مديده إلى يد
يجري بها الآجال والأرزاق
فالنصل يعلى صعداً وتحتفه
حد الحسام وسنار قراق
رمى الصليب بصليب الرأي عن
زوراء أوهى نزعها الاغراق
ونوم من خلف الخليج سهر
والعيش في فرنجية سيقاق
ماتوا فلا همس ولا اشارة
خوف هموس زاره ارهاق
لا سلبت منك الليالي ما كست
ولا عرت جدتك الاخلاق

فصل

في وفاة زنكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل

بيده ويد أولاده إلى سنة إحدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحصرها وحصر فنك لثلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره، وإن قل، للحزم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله:

لا قى الحمام ولم أكن مستيقنا
أن الحمام سيبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخلّى عنه العبيد والخول، فأى نجم للإسلام أفل، وأى ناصر للأيان رحل، وأى بحر ندى نضب، وأى بدر مكارم غاب، وأى أسد افترس، ولم ينجه قلة^(٧) حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا، رهين جدث لا ينفعه إلا ما قدم، فطويت صفحة عمله، فهو موثوق في صورة مستسلم، ثم دفن بصفين عند أصحاب عليّ أمير المؤمنين رضي الله عنه. (٤٨)

قلت: وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية قال: قصد زنكي حصار قلعة جعبر، فنازلها وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خدامه الصباح، وهو يحبهم ويحبوهم ولكنهم مع الوفاء منه يحفّوهم، وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرواده، وأقصاه، واستبقى ولده عنده وأخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدام في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم، فخافوا من سطوته،

فلما نام ركبهم واسمه يرنقش فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرس النوبة موهما أنه يمضي في مهم، وهو لا يرتاب به لانه خاص زنكي، فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم. وذكر الحديث (٤٩)

قلت: ثم نقل إلى الرقة فدفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الاثير: وكان حسن الصورة، مليح العينين، قد وخطه الشيب، طويلاً وليس الطويل البائن، وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذي ولي بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصرة الدين أمير أميران، وبتنا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والأنثى، ونور الدين من الذكور، ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين، ولقد أنجب رحمه الله، فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم.

قلت: ومن عجيب ما حكى أنه لما اشتد حصاره قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا، وأنت بلا وزير ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وأخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأى شيء تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة: أنتظر الذي انتظر أبوك، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشد حصاراً ونصب عليه عدة مجانيق، وقال يوما لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق أي شيء تنتظر أما تسلم الحصن؟ فقال له حسان: انتظر سهماً من سهام الله، فلما كان في الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب وقع في لفته فخر ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع، ولم يزرّها على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك،

فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغريبة ، ذكر ذلك يحيى بن أبي طي في كتاب السيرة الصلاحية.

فصل

في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانت من أحسن سير الملوك، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف.

قال ابن الاثير: حدثني والدي قال: قدم الشهيد إلينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين، وكان زمن الشتاء فنزل بالقلعة، ونزل العسكر في الخيام وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الديبسي، وهو من أكابر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده، فدخل الديبسي البلد ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشهيد، وهو راكب فسأل عن حاله فأخبر به، وكان الشهيد واقفاً والديبسي إلى جانبه ليس فوقه أحد فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الديبسي نظر مغضب، ولم يكلمه كلمة واحدة فتأخر القهقري ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد، ولم تكن الأرض تحتل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين، قال: فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته فلما رأوا كثرتهم جعلوا على الأرض تبنا ليقيموها، ونصبوا الخيام وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول مهما كانت البلاد لنا فأني حاجة لكم إلى الأملاك، فإن الاقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت

الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعذبوا عليهم وغصبوهم أملاكهم، ثم ذكر ما تجدد في أيامه من عمارة البلاد لاسيما بالموصل، وذلك لحسن سيرته، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة، وهو الذي أمر ببناء دار المملكة بالموصل، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان، ثم رفع سورها، وعمق خندقها، وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب.

قال: وكانت الموصل أقل بلاد الله فاكهة، وكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومن أحسن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الاطراف، وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، لاسيما دركاه السلطان، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك، فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدّة قاصدين، وكان مع اشتغاله بالأمر الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير، وكان يقول: إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً.

وكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئاً.

وكان يتعهد أصحابه ويمتنحهم: سلم يوماً خشكناكة (٥٠) إلى طشت دار له، وقال: احفظ هذه فبقي نحو سنة لا يفارق الخشكناكة خوفاً أن يطلبها منه، فلما كان بعد ذلك قال له: أين الخشكناكة،

فأخرجها في منديل وقدمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظا لحصن، وأمر له بدزداريه قلعة كواشي، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك، وكان لا يمكن أحداً من خدمه من مفارقة بلاده، ويقول: إن البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة، وتطرق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير اليارق إلى الشام، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كلما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويرأو حونهم، وأخذوا كثيرا من السواد، وسدّوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة.

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل، وبعضها بسنجار، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنت على سدّ الخرق بالمال في غيره .

قال: وأما شجاعته وإقدامه فأليه النهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحرق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها، بيت سكران وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج، ثم صاحب دمشق، وكان ينتصف منهم، ويغزو كلا منهم في عقر داره، ويفتح بلادهم ماعدا السلطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً

إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قال: وأمّا غيرته فكانت شديدة، ولاسيما على نساء الأجناد فإن التعرّض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقلما يقيمون عند أهلهم، فإن نحن لم نمنع من التعرّض إلى حرمهم هلكن وفسدن.

قلت: وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وذكر حديث رجم النبي صلى الله عليه وسلم ماعزاً، قال: ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً قال: «أو كلما انطلقنا في سبيل الله خلف رجل في عيالنا له نيبب كنيبب التيس على أن لا أوّتى برجل فعل ذلك إلا نكلت به» (٥١).

قال ابن الاثير: وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دزداراً اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خوّاصه وأقرب الناس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه عنه أنه يتعرّض للحرم، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغيساني أن يسير مجداً ويدخل الجزيرة فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع عينيه عقوبة لنظره بهما إلى الحريم ثم يصلبه، فسار الصلاح مجدداً فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد فخرج إلى لقائه، فأكرمه ودخل معه البلد وقال: المولى أتابك يسلم عليك، ويريد أن يعلي قدرك ويرفع منزلتك ويسلم إليك قلعة حلب ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهز وتحذّر مالك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففرح ذلك المسكين، فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دجلة، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصلاح وأمضى فيه ما أمر به، وأخذ جميع ما له فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وإما صدقاته، فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميرى ظاهراً ويتصدق فيها عداه من الأيام سراً مع من يثق به، وركب يوماً فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته، وودّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ماذنبك؟ وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال فقالت له: إنّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمر بك به، فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك، فلم تنزل زوجته تراجعته وتقوّي عزمه فعرفّ النصير حاله فضحك منه، وقال له: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد، فقال: الله الله في دمي ونفسي، فقال: لا بأس عليك فإنه ما أراد غير هذه الصرة فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم فأمره أن يتصدق به، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة؟ فقال له: إنه يتصدق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إليّ من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلت إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة.

قال : وحكي لي من شدّة هيئته ما هو أشد من هذا، قال والدي: خرج يوماً الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية، وقال له: اقعد فحين رأى الشهيد سقط إلى الأرض فحرّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل بطيء الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلاّ بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولاً هم الذين بقوا أخيراً من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً إن كان جندياً اشتمل

عليه الاجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون إليه ويؤنسونه غربته، فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذراملك هـ والدهـ
ر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الغيـ
ث سحبا وانسكابا
فاتح في وجهه كل
أمّة للنصر بابا
ترجف الدنيا إذا حر
ك للسير الركابا
وتخر المشمخرا
ت اختلالا واضطرابا
وترى الأعداء من
هيته تأوي الشعابا
وإذا ما الفحتهم نـ
ره صاروا كجبابا
يساعد الدين لازلا
ست على الدين سحابا
جاءا من دونه
سيفك إن ريع حجابا
فالبس النعماء في الأمـ
ن الذي طببت وطابا
وأصف عيشا إن أعـ
داءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب: استولى زنكي على الشام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين، وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتل بها من السعادة ذروة، فتسنى بفتح الرها للمسلمين جوس بلاد جوسلين وعاد جميعها إلى الاسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقود الفرنج، من ذلك الحين تنسخ وأمورها تنتسخ، ومعاقبها تفرع، وعقائلها تفرع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت والمسالك، قد اختلت بعد الهبة المشهورة والامنة المشكورة، وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في فساد الأطراف، والعيث في سائر النواحي والأكناف، ونظمت في صفة هذه الحال أبيات من قصيدة:
كذلك عماد الدين زنكي تنافرت
سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر
وأصواع دياج حوتها غنائه
وأضحت بأعلى كل حصن مصونة
يحمي عليها جنده وخوادمه
ومن صافنات الخيل كل مطهم
يروع الأعادي حليته وبراجمه
فلورامت الكتاب وصف شياتها
بأقلامها أدرك الوصف ناظمه
وكم معقل قد رامه بسيفه
وشامخ حصن لم تفتنه غنائه
وكانت ولاية الأرض فيها لأمره
وقد أمتتهم كتبته وخواتمه
وأمن من في كل قطر لهيبة
يراع بها أعرابه وأعاجمه

وظالم قوم حين يذكر عدله
فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه
ولييس له فيها نظير يزاحمه
وزاد على الأملاك بأسا وسطوة
ولم يبق في الأملاك ملك يقاومه
فلما تناهى ملكه وجلاله
وراعت ولاية الأرض منه لوائمه
أتاه قضاء لا ترد سهامه
فلم تنجحه أمواله ومغانمه
وأدركه للحين فيها حمامه
وحامت عليه بالمنون حوائمه
وأضحى على ظهر الفراش مجدلا
صريعاً تولى ذبحه فيه خادمه
وقد كان في الجيش اللهم مبيتته
ومن حوله أبطاله وصوارمه
وسمر العوالي حوله بأكفهم
تذود الردى عنه وقد نام نائمه
ومن دون هذا عصبة قد ترتبت
بأسهمها يردى من الطير حائمه
وكم رام في الأيام راحة سره
وهمته تعلو وتقوى شكائمه
وكم مسلك للسفر آمن سبله
ومسرح حي لن تراع سوائمه
وكم ثغر اسلام حواه بسيفه
من الروم لما أدركته مراحه
فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله
وينفذ في أقصى البلاد مراسمه

فلورقيت في كل مصر بذكره
أراقمه ذلت هناك أراقمه
فمن ذا الذي ينجو من الدهر سالما
إذا ما أتاه الأمر واللّه حاتم
ومن رام صفوا في الحياة فما يرى
لّه صفو عيش والحمام يحاومه
فإياك لا تغبط مليكاً بملكه
ودعه فإن الدهر لا شك قاصمه
وقل للذي يبني الحصون لحفظه
رويدك ما تبني فدهرك هادم
وفي مثل هذا عبرة ومواعظ
بها يتناسى المرء ما هو عازمه

قال: وفي ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وصل الخادم يرنقش
القاتل لعماد الدين زنكي وانفصل من قلعة جعبر لخوف صاحبها من
طلبه، فوصل دمشق ميقنا أنه قد أمن بها، ومدلاً بما فعله وظناً منه أن
الحال على ما توهمه فقبض عليه، وأنفذ إلى حلب في صحبة من حفظه
وأوصله، فأقام بها أياماً، ثم حمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها .

قلت : وللحكيم أبي الحكم المغربي قصيدة في مرثيه الشهيد عماد
الدين زنكي رحمه الله منها:
عين لا تذخري المدامع وابكي
واستهلي دمعاً على فقد زنكي
لم يهب شخصه الردى بعد أن كا
نت له هيبة على كل تركي
خير منك ذي هيبة وبهاء
وعظيم بين الانعام بزرک (٥٢)
يهب المال والجسيم ادلن يم
مه ما دحا بغير تلك ي

- ٧٦٢٤ -

إن دارا تمّ نسا بالـرزايـا
هي عندي أحـق دار بترك
فاسكبوا فوق قبره ماء ورد
وانضحوه بزعفران ومسك
أي فتك جرى له في الاعادي
بعد ما استفتح الرها أي فتك
كل خطب أتت به نوب الدهـ
ر يسير في جنب مصرع زنكي
بعد ما كاد أن تدين له الرو
م ويحوي البلاد من غير شك

فصل فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرّق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى : توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه، وانضم إليه إلى ناحية الموصل ، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل على كوجك أياما إلى حين تقرّرت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر ، وانتصب منصبه، وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين- يعني - محمد بن أيوب الياغيساني في تلك الحال إلى ناحية حلب ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وحصل بها وشرع في جمع العساكر، وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدهماء.

وفصل عنه الأمير صلاح الدين ، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاء والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم : لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدّته على قلعة جعبر- وسير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرّر أمور الشام وأتوجه إليكم، ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب في القلعة والمدينة.

قال ابن أبي طي الحلبي: لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين، وقال له: أعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين

وقصده إلى الموصل وقد انضوى إليه جلّ العسكر، وقد أنفذ إليّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أعرج عليه وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسي ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أنّ الأمر يصير جميعه إليك لأنّ ملك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق، فركب وأمر أن ينادي في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا، وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوها سابع ربيع الأوّل، ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها وقرّر أمره ومشى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يمن بأنه كان السبب في توليته.

وقال ابن الأثير: لما قتل أتابك الشهيد ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود، وكان مع الشهيد واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصلاح يقول له المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ونسلك طريقا نبقي به الملك في أولاد صاحبنا، ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا، فإنّ الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، فركب الجمال إلى الملك فخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصلاح وقال له: إنّ أتابك كان نائباً عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه، فقبل قولهما وظنه حقاً، وقرّر بهما طمعا أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه، وأرسل إلى زين الدين بالموصل يعرفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي وهو ولد عماد الدين زنكي الأكبر وإحضاره إلى الموصل، وكان بشهر زور وهي إقطاعه من أبيه، ففعل زين الدين ذلك، وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها وذلك بإشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك.

وقال الجمال للملك: إنّ من الرأي أن تسير الصلاح إلى مملوكك نور

الدين بحلب يدبر أمره، وكانت حماه إقطاع الصلاح فأمره ، فسار وبقي الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرقة، فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنساء، وأراد أن يعطي الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقاد لهم الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة، وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد، وكل من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك، وأقام بالملك في الرقة عدة أيام، ثم سار به نحو سنجار، وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل واستقرّ بها، فقوي حيثنّ جنان جمال الدين ، ووصل هو والملك إلى سنجار، فأرسل إلى دزدارها وقال له: لا تسلم البلد ولا تمكن أحداً من دخوله، ولكن أرسل إلى الملك وقل له: إنا تبع الموصل فمتى دخلت الموصل سلمت إليك ففعل الدزدار ذلك، فقال الجمال للملك: المصلحة أننا نسير إلى الموصل فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحيثنّ نقبض عليه وتسلم البلاد، فساروا عن سنجار وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك فبقي في قلعة من العسكر، فساروا إلى مدينة بلد، وعبر الملك دجلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الديبسي إلى الملك في عسكر وهو في نفر يسير فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به.

واستقر أمر سيف الدين وأقر زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل ، وجعل الجمال وزيره، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع، وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفرا وحضرا وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف.

قال ابن الاثير: فانظروا إلى جمال الدين وحسن عهده وكمال مروءته

ورعايته لحقوق مخدميه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، ولقد قلل من قال : الناس ألف منهم كواحد، وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

قال: ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ماعدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان وأسعد، وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقدير أمر البلاد، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يرأسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه إليه استمالة لقلبه، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إليّ أكنت تخافني على نفسك واللّه ما خطر ببالي ما تكره، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ، فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال لا غرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:
أيـاخـير الملـوك أبـا وجـدا
وأـنـفـعـهـم حـيـا الغـلـيل صـاد
عـلـوا وغلـوا وقلـا لـنـاس فـيـهـم
شـوا رـد مـن ثـنـاء أو أـحـاد
ومـا اقـتـسـمـوا ولا عـمـدوا بـنـاهـم
بـمـنـصـبـك القـسـيـمـي العـمـادـي
وهـل حـلـب سـوى نـفـس شـعـاع
تـقـسـمـهـا التـمـادـي والتـعـمـادـي
نـفـى ابـن عـمـاد الـدـيـن عـنـهـا الـ
شـكـاة فـأـصـبـحـت ذـات العـمـاد
تـبـخـتر فـي كـسـاء عـدـل و بـذـل
مـد بـجـة التـهـائم والنـجـاد
وفـي مـحـر ابـهـاد او د مـنـه
يـهـذب حـكـمة آيـات صـاد
تـجـاوزت النـجـوم فـأ يـن تـبـغـي
تـرق فـلا خـلـوت مـن ازديـاد

فصل فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والأفرنج المخدولين

قال ابن طي: في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج في يومه بعساكر أنطاكية وقسم عسكره قسمين قسماً أنفذه إلى جهة حماه، وقسماً أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها، وكان الناس آمينين، فقتل وسبى عالماً عظيماً وتمادى حتى وصل إلى صليدى ونهبها، ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدّ في السير ففاته الفرنج، وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنج أخذته، وسار مجنباً عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد ارتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه، وعاد إلى حلب مظفراً.

وقال ابن الأثير: لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بعلبك، وحاصره وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسلمها إليه وأخذ منه مالاً وملكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابن أبي طي: اشتدّ صاحب دمشق في القتال، وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر، فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدّ الأمر فطلبوا الأمان والمصالحة، فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها، ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يفسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده،

ومال نور الدين إلى مجد الدين أبي بكر بن الدايه حتى ولاه جميع أموره
وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

قال الرئيس أبو يعلى: لما اتصل خبر موت زنكي بمعين الدين أنر
شرع في التأهب والاستعداد لقصد بعلبك، وانتهاز الفرصة فيها بآلات
الحرب والمنجنقات، فنزل عليها وضايقها ولم يمض إلا أيام قلائل حتى
قل الماء فيها قلة دعتهم إلى النزول على حكمه، وكان الوالي بها ذا حزم
وعقل ومعرفة بالأمور، فاشتراط ما قام له به من اقطاع وغيره، وسلم
البلاد والقلعة إليه، ووفى له بما قرر الأمر عليه، وتسلم ما فيه من غلة
وآلة في أيام من جهادى الأولى من السنة، وراسل معين الدين الوالي
بحمص وتقررت بينه وبينه مهادنة وموادعة تعودان بصلاح الأحوال
وعمارة الأعمال، ووقعت مراسلة فيما بينه وبين صلاح الدين بحماه وتقرر
بينهما مثل ذلك، ثم انكفأ بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بعلبك
وترتيب من رتبته لحفظها والاقامة فيها.

قال: ووردت الأخبار في أيام من جهادى الآخرة من السنة بأن
جوسلين جمع الأفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة
من النصارى المقيمين فيها فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من
المسلمين، فنهض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن انضاف إليه
من التركمان وغيرهم، في زهاء عشرة آلاف فارس ووقفت الدواب في
الطرق من شدة السير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه
فيه فهجموا عليهم، ووقع السيف فيهم، وقتل من أرمن الرها والنصارى
من قتل، وانهمز إلى برج يقال له برج الماء فحصل فيه ابن جوسلين في
تقدير عشرين فارساً من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا في
النقب عليهم حتى تعربق البرج فانهمز ابن جوسلين في الخفية من
أصحابه وأخذ الباقون، ومحق بالسيف كل من ظفر به من نصارى الرها،
واستخلص من كان فيه أسيراً من المسلمين ونهب منها شيء كثير من

المال والاثاث والسبي، وانكفأ المسلمون بالغنائم إلى حلب وسائر الأطراف.

وقال ابن الاثير: لما قتل زنكي كان جوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرها في ولايته غرب الفرات في تل باشر وما جاورها، فراسل أهل الرها، وكان عامتهم من الأرمن، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه فأجابوه إلى ذلك، فسار في عسكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين فقاتلهم وجدّ في قتالهم، فبلغ الخبر نور الدين، وهو يومئذ بحلب فسار إليها بعسكره، فهرب جوسلين ودخل نور الدين مدينة الرها ونهبها وسبى أهلها. وفي هذه الدفعة نهب وخربت وخلت من أهلها، ولم يبق منهم بها إلا القليل، ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازي بالموصل، فجهز العساكر إلى الرها، فوصلت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قال: ومن عجيب ما جرى أن نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجواري فحملن إلى داره، ودخل لينظر اليهنّ، فخرج وقد اغتسل، وهو يضحك فسئل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرها مع الشهيد كان في جملة ما غنمت جارية مالت نفسي إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر باعادة السبي والغنائم، وكان مهيباً مخوفاً، فلم أجسر على اتيانها وأطلقتها، فلما كان الآن أرسل إليّ نور الدين سهمي من الغنيمة، وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: للقيسراني قصيدة يمدح بها جمال الدين وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أولها:

أما أن يـزـهـق الباطل

وأن ينجـز العـبـدّة الماطل

إلى كم يغيب ملوك الضلال
سيف باعنا قها كافل
فلا تحفلن بصوت السدنا
بوقد زار الاسد الباسل
وهل يمنع الدين الافتى
يصول انتقاما فيستاصل
أباجعفر أشرققت دولة
أضياء لها بدرك الكامل
فاما نصبت لرفع اسمها
فانكما الفعل والفعا عل
ليهنك ما افسرج النصر عن
هوماناله الملك العادل
فقل للحقاق الطريق الطري
فق قد دلف المقرم البازل
وجاهد في الله حق الجها
دمحتسب بالعل قافل
وهل يمنع السور من طالع
يشايعه القدر النازل
فان يك فتح الرها لجة
فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديا
رأن المقيم بهاراحل
أرى القمص يأمل فوت الرما
ح ولا بد أن يضرب الشائل
يقوي معاقله جامدا
وهل عاقل بعده عاقل
وكيف بضبط بواقى الجها
ت لمن فات حسبتة الخاصل

ولابن منير من قصيدة في نور الدين:
ملك ما أذل بالفتح أرضا
قط إلا أعزها اغلاقه
والوه في الرها أزجى إليها
عارضا شيب الدجى ابراقه
جارت جارة إليه فحل
عطلا من اعناقها اعناقه
تلك بكر الفتوح فالشام منها
شامه والعراق بعد عراقه
أين كان الملوك عن وجهها الطل
قيرينا اضاءة اطلاقه
سنة سنه أبوه بكلب الرو
م لما أظلمه ارهاق
خافقا قلبه إلى أمل عا
جله دون نيله إخفاقه
قسمت راية الموازي القسيم
سات وابتز من لهاه عراقه
وكذا أنت يا بنه ما عدا من
خلقه فيك خصله خلاقه
وكفى البحر أنه ابن سحاب
ما ونى سحبه ولا اصعاقه
لم يست من سددت ثلته يا
من على الدين كظه اشفاقه
كلما طن ذكرها منه في السم
مع تكافى النافقاء نفاقه
وجهاد عن حوزة الدين لم يأ
ل له ركضه ولا انفلاقه

وله فيه من قصيدة أخرى:

بنورالدين روض كل محل
من الدنيا وجد كل بال
أقام على ثنية كل خوف
سهاد ابات يكل كل كال
وصوب عدله في كل أوب
فعوض عاطل منه بحال
ينكس رأيه رأي المحامي
ويقتل خوفه قبل القتال
لقد أحصدت لاسلام عزا
يفوت سنامه يد كل قال
وأصبحت العواصم ملحفات
عصا ما غير منتكث الجبال

فصل

وقفت على توقيع كتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة
مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه:

الحمد لله رب العالمين

إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين البيسانى،
وهو والد القاضي الفاضل، وكان يومئذ متولي القضاء والحكم بمدينة
عسقلان.

قد انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوما من أهل ثغر عسقلان حماء
الله قد صاروا يؤدون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهوده
المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غير مستوجبين لشهادة، ولامستحقين
لسماع القول، فأنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن
لا يسمع قول شاهد، ولا يتقدم لخطابة ولا لصلاة بالناس ولا لتلاوة في

موضع شريف إلا من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان وعدّ ثمانية أنفس: عبد الساتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت: وهذا أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشيعة على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال الرئيس أبويعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجل صفة وأحسن قضية، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وشرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب في صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد وبصرى بالخليل والرجل وآلات الحرب، ونزل على صرخد وبها المعروف بالتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان واليها أولاً.

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الامينية قبلي الجامع بدمشق، قال: وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أنه يقاوم من يكون مستولياً على دمشق، وأن الأفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، وتقرير أحوال الفساد معهم فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين، وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة، فأجابه وكان مبرزاً بظاهر حلب في عسكره فثنى إليه

الأعنة وأجدّ المسير، فوصل إلى دمشق في التاسع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياما يسيرة .

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نور الدين نحو صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياما، وتسلم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الأفرنج لترحيلهم، وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين فانهمز الكفار وولوا الأدبار، وتسلم معين الدين بصرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم.

وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش الذي خرج من صرخد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان ولا تقرير واستئذان توهما منه أنه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام، فاعتقل في الحال وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سمل عينيه، وعقد لها مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص فسمل كما سمل أخاه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها.

قلت : وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدم بعضها منها:
أي شأن أدركت يانورددين الـ
له أعينى على الملوكة لحاقه

نطق الحاسدون بالعجز عن ملـ
ك محلى بالنيرات نطـاقه
غض أبصارهم لحاق جـواد
ليس إلا إلى المعالي سباقه
سل بصيراكم أعتقت يوم بصرى
من أسارى الموت الزؤام عتاقه
كم عرام على العريمة شبت
ضاق منه على الصليب خنـاقه
ولكم هبـوة بهاب واختيـ
ها لاصكت الأسارى ربـاقه
بسط الذل فوق بسطة باسو
طا ولكن طواه عنه ارتفـاقه

وفي هذه السنة ولد بعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن
أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

قال أبو يعلى : وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأول توفي الفقيه
شيخ الاسلام أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي المصيصي
بدمشق، كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام الشافعي، ولم
يخلف بعده مثله.

وقال : وفي جمادى الآخرة تقررت ولاية حصن صرخد للأمير مجاهد
الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة، وشروط وأيمان دخل
فيها وقام بها، واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير
والصلاح والتدين والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوال وهو مستهل نيسان أظلم الجو
ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً
بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين، وبقيت السماء في عين

الناظرين إليها كصفرة الورد، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة وكل ما ينظر إليه من حيوان وجماد ونبات، ثم جاء في أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف والهدّات المزعجة والرجفات المفزعة ما ارتاع لها الشيب والشبان فكيف الولدان والنسوان، وقلقت لذلك الخيول في مرابطها، وبقي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخرة، ثم سكن بقدرة الله تعالى، وأصبح على الأرض والاشجار وسائر النبات غبار في رقة الهواء بين البياض والغبرة.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين أرتاح بالسيف وحصن بارة وبصرفوث وكفر لاثا، وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردّون ما أخذ منهم، فلما رأوا من نور الدين هذا الجدّ علموا أنّ ما أملوه بعيد.

فصل

في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله عنها

قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة تواصلت الاخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الافرنج من بلادهم منهم: الألمان والفرنش وجماعة من كبارهم في العدد الذي لا يحصر لقصد بلاد الاسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلمهم: النفير النفير إليها والإسراع نحوها، وخلوا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حمايتها والحفظة لها، ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعددهم الشيء الكثير الذي لا يحصى بحيث يقال إن عدّتهم ألف ألف من الرجال والفرسان، ويقال أكثر من ذلك، وغلبوا على أعمال قسطنطينية واحتاج ملكها إلى الدخول في مداراتهم ومسالماتهم والنزول على أحكامهم، وحين شاع خبرهم وأشتهر أمرهم شرعت ولاية الأعمال

المصابقة لهم والأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام، وواصلوا شنّ الغارات على أطرافهم واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحلّ بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر إذا وجدوه ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة إثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسةائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج، ويقال أنه بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع، وصل تقدير ثلاثمائة ألف، وقصدوا البيت المقدس، وقضوا حجبهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه، واختلفت الآراء بينهم فيما كانوا يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاءوا في تقدير خمسين ألفا، ودنوا من البلاد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا، فقصدوا ناحية المزة فخيّموا عليها لقربهم من الماء، وزحفوا إلى البلاد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بأزائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوّل، ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيّموا

فيها، وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً وحديثاً منه، واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتباع أوامر الله تعالى في كتابه الكريم، وقال: بعنا واشترى، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

فصل

قلت: وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن ملك الالمان الفرنجي لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الأفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال: بلى قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله فتقدما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد رحمهما الله تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها وهذا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال قد لحق الناس من الارتياح لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وخرجت معه الصدور وباكروا الظهور إليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث لا يني في جهادهم ولا يثني عن ذيادهم، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تنهيا الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم

إلى مكانه وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاية الأطراف بالاستصراخ والاستنجد، وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتابع، وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم، وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تقع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة، وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء، وأحاطوا بهم في مخيمهم، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار، وقد احجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد، وظنّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد إلا صرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضبياع وجعلوا يقصدونهم في المسالك، وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير، وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستتصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرحيل، فرحلوا سحر يوم الأربعاء التالي مفلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولا حصر يلحقه بحيث لها أرايح من جيفهم تكاد

تصرع الطيور في الجوّ وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودية في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدة فلله الحمد على ذلك والشكر.

واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قرية من دمشق للانجاء لها.

وقال ابن الاثير: خرج ملك الالمان من بلاد الافرنج في جيوش عظيمة لالتحصى كثرة من الفرنج إلى بلاد الشام ، فاتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ، ولا يشك ملك الالمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعسكره.

قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عدداً وأوسعهم بلاداً وملكهم أكثر عدداً وعدداً، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً، فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جدّه طغتكين، وهو معين الدين أنر، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر، وكان عاقلاً ديناً خيراً أحسن السيرة، فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم، وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشق، وكان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً خرج راجلاً، فرأى معين الدين فقصده وسلم عليه، وقال له: يا شيخ أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، قال: قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله، يعني قول الله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) (٥٣) الآية وتقدّم فقاتل حتى قتل رحمه الله عند النيرب شهيداً.

وقوي أمر الفرنج وتقدموا فنزلوا بالميدان الأخضر، وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القدوم عليه ويعلمه شدة الأمر، فجمع سيف الدين عساكره وسار مجداً إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد خضرت ومعني كل من يطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة والعياذ بالله علينا لا يسلم منا أحد لبعده بلادنا عنا، وحيث تملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك إن كانت النصر لنا على الفرنج أنني لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها، وأعود إلى بلادي، فهاطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج، فأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهدّدهم ويعلمهم أنه علي قصدهم إن لم يرحلوا، وأرسل معين الدين إليهم أيضاً يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتُم عنا والاسلمت البلد إليه وحيث لا تطمعون في السلامة منه، وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء في دمشق لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرّون على منعه من البيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الألمان عن دمشق، فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه واجتمعوا بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده وأنه ربما ملك دمشق، فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق فرحل ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين محمود رحمه الله، كما سنذكره.

فصل

قلت: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله في تاريخه أن
الفقيه الفندلاوي رؤي في المنام فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن
(على سرر متقابلين) ^(٤٥) وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير من ناحية
حائط المصلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله، وأما عبد
الرحمن الحلحول فقبره في بستان الشعباني في جهة شرقه، وهو المسجد
المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت، وكان مقامه في
حياته في ذلك المكان رحمه الله، وقرأت قصيدة في شعر أبي الحكم
الاندلسي شرح فيها هذه القصة منها:

بشط ي نهر داريس
أمور ما يواتينا
وأقوام أواسفك ال
دماء في جل ق ديننا
أنا ما ألف
عديدا أوي زيدونا
فبعضهم من أندلس
وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور
ومن صيدا وتبنيينا
إذا أبصرتهم أبصر
ت أقواما مجانينا
و جازوا المرج والتعدي
ل أيضا والميا اديننا
تخالهم وقد ركبوا
فطائرهما (٥٥) جرا دينا
وبين خيامهم ضموا ال
خنازير والق راييننا

ورايات وصلباننا
على مسجد خاتونا
وقلنا إذ رأيناهم
لعل الله يكفيننا
سماهم معين قد
أعان الخلق والديننا
وفتياننا تخالهم
لدى الهيجا شياطيننا
فولوا يطلبون المر
ج من شرقي جسرنا
ولكن غادروا إلينا
من تحت التراب مدفوننا
وشيوخنا فدلاونا
فقيهنا يعضد الديننا
وفتياننا تفنانوا من
دمشق نحو سبعينا
ومنهم مائتا عالج
وخيلنا نحو تسعيننا
وبياقهم إلى الآ
ن من القتل يفروننا

وللعرقلة حسان في مدح مجير الدين صاحب دمشق حيثُذ قصيدة
ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها:
عَرِّجْ عَلَى نَجْدٍ لَعَلَّكَ مَنجِدِي
نَسْمُهَا وَيَذْكُرُ سَعْدِي مَسْعِدِي

يقول فيها:
 من قاتل الافرنج ديناً غيره
 والخيل مثل السيل عند المشهد

ردّ الامان بكل ندب باسل
ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل غضب أبيض
زمن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه
وغدا بحمده من شريعة أحمد

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك
بوري جدّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في
أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن
مجير الدين أول القصيدة:

الحق مبتهج والسيف مبتسم
ومال أعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمّ
سنت العباد فأنت الحل والحرام
وجئت بالخيّل من أقصى مرابطها
معاقدا الخزم في أوساطها الخزم
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا
كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا إلا من الأقبال في عدد
يؤود حاسبه والاعياء والسأم
أجريت بحرام من المأذي معتكرا
أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جنّدك والرحمن يكلؤه
سياسة ما يعفي أثره اندم
وقفت في الجيش والاعلام خافقة
بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم
والله يعصم من بالله معتصم

حتى إذا بدت الآراء ضاحكة
وأقبلت أوجه الأقبال تبسم
اتبعنا جنّ سراياهم مضمرة
فيها نجوم إذا جدّ الوغى رجوا
والنصر دان وخيل الله مقبلة
ترجو الشهادة في الهيجاء تغتم
صاب الغمام عليهم والسهام معا
فما دروا أيما الهطالة السديم
سروا الليتهبوا الأعمار فانتهبوا
قتلا ويغتموا الأموال فاغتموا
وأقبلت خيلنا تردى بخيلهم
مجنوبة وعلى أرماحنا القمم
وأدبر الملك الطاغى يزعه
حرّ الأسنة وهو البارد الشيم
وافوا دمشق فظنوا أنها جادة
ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم
إن لم يزولوا سراعاً زالت الخيم
فغادروا أكثر القربان وانجلفوا
وخلفوا أكبر الصبيان وانهمزوا
مستسلمين لأيدي المسلمين وقد
أغرى الفنا ابتداءً خطفهم منهم
لا يملك الجسم دمعاً عن مقاتله
كأنه حين يغشاه الردى صنم
وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت
عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم

فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين أنر إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر عنده، فاجتمعا فوصل إليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج، وكان سبب ذلك أن الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان إلى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضاً، وجدّ هذا الذي ملك العريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب، فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مجديين فصبحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه، ويطلبان منه المدد فأمدّهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش، ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوا بأيديهم فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن، وعادوا إلى سيف الدين، وافتتح نور الدين أيضاً بأسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قتل أكثر من كان فيه، يعني في حصن العريمة، وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والأثاث وعاد عسكر سيف الدين إلى نعيمه بحمص ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الاعمال الأفرنجية وقصد أفامية وظفر بعدّة من الحصون والمعازل الأفرنجية وبعده وافرة من الأفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه

فنال من عسكره وأثقاله وكراعه ما أوجبته الاقدار النازلة، وانهزم بنفسه وعسكره وعاد إلى حلب سالماً في عسكره لم يفقد منه إلا النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج، وأقام بحلب أياماً بحيث جدّد ما ذهب له من اليزك، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله وقيل لم يعد.

وذكر ابن أبي طي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهي وقعة يغراء، ومرّ به نو الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا؟ فقال: ياخوند ايش ننفع نحن إنما ينفع مجد الدين أبو بكر فهو صاحب الأمر، فاستدرك نور الدين ذلك وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه، وأصلح بينهما.

قال: وقتل في هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب أخو الملك الناصر، وقيل في كسرة البقيعة.

قلت: وهو والد عز الدين فرخشاه وتقي الدين عمر والست عذراً المنسوب إليها العذراوية داخل باب النصر بدمشق، وقبره الآن بالترية النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العويّنة ظاهر دمشق رحمهم الله.

قلت: ولا بن منير من قصيدة تقدّمت اعتذاراً عما جرى في هذه الغزاة قال:

لم يشنه من ماء يغراء إن فرّ إلا
شابات ذاد عنها انذلاقه
كان فيها ليث العرين حمى الأ
شبال منه غضبان كالنار ماقه
وشبيه النبي يوم حنين
إذ تلافأ أدواءهم درياقه

- ٧٦٥١ -

وهي الحرب فحلها بحسن الكـ
ـرة إن عـض بأسهـا لانيـاقهـ

فصل

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا سار نور الدين إلى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشد قتال، ثم أنزل الله نصرة على المسلمين، وانهمزم الفرنج وكانوا بين قتل وأسير.

وفي هذه الواقعة يقول القيسراني من قصيدة أولها:
ونيرات الملك وهاججة

وطالع الدوله مسعود
وصارم الاسلام لايشني
إلا وشلو الكفر مرقم
مناقب لم تك موجوده
إلا ونور الدين موجود
مظفر في درعه ضيغم
عليه تاج الملك معبود
نال المعالي كالكا حاكم
فهو سليمان وداود
ترتشف الأفواه أسيا فاه
إن رضباب العز مـ
وكم له من وقعة يومها
عند ملكك الشرك مشهود
والقوم إمام رهاق صرعة
أومو ثقب بالقـ مشدود
حتى إذا عادوا إلى مثلها
قال لهم هيتـ عودوا
طالب بشار ضمتـه الطـبي
فكل ما يضمـن مردود

والكرّ والفرّ سجّال الوغى
فطارد طورا ومطارد
ولنا الافرنج من بغيتها
عادوا وقد عاد لها هود
قد حصحص الحق فما جاحد
في قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتح
وكل ثغر بك مسدود

وقال أيضا قصيدة في نور الدين: وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد
كسر الفرنج على يغرا، وهزمهم إلى حصن حارم، وقد كانت الفرنج
هزمت المسلمين أولا بهذا الموضع أولها:
تفسي بضمها البياض الحداد
وتقضي دينها السمير الصعاد
وتدرك ثارها من كل باغ
فوارس من عزائمها الجلال
ويغشى حومة الهيجاهام
يشد بضيعه السبع الشداد
أظنوا أن نار الحرب تحبوا
ونور الدين في يده الزناد
وجند كالصقور على صقور
إذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا اخفوا مكيدتهم أخافوا
وإن أبعدوا عدوتهم أبعدوا
ونصرة دولة حامية عنها
وهل يخشى وأنست لها عماد
وإن تتلى القوافي ما تلته
بإنب ما يوتنها سناد

جرت بالنصر أقدام العوالي
وليس سوى النجيع لها مداد
وطالت أروس الأعلاج خصبا
فنادى السيف قد وقع الحصاد
أخطت بهم فكان القتل صبرا
ولا طعن هناك ولا طراد
ولابرنس فوق الرمح رأس
توسد والسنان له وساد
ترجل للسلام ففرسوه
وليس سوى القناة له جواد
غضيب المقلتين ولا نعاس
وغايرها وليس به سهاد
فسر واستوعب الدنيا فتوحا
فلا هضب هناك ولا وهاد
وزربني الوغى مثوى حبيب (٥٦)
فما عن باب مسلمه ذباد
ولا في باب فارس غير ثكل
بفارسها يضيء بها الحداد
لأنطاكية يحمي ذراها
وقد دانت لسطوتك البلاد
واذعنت الممالك واستجابت
مليحة لدعوتك العباد

قلت: ووقعة إنب هذه كانت عظيمة، وقد أكثر كذلك الشعراء لها
وسياتي ذكرها قريبا إن شاء الله تعالى.

فصل

قال أبو يعلى التميمي: وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين ابن أتابك أمر بإبطال حي على خير العمل في أواخر تأذين الغداة، والتظاهر بسب الصحابة، وانكر ذلك إنكاراً شديداً، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب، وعظم هذا الأمر على الاسماعيلية وأهل التشيع وضائق له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهبة المحذورة.

قلت: وأنشده ابن منير في رمضان:
فداك من صام ومن أفطرا
ومن سعى سعيك أوقصرا
ومالورى أهلا فتفدى بهم
وهل يوازي عرض جواهر
عدل تساوى تحت أكنافه
مطافىل العين واسد الشرى
يانور دين الله كم حادث
دجى وأسفرت له فانسرى
وكم حمى للشرك لا يهتدي الـ
وهم له غادرت له مجزرا
ياملك العصر الذي صدره
أفسح من أقطارها مصدرا
وابن الذي طاول أفلاكها
فلم يجد من فوقه مظهرا
من اقرب تكسر كسرى كما
تقصر عن إدراكها قيصرا

ما عام في أوصافها شاعر
إلا رأى أوصافها أشعرا
لله أصل أنت فرع له
ما أطيب المجنى وما أطهر
ما حلب البيضاء مذ صبتها
إلا حرام مثل أم القرى
شيدت في معمور أرجائها
لكل باغى عمره مشعرا
فأصبح الشادي إذا ثوب الـ
داعي له هلل أو كبرا
لا عدم الاسلام من كفه
كهف لمن أرهق أو أحصرا
كأنما ساحتها جنة
أجرت بهارا حته كوثر
تصرم الشهر الذي كنت في
أوقاته من قدره أشهر
جهاد ليل في نهار غزا
إذ كنت فيه الأبر الأشر
أصدق ما يرشفه سامع
ما هز من أوصافك المنبرا
أبقاك للدينا وللدين من
خلاك في ليلهما نيرا
حتى ترى عيسى من القدس قد
نجا إلى سيفك مستنصرا

قال أبو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جري العادة والرسم، فبدأ من إختلافهم في أحوالهم وأغراضهم والخوض في قضايا لا حاجة لها من المذاهب ما أوجب

صرفهم عن هذه الحال، وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد، وطمع
سفهاء الأوغاد وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في
الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على
أعمالهم وخيم في ناحية من حوران بالعسكر، وكاتب العرب واستدعى
جماعة وافرة من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل
على النكاية فيهم، والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجددت المهادنة في المحرم مدة سنتين، وأنفذ نور الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية قد جمع أفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكره إلى ظاهر حلب للقاءه والحاجة ماسة إلى معاضدته، فندب معين الدين مجاهد الدين بُزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران.

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد على حشد الفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلا من أخبر ببوارهم، وتعجيل دمارهم، وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الاتباع والسواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإتّاب وهم في نحو أربعمئة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم ووجد اللعين البرنس مقدّمهم صريعاً بين حماته وأبطاله، فعرف وقطع رأسه، وحمل إلى نور الدين، وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية، وشدة البأس وقوة الخيل، وعظم الخلقة، مع اشتهاه الهيبة وكثرة السطوة والتناهي في الشر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر.

ثم نزل نور الدين في العسكر على باب انطاكية، وقد خلت من حماتها والذابين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة عددهم وحصانة بلدهم، وتردّدت المراسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا الأمر لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع أموالهم من الناصر لهم والمعين على من يقصدهم، وحملوا ما أمكنهم من التحف والمال، ثم استمهلوا فأمهلوا، ثم رتب نور الدين

بعض العسكر للاقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في بقية العسكر إلى ناحية أفامية، وقد كان رتب الأمير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمتازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان فأومنوا على أنفسهم وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الأول، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية وقد إنتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها ، فاقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم، وتقرير أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية له، وما قرب من أنطاكية لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول انطاكية من الحصون والقلاع والمقالع، وغيرها من المغانم الجمّة، وفصل عنه الامير مجاهد الدين بزان في العسكر الدمشقي وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملة البلاء المشهور والذكر المشكور، لما هو موصوف به من الشهامة والبرالة وإصابة الرأي والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طي: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله وقتل البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يقتل من المسلمين من يقوم به، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى، وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليد البيضاء، ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إذا كان آل فرنج أدركوا فلجاً
في يوم يغراونا الوامنية الظفر
ففي الخطيم خطمت الكفر منصلتنا
أبالمظفر بالصمصامة الذكر
نالوا يغراها باوانتبهت لنا
على الخطيم نفوس المعشر الأشر
واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنا
قوامص الكفر في ذل وفي صغر

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئاً.

وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم، وهو للفرنج فحصره وخرّب ريبضه ونهب سواده ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس، وإنجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عتاة الفرنج وذوي التقدم فيهم والملك، ولما قتل البرنس خلف ابناصغير وهو بيمند فبقي مع أمّه بأنطاكية، فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاثل بهم إلى أن يكبر بيمند، ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند، فلما أسره تملك بيمند أيضاً أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح، وقتل البرنس، فممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية أولها:
هذي العزائم لا ماتدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب
ما زال جلدك يني كل شاهقة
حتى إبتنى قبة أوتادها الشهب
لله عزمك ما أمضى وهمك ما
أفضى اتساعا بها ضاقت به الحقب
ياساهد الطرف والأجفان هاجعة
وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرّت سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد روميّة الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
قل للطغاة وإن صمت سامعا
قولاً للصم القنفا في ذكره أرب
ما يوم إن رب والأيام دائلة
من يوم يغرب بعيد لا ولا كئيب
أغرّكم خدعة الآمال ظنكم
كم أسلم الجهل ظنا غرّه الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى
وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قاذحة
فالحرب تضرّم والأجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تفرها
قوائم خانن الركض والخبيب
والنقع فوق صقال البيض منعقد
كما استقل دخان تحت هلب

السيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
والنبيل كالوبل هطال وليس له
سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبي ظفر حلو مذاقته
كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
ولأسنة عما في صدورهم
مصادر ألقوب تلك أم قلب
خانو فخاننت رماح الطعن أيديهم
فاستسلموا وهي لا تبع ولا غرب
كذلك من لم يوق الله مهجته
لاقى العدى والقنا في كفه قصب
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم
يارب حائنه منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم
ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم في ثياب من دمائهم
مسلوبة وكأن القوم ما سلبوا
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت
فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرة ما سمت والليل معتكر
الانمزق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه في كل حادثة
ووجهه نائب عن وصفه القلب
في كل يوم لفكري من وقائعه
شغل فكل مديحي فيه مقتضب

من باتت الاسد أسرى في سلاسله
هل يأسر الغلب إلا من له الغلب
فملكوا سلب الأبرنس قاتله
وهل له غير أنطاكية سلب
من للشقي بما لاقت فوارسه
وإن يسائرهما من تحته قتب
عجبت للصعدة السمراء مثمرة
برأسه إن أثار القنعا عجب
سما عليها اسم الماء أرهقه
أنبوبة في صعود أصلها صبيب
ما فارقت عذبات التاج مفرقه
إلا وهي منه لا تاج ولا عذب
إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا
بدا الثعلبها من نحره سرب
كنا نعدّحى أطرافنا ظفرا
فملكك الطبى ما ليس نحتسب
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها
كان تسليم هذا عندنا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق
كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله
فإنما أنت بحر رجه لجب
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة
من الطبى عن ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعا
حتى أقمت وأنطاكية حلب

حللت من عقلها أيدي معاقلها
فاستجفلت وإلى مشاقتك الهرب
وأيقنت أنها تتلو مراكزها
وكيف يثبت بيت ماله طناب
أجريت من ثغرا الاعناق أنفسها
جري الجفون امترها بارج حصب
وماركرت القنا إلا ومنك على
جسر الحديد هز برغيله اشب
فاسعد بها نلتها من كل صالحة
يا أوي إلى جنحة المأوى لها حسب
إن لا تكن أحد الابدال في فلك الـ
تقوى فلا تتأري أنك القطب
فلو تناسب أملاك السماء بها
لكان بينكما من عفة نسب
هذا وهل كان في الاسلام مكرمة
إلا شهدت وعباد الهوى غيب

وله فيه من قصيدة أخرى:

ألا للـه درك أي درّ
صريح جاء بالكرم الصريح
وعسكر الذي استولى مشيحا
على ما بين فاميه وشيخ
ووقعتك التي بنت العوالي
صوادر عن قتييل أو جريح
بإنسب يوم أبرزت المذاكي
من النقع الغزاة في مسح
غداة كانا العصا صي احمرارا
من الدم عبرة الجفن القريح

وقد وافاك بالابرنس حتف
أتيح له من القدر المتيح
قتلت أشحهم بالنفس إذلا
يجود بنفسه غير الشحيح
ملأت بهم ضرائحهم فأمسوا
وليس سوى القشاعم من ضريح
وعدت إلى ذرا حلب حميدا
سمو البدر من بعد الجنوح
فإن جليت بغرتك الليالي
فكم لسنك من زمن مليح
رويدك تسكن الهيجا فواقا
بحيث تريح من تعب المريح
فأنت وإن أرحت الخيل وقتا
فهمك غيرهم المستريح

قال أحمد بن منير يمدحه ، ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ، وحمل
رأسه إلى حلب ، وأنشده أيضا إياها بجسر الحديد:
أقوى الضلال وأقفر عرصاته
وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده
من بعد ما علّت دما عيراته
ردّت على الاسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته
أرسى قواعده ومدّ عماده
صعدا وشيد سورته سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
اصلاته وصلاته وصلاته
لما توارى خربه وتخاذلت
أنصاره وتقاصرت خطواته

رفعت لنور الدين نار عزيمة
رجعت لها عن طبعها ظلماته
ملك مجالس لهو شداته
ومشوقه بين الصفوف شداته
تغري بحث حثة اليراع بنانته
إن لذ حثة الكؤوس لذاته
ويروقه ثغر العدى كان دما
لا الثغر يعبق في ماء لثاته
فصبوحه خمر الطلى وغبوقه
نطف النفوس تذر هان شواته
فتح تعممت السماء بفخوره
وهفت على أغصانها لذباته
سبغت على الاسلام بيض حجوله
واختال في أوضاعها جبهاته
وانهل فوق الابطحين غمامه
وسرت إلى سكينها انفحاته
لله بلجة ليلة محصت به
واليوم ذبح وشيه ساعاته
حط القوامص فيه بعد قماصها
ضرب يصلصل في الطلى صعاته
نبذوا السلاح لضيغم عاداته
فرس الفوارس والقنا غاياته
لمجرب عمريه غضبياته
لله معتصمة غزواته
تحي الضيق صفاده اسراؤه
وتفيض ماء شؤونها نغماته
بين الجبال خواضعاً أعناقها
كالذود نابت عن براه حداته

نشرت على حلب عقود بنودهم
حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جناها لها مكر جياده
واستوأت حمالة حملاته
متساندين على الرحال كما انثنى
شرب أمالت هامه قهواته
لم تنبت الأجسام قبل رماحه
شجر أفرع أصوله ثمراته
فليحمد الاسلام ما جدحت له
شربات غرس هذه مخباته
وسقى صدا ذاك الحيا صوب الحيا
خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرى و مال عنه ومهدت
لقمر منصبك السرى سراته
ماضى هذا البدر وهو محلق
إن الكواكب في الذرى ضراته
في كل يوم تستطيل قناته
فوق السماء وتعتلي درجاته
وترى كشمس في الضحى آثاره
مجدوا والسنة الزمان رواته
أين الأولى ملا والطروس زخارفها
عن نازف بحر هذه قطراته
عذقوا بأعناق العواطل ماله
من جوهر فأتتهم فذاته
لو فصلوا سمطا ببعض فتوحه
سخرت بما افتعلوا لهم فعلاته
تمسي قنانيه بنات قيونيه
فوق القوانس والقناقيناته

صلى بان من دون الملوك تغرها
حركاته وتيمها يقظاته
فغدت بهم عن خطوه همتهم
وسمت به عن قطوهم همتهم
سكنوا مسجفة الحجال وأسكنت
زحل الرجال مع السها عزماته
لولا لالطائي غرة فتحه
بأءت بحمل تأؤه بأآته
أوهب للطبري طيب نسيمه
لاحتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده
فتفرقت أيدي سبأ خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
بالروح مقر ما خبت عذراته
فانقاد في خطم المنية أنفه
يوم الخطييم واقصرت نزواته
ومضى يؤنب تحت إنب همة
أمست زوافر غيها زفاراته
أسد تبوا كالفرف فجاته
فتبوات طرف السنان شواته
دون النجوم مغمضا ولطالما
اغضت وقد كرت لها لحظاته
فجلوته تيكبي الاصادق تحته
بدم إذا ضحكت له شماته
تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النيرين قناته
لوعانق العيوق يوم رفعته
لأراك شاهدا خفضه اخباته

ما انقاد قلبك أنفه لحزامه
كلا ولا همست لها هدراته
طيان خلف السرح طال زئيره
نطقست سطاك له فطال صباه
لما بدا مسود رأيك فوقه
مبيض نصرك نكست راياته
ورأى سيفك كالصوالج طاوحت
مثل الكرين فقلصت كراته
ولى وقد شربت ظباك كياته
تحت العجاج وأسلمته حماه
ترك الكنائس والكناس لناهب
باليض نهب ما حواه عفاته
لغلاب أروع لا يميّت عذاته
داء المطال ولا تعيش عذاته
للوحش ملقى بالعرايقاته
ما كان قبل بصيده يقتاته
اليوم ملكك القراع قلاعته
متسنا ما استشرفت شرفاته
وغدا تحل لك الحلائل اسهم
متوزعات بينهم بناته
اوطأت أطراف السنايبك هامه
فتقاذفت بعنيفها قذفاته
لا زال هذا الملك يشمخ شأنه
أبدا ويلفت في الحضيض وشاته
ما أخطأتك يد الزمان فدونه
من شاء فلتسرع إليه هناته
أنت الذي تحلى الحياة حياته
وتهب أرواح القصيدة بهاته

فصل

قال ابن الاثير: وفيها سار نور الدين إلى حصن فامية، وهو للفرنج أيضاً، وبينه وبين مدينة حماه مائة مرحلة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبوها، فأهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نو الدين إليه وحصره وضيق عليه ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحوه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملاؤه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذه ومدحه الشعراء وأكثر وا. منهم أبو الحسن أحمد بن منير حيث قال:

اسنى الممالك ما اطلت منارها

وجعلت مرهفة الشفاردثارها

وأحق من ملك البلاد وأهلها

رؤوف تكنف عدله أقطارها

من عام سام الخافقين وحامها

مننا وزاده سوى فخص نزارها

مضريّة طبعت مضارب به وإن

عدّته ذروة فارس اسوارها

آل الرعيّة وهي تجهل آلاها

وتعاف نطفتها وتكره دارها

فأقرّ ضجعتها وأنبت نبيها

وأساغ جرعتها وأثبت زارها

ملك أبـــــوه سبها لها فسبها

وأجارها ففعلت سهيلاً جارها

نهج السبيل له فأوضع خلفه
وشداله يمن العلى فانارها
أنشرت يا محمود ملّة أحمد
من بعد ما شمل البلى اصحارها
إن جانات عدل السنان قوامها
أونانات كان الحسام جبارها
عقلت مع العصم العواصم مذغدت
هذي العزائم أسرها وإسارها
وتكلفت لك ضمير انصيتها
في صـونها أن تستردّ ضميرها
كلأت هواملها ورّد مطارها
ما أريشته وثقفت أطارها
كم حاولت من كفتيها غيرة
غلب الأسود فقلمت أظفارها
أنى وحامي سرحها من لوسمت
للفلك بسطته أحوال مدارها
في كل يوم من فتوحك سورة
للدين يحمل سفره أسفارها
ومطيلة قصر المنابر إن غدا
خطباء تشرف فوقها تقصارها
همم تحجلت الملووك وراءها
بدم العثار وما اقتفت آثارها
وعزائم تستوثر الأساد عن
نهش الفرائس إن أحس أوارها
أبدا تقصر طول مشرفة الذرى
بالمشرفة أو تطيل قصارها
فغزت أفاميّة فمافهمته
كوباراً جناها الأران بوارها

أرهفت رائك فوق رائك تحتها
فحططت من شغفاتها أعفارها
أدركت ثارك في البغاة وكنيت يا
مختار أمّة أحمد مختارها
عارية الزمن المغير سماها
منك المغيرة فاستردّ معارها
زار الهزبر فقيدت عاناتها
عصر الضلال وأسلمت أعيارها
ضاءت نجومك فوقها ولربها
باتت تنافثها النجوم سرارها
أمست مع الشعري العبور وأصبحت
شعراء تستقلي الفحول شوارها
ولكم فرعت بمقرباتك مثلها
تلعا وقلدت الكماة عذارها
حتى إذا اشتملتك أشرق سورها
عزّا وحلاها سنّاك سوارها
خرّ الصليب وقد علت نغماتها
واستوبلت صلواته تكرارها
لما وعاسم مع انطاكية
سرت الوقار وكشفت أستارها
فاليوم أضحت تستدّم مجيرها
من جورره وغدت تذمّ جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها
إن زرّ أطاق القباء وزارها
ماض إذا قرع الركاب لبلدة
ألقت له قبل القراع أزارها
وإذا مجانقه ركع من لصعبة الـ
مملكة أسجد كالجدير جدارها

ملا البلاد مواها ومها بة
حتى استرقت آية أحرارها
يذكى العيون إذا أقام لعينها
أبدا ويفضي بالظبي أبكارها
أو ما إلى رمم الندى فأعاشها
وهما السابقة المنى فازارها
نبوي تشييه الفتوح كأنها
أنصاره رجعت له أنصارها
أحيى الصرح سلامها سلما نها
وأمانات تحت عمارها عمارها
إن سار سار وقد تقدم جيشه
رجف يقصع في اللهى ذعارها
أو حلّ حلّ جبال القروم بهيبة
سلب البدور وبيدارها أبادارها
وإذا الملك تنافسوا درج العلى
أربى بنفس أفرعته خيارها
ونهى إذا هيضت تدلّ لجبرها
وسطى تذلل إذا عنت جبارها
تهدى لمحمود السجيا كاسمه
لولز فاعلة بها لأبارها
الفاعل الفعلات ينظم في الدجى
بين النجوم حسودها اسمارها
ساع سعى والسابقات وراءه
عنقاف عصفر منتهاه عثارها
كالضرجى إذا يصصر رائبها
خرس البغات وهاجرت أوكارها
عرفت لنور الدين نور وقائع
يغشى إذا اكتحلت به أبصارها

مشهورة سطعت وقد حاولتها الـ
أقذار عجزاً أن تشق غبارها
للـه وجهك والوجه كأنها
حطت بها أوقار هبت قارها
والبيض تخنس في الصدور صدورها
هبرا وتكتحل الشفور شفارها
والخيل تدلج تحت أرشية القنا
جذب المواتح غاورت أبارها
فبقيت تستجلي الفتوح عرائسها
متمليا صدر العلى وصدورها
في دولة للنصر فوق لوائها
زبرتنمق في الطلى أسطارها
فالدين مرماة رفعت بها الصوى
وحديقة ضمننت يداك أبارها

وله فيه من قصيدة أخرى:
خنس الثعالب حين زجر مصحر
ملا البـلاد هماهما وزيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق
جعلت مخافته القصـور قبورا
لريب حرب لم تزل فعلاته
كالراء يلزم لفظها التكريرا
أسد إذا ما عاد من ظفر بمفـ
ترس أحـد لمثله اظفـورا
يتناذر الأعداء منه سطوة
ملا الزمان تغيطـا وزفيرا
عرفوا النور الدين وقع وقائع
وفيها الاسـلام أمـس ندورا

أبدا يظا فرك القضاء على الذي
تبغى فترجع ظا فرامنصورا
قوضت فانتقع الظهائر ظلمة
وقفلت فاشتعل الدياجرنورا
وعلى العواصم من دفاعك عاصم
ينشي الرشيدي وينشر المنصورا

فصل

في وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس
ابن الصوفي في هذه السنة

قال أبو يعلى التميمي: فصل معين الدين من عسكره بحوران
ووصل إلى دمشق في أواخر ربيع الآخر لأمر أوجب ذلك ودعا إليه
وأمن في الأكل ، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به ، وحمله اجتهاده
فيما يدبره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من
الانطلاق ، وقد زاد به وضعفت قوته وتولد معه مرض في الكبد ، فأوجب
الحال عوده إلى دمشق ، في محفة لمداواته فوصل ، وقضى نحبه في ليلة
الثالث والعشرين من ربيع الآخر ، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي
كان يسكنها ، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها .

قلت: قبره في قبة بمقابر العوينة شمالي دار البطيخ الآن واسمه
مكتوب على بابها فلعله نقل من ثم إليها ، وفيه يقول الأمير مؤيد الدولة
أسامة بن منقذ وكتب بها إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض بصرى
وصرخد مع نور الدين ، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها:
كل يوم فتح مبین ونصر
واعتلاء على الاعادي وقهر

صدق النعت فيك أنت معين الـ
ـدين إن النعوت فال وزجر
أنت سيف الاسلام حقافلا كل
غرار يك أيها السيف دهر
لم تزل تضمم الجهاد مسرا
ثم أعلنت حين أمكن جهـ
كل ذخرا الملوك يفنى وذخرا
كهما الباقيان أجرو شكر (٥٧)

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بإبطال الفئدة المستخرجة من الرعية وإزالة حكمها وتعفية رسمها وإبطال دار الضرب، فكثر دعاء الناس له وشكرهم، قال: واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشا أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء وحملة السلاح من الجهلة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة للاحتماء بهم من مكروه يتم عليهما، وذلك في ثالث عشر رجب، ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكنهما ويطيب أنفسهما، فما وثقا بذلك وجدا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد، وأثارا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا غلاقه واطلقوا من فيه، واستنفروا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جمع كثير، وامتلاأت بهم الأزقة والدروب، فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشاكي، وأخرج ما في خزانته من السلاح والعدد وفرقت على العسكر، وعزموا على الزحف على جميع الأوباش والايقاع بهم والنكاية فيهم، فسأل جماعة من المقدمين التمهّل في هذا الأمر وترك العجلة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم، ووقعت المراسلة والتلطف في إصلاح ذات البين، فاشتراط الرئيس وأخوه شروطا أجيبا إلى بعضها،

وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازما لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولا يركب إلى القلعة إلا مستدعى إليها، وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء، ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدمين والرعايا والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة، وحصر من بها وطلب من عين عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه إلى ناحية بعلبك، ولم تزل الفتنة نائرة والمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصورة إبعاد من التمس إبعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدي النهابة في دار السلار زين الدين وأخيه وأصحابهما، وعمها النهب والاختراب، ودعت الضرورة إلى تطيب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرياسة بحيث لا يكون له في ذلك معترض ولا مشارك.

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقلة.
ذرا لا تـراك والعـربا
وكن في حزب من غلبا
بجلى أقـصحت فتـن
تجر الـويـل والحربا
لئن تمّت فـأسفـا
ولم تحزن فـواعـجبا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:
زد علـوا في المـجـديـا بن علي
هكذا مـن أراد أن يتعالى
وغدت جلىق تـناديك عـجبا
هكذا هـذا والافـلا لا

لن تبالي من بعدهم بعدو
إنها ذاك كان قطعاً فزالا
قد حوى الدين يامؤيده منـ
كـهـزـبراً وديممة وهلالا
جئتها في الظلام خيلاً ورجلاً
وحملت النفسوس والامـوالا
قد بلغت المراد من كل ضد
وكفى اللّٰه المؤمنين القتـالـا

قال أبو يعلى التميمي: وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الأمر بن المستنصر في خامس جمادى الآخرة ، وولي الأمر بعد ولده الأصغر أبو منصور اسماعيل ، ولقب بالظافر، وولى الوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي.

فصل

في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل

وهو أخو نور الدين الأكبر.

قال ابن الاثير: كان أتابك الشهيد، يعني زنكي، ملك دارا وبقيت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنة أربع وأربعين فحاصرها وملكها واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها، ثم حصر ماردين عازماً على أن يدخل ديار بكر، ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده، فتفرق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون، فقال صاحب ماردين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه فلقد كانت أعياداً قد حصرنا غير مرة فلم يتعدّ هو وعسكره حاصل

السلطان، ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن:
ربدهـ ربكيـت منهـ فلما
صرت في غيره بكيـت عليـه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوجه ابنته الخاتون،
ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل، وجهاز الخاتون
وسيرت إليه فوصلت إلى الموصل وهو مريض فتوفي ولم يدخل بها، وذلك
في أواخر جمادى الآخرة، وكان عمره نحو أربعين سنة، وكان من أحسن
الناس صورة، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، وخلف ولدا
ذكر أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته وزوجه ابنة عمه
قطب الدين مودود، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفوان شبابه فتوفي
وانقرض عقب سيف الدين، وكان كريما شجاعا ذا عزم وحزم، وهو
أول من حمل على رأسه سنجق من أصحاب الأطراف فإنه لم يكن فيهم
من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية، وهو أول من أمر عسكره أن
لا يركب أحدهم إلا والسيف في وسطه، فلما أمر هو بذلك إقتدى به
غيره من أصحاب الأطراف، وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة
وهي من أحسن المدارس وأوسعها، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية
والحنفية نصفين، وبنى رباط الصوفية بالموصل أيضا، وهو الرباط
المجاور لباب المشرقة ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وكان كريما قصده
شهاب الدين حيص بيص وامتدحه بقصيدته المشهورة وهي من جيد
شعره فأجازه عنها ألف دينار أميري سوى الإقامة والتعهد مدة مقامه
وسوى الخلع والثياب.

قلت أول تلك القصيدة:
إلى ميراك المجدي في زي شاعر

يقول في آخرها:

أتابك إن سميت في المهدي غازيا
فسابقة معدودة في البشائر
وفيت بها والدين قدمال روقه
وصدقتها والكفر بادي الشعائر

وعزى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه بقصيدة تقدم
بعضها أولها:
هو الجذب الزالتام البـدورا

يقول فيها:
سوى كل ما جنت الحادثا
ت ما كنت ظلا علينا قريرا
أسأ ن وأحسن كنّ الهلال
وملا نسا منك بدرا منيرا
إذا نبج البحر أخطأته
فلا غرو أن يتشفن الغديرا
وأصغر بفقداننا الذاهب
ين ما عشت ناتيكن ملكا كبيرا
وما أغمد الدهر ذاك الحسا
م ما سأل حذاك غضبا بتورا
قسيم علاك ونعم القسم
يم أخ شاف نورا وأعطى كثيرا
وكان نظيرك غار الزما
ن من أن يرى لك فيه نظيرا
فدتك نفوس بك استوطنت
من الأمن نورا وقد كنّ بورا
وغيرك يمهد بسط العزا
ء ويولي المسلمين سمعا وقورا

وما نقص الدهر اعدادكم
إذا شفق قطرا وأبقى بحورا
ولو أنصف المجد موتاكم
لخط لهم في السماء القسورا
حياتك أحييت رميم الرجاء
وأعطيت من الجود ظهرا ظهيرا
بقيت معزاة من الهالك
بين توقي الردى توفى الاجورا

وللقيسراني قصيدة منها
ما أطرق الجو حتى أشرق الأفق
إن أغمد السيف فالصمصام يأتلق
دون الاسى منك نور الدين في حلب
ملكك ينجلي عن وجهه الغسق
هو الشقيق الشقيق الغيب حين ثوى
أراق ماء الكرى من جفئك الارق
تلقى الاسى من لباس الصبر في جنن
حصينة تحتها الاحشاء تحترق
ومدة الاجل المحتوم إن خفيت
فإن أيا من آمن دونها طرق
وإنما نحن في مضمار حلبته
خيال إلى غاية الاعمار تستبق
شأوا إذا ابتدر الاقوام غايته
كان المؤخر فيها من له السبق
إن كان صنوك هذا قد ثوى وذوى
ففي مغارسك الاثمار والورق
أو أصبحت بعده الاهواء نافرة
أيدي سببا فعلى عليك نتفق

ما غاب من غاب عن آفاق مطلعته
الاليفتر عن أنوارك الأفق
مادام شمسك فينا غير أفلة
فالدين منتظم والملك متسق

فصل

قال ابن الاثير: لما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين على توليته وتمليكه طلبا للسلامة منه، فإنه كان لين الجانب حسن الأخلاق كثير الحلم كريم الطباع، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ونزل بدار المملكة، وحلف له الأمراء والأجناد واستقر في الملك، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين، ولما ملك واستقر في الملك تزوج امرأة أخيه الذي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين، فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على ما سذكروه، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكانت هذه الخاتون يحل لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكا من آبائها وأجدادها وأخوتها، وبني أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها، ثم ذكرهم ابن الاثير في كتابه وسماهم، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة وهم من معاوية إلى آخر خلفاء بني أمية سوى آخرهم وهو مروان بن محمد فإنه ابن عم لها ليس بمحرم والباقون محارم لها، وما تم له ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فمعاوية جد أمها، ويزيد جدّها لأمها، ومعاوية ابن يزيد خالها، ومروان جدّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليد وسليمان وهشام ويزيد أخوتها، وعمر بن عبد العزيز زوجها،

والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد، أولاد أخوتها، وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبني على أصل فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزومية، على ما بيناه في ترجمتها في تاريخ دمشق، ولكن الصواب في ذلك أن يقال كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان ابن الحكم ونسله سوى، مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن العزيز ومروان بن محمد، بقي اثنا عشر خليفة كلهم محرم لها: معاوية جدّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليان وهشام أولاد زوجها، ويزيد ابن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها، ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالأخوة والأعمام والأخوال وبني الأخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك، وغيرهم، وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية، وما ذكر ابن الاثير من أمر حسام الدين، فست الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكاً من أخوتها الأربعة، المعظم، وصالح الدين، والعاذل، وسيف الاسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين وذريته أصحاب حماه، وفرخشاه وابنه الأجد صاحب بعلبك.

فصل

قال ابن الاثير: ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية، كان

أخوه نور الدين بحلب، وهو أكبر من قطب الدين، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم منهم المقدم والد شمس الدين بن المقدم، وهو حيثند دز دار سنجار، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارساً من أكابر دولته منهم أسد الدين شيركوه، ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما، فوصلوا إلى ماكسين في ستة أنفس في يوم شديد المطر، وعليهم اللبايد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلوا إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد كأنهم تركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه، وسار مجدداً إلى سنجار فوصلها وليس معه إلا نفر يسير، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدة تعب، وأرسل إلى المقدم بالقلعة يعرفه ووصوله، وكان المقدم قد استدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها فأرسلوا إليه، فوقف عدة أيام فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل، وترك ابنه شمس الدين بسنجار، وقال له: أنا أتأخر في الطريق فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين فخاف فوات الأمر، ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتل يعفر، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور الدين، وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجد، وبذل له قلعة الهيثم فسار إليه بجنده، فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل، نحو سنجار ومعه الجمال والزين ونزلوا بتل يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذوه ما ليس له، وتهددوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً، فأعاد الجواب: إنني أنا الأكبر وأنا أحق أن أدبر أمر أخي منكم، وما جئت إلا لما تتابعت كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليهم - يعني الجمال والزين - فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهديدكم إياي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلا

بجندكم وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه لثلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين الوزير، وقال: نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويهددهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه، فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن ظفرنا به طمع فينا الفرنج، ولنا بالشام حصص، وقد وصار له عندنا سنجار، فهذه أنفع لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه والرأي أن نسلم إليه حصص ونأخذ سنجار وهو في ثغر بازاء الفرنج ويتعين مساعدته، فاتفق الجماعة على هذا الرأي وسار جمال الدين إلى نور الدين وأبرم معه الأمر وتسلم حصص وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال، ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين لأن حصص كانت لأخيه ينال، وهو مقيم بها، واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم، وكل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه، وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال: أنت عندك من الكفاية ما يستغني به عن وزير ومشير وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالنفع إليك عائد وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي، فأجابه إلى ذلك فقال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار فيجب مساعدتك وأنا اقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة، فأمر له بها، فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت: وقرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الدين عند قدومه وقد استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربعين وخمسة:

هذا الذي ولدت له الافكار
وتمخضت فألأ به الاشعار
وجرت له خيل النهى في حلبة
وردت وصفه وضميرها المضمار
واتت به نذر القوا في برهة
إن القوا في وحيها انذار
حكمت لسيفك بالممالك عنوة
حكما لعمري ما عليه غبار
يا أيها الملك المطيع لنجاده
بريدين يهديه الابرار
يا بن السيوف وهل فخرت بنسبة
إلا سبابك للجود وفخار
فارقت دار الملك غير مفارق
لك من علاك بكل أرض دار
في عسكر تخفي كواكب ليله
نقعا فيطلعها القنا الخطار
جرار أذيال العجاج وراءه
وأمامه بل جحفل جرار
تدني لك الغايات أكبر همة
نورية هم الملوك كبار
حتى ملأت الخافقين مهابة
دانته لعظم نظامها الاقطار
وملكت سنجار ومامن بلدة
إلا تمننت أنها سنجار
ويسطت بالأموال كفاطالما
طالت بها الأموال وهي قصار
وجرت بأمداد الجياد شعابها
جري السيول وماسواك قرار

وثنى الفرات إلى يديك عنانه
والبحر ما اتصلت به الأنهار
وملكت رجة مالك فتبرجت
منه العينك كاعب معطار
جاءتك في حلل الربيع وحليها
قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة
وتوذلو أن النجوم نثار
فأقمت كالشمس إن نأت
عن أفقها فلهاب به أقيار
من كان نور الدين ثم أجنة
ليل السرى حفت به الأنوار
تدعو البلاد إليك ألسنة الظبي
فيجيئك الانجساد والاغوار
حتى عمدت الدين يابن عماده
بقنا أستنها عليه منار
وقفلت من أسفار جدك قادمًا
كالصبح نمت بثغره الأسفار
يغشى البصائر نور وجهك بعدما اعد
تركت على قسائمه الأبصار
حتى عمرت بكل قلب صدره
حيث الصدور من القلوب قفار
إن تمس في حلب رياحك غضة
فلهاب أنطاكية إعصار
وغدت جياذك بالشام مقيمة
ولها بأطراف الدروب مغار
همم سبقت بها إلى مهج العدى
صرف السرى ومسيره إحضار

وأرى صباح القمص كان خديعة
فطغى وجاور ليس ثم وجار
سأل الصنيعة غير محقوق بها
والخير يهدم ما بنى الختار
حتى إذا ما غبت أقدم عاثا
أقدام من لم يبدن منه قرار
أمضى السلاح على عدوك بغيه
بالغدر يطعن في الوغى الغدار
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفل
كالليل فيه من الصفيح بهار
جند على جرد أمام صدورها
صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعه نصره
ولكل هادي أمة أنصار
ملك له من عدله ووفائه
جيش به تستفتح الامصار
وإذا الملوك تشاقلت عن غاية
وأرادها خفت به الاقدار
وإذا انتضته إلى الثغور عزيمة
قامت مقام جنوده الاخبار

ولا بن منير من قصيدة فيه:
ترنح معطف الزوراء لما
دعاك لزور سنجار لما
وزلزلت الصعيد وراء مصر
غداة علتك في قطن الخيام
رجاء هزتيك وتلك خوف
ولو قد شئت ضمها قرام

بعيشك يا مبيد الخيل ركضا
حمام حمام ن تحتك أم حمام

وقال ابن منير أيضا يهتته بتسلم قلعة حمص من ينال، وأنشده في القلعة قصيدة أولها:

ارحهم ففهي أزالام المعالي
لهن إلى الوغى فوق المغالي

أما ومقيله من بكل نقع
يقووض بالهدى عمر الضلال

وأَيُّ سِيَّوْفِكَ الْحَمْرُ الْحَوَاشِي
مَنْزِلَةٌ مَتَى دَعَيْتَ نِزَالَ

مواضع إن سألن سألن جزماً
نفاه من الطلي لفظاً اعتلال

لقد غلب الصليب بحر حرب
يشيب أوارها المم الليالي

و شمت لنصر هذا الدين بأسأ
يحرّم منه كل حى حلال

وقايع أترعت في كل فج
وقايع جوّه ادا مي العزال

ومنها:

تسائل حمص عن منسي دين
تقاضاه لك الحج الخوالي

فواتت وهي أخت النجم بعدا
ووعدا صيغ من مطل مطال

تَشَامَخْ أَنْفَهَا عَزَّ وَشَدَّتْ
عَلَى أَنْ لَا تَنْتَهِالَ يَدَايْنِهَا

فما زال رقتك تجذّ نقضاً
لما تشنيه من مرر الحبـال
إلى أن أطلق الحسناء كـرها
وآل إلى مـلاو حـصة المآلي
يصد الوجه عن شـم القـت
يـد الاشـم ذي باع طـوال
شغلـت بها يمينـك والمواضي
تكفـل أن مصر اللشـمال
إذا فتح القتـال عليك أرضـا
أباحـك أخـتها لا عن قتـال

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بافساد الفرنج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدّم يعول عليه، وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج عليه وغولط، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج ييوس، وبعض العساكر بيعفور، فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الافرنج بخبره وقرروا معهم الانجاد عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس وعرف نور الدين خبرهم، فلم يحفل بهم وقال: لأنحرف عن جهادهم، وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العيث والافساد في الضياع، وأمر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها، وكان الغيث قد انحس عن حوران والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الأمر، فلما وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول

المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة، وأقام إلى مثله فروى الآكام والوهاد، وجرت الأودية وزادت الأنهار وامتلأت برك حوران ودارت أرحيتها، وعاد ما صنوح من الزرع والنبات طرياً، وحشد الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا: هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته، ثم رحل من منزله بالأعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجير الدين والرئيس وقال: إني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج، وعدم الناصر لهم ولا يسعني مع ما أعطاني الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالأفرنج على محاربتهم، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا لا يرضي الله تعالى ولا أحد من المسلمين، ولا بدّ من المعونة من ألف فارس مزاحي العلة تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة.

. قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة : ليس بيننا وبينك إلا السيف، وسيوافينا من الأفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت إلينا، فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه، أكثر التعجب منه والانكار له، وعزم على الزحف إلى البلد ومحاربتة في غد ذلك اليوم، فأرسل الله من الأمطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك.

ودخلت سنة خمس وأربعين

ففي مستهل المحرم تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك أن نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أخبار دعتة إلى ذلك، واتفق أنه بذل لهم الطاعة، وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكة، ووقعت الايمان على ذلك، وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعادته مكرماً محترماً، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم، ثم استدعى الرئيس الى المخيم، وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعادته الى البلد، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به، ووصل من استباحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ما خاب قاصده، ولا أكدي سائله، ورحل عن مخيمه عائداً الى حلب بعد احكام ما قرر، وتكميل ما دبر

قلت وفي ذلك يقول القيسراني:
لك الله إن حاربت فالنصر والفتح
وإن شئت صلحاً عدّ من حزمك الصلح
وهل أنت إلا السيف في كل حالة
فطوراله حدود طور له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها
ترنح من سكر فخلّ القنساتصحو
وما كان كف العزم إلا إشارة
إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح
وقد علم الأعداء مذبت جانحا
إلى السلم ما تنوي بذلك وما تنحو

إذا ما دمشق ملكتك عنانها
تيقن من في إيليا أنه الذبح
متى التف نفع الجحفلين على الهدى
فلا مهمة يحوي الضلال ولا سفح
إذا سار نور الدين في الجيش عازما
فقلولا لليل الأفك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها
فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت فكأن الصبر غير مغبرة
فسيق إليك الملك يسعى به النجح
كأن القنا تجلوله وجهه أمره
ولو أمهلت بلقيس ما غرّها الصرح
بدولتك الغراء أصبح ضدها
بهيا ولو لا الحسن ما عرف القبح
وكم من قريح القلب لوبات واردا
موارد هذا العدل ما مسه قرح
سخابك هذا الدهر جودا على الورى
على أنه ما زال في طبعه شح
وقد كان يحور سم كل فضيلة
ونحن نراه اليوم يثبت ما يحو
بك ابتهج الباب وانتهج الحجى
وأثمرت الآداب وأطر المدح
ولا ذت بك التقوى وعاذت بك العلى
ودانت لك الدنيا وعزبك السرح
فلا قلب الا قد تملكته هوى
ولا صدر الا قد جللاه لك النصيح
ومما الجود في الاملاك إلا تجارة
فمن فاته حمد الورى فاته الربح

ولم اختصر ما قلت إلا لأنني
اعبر عما لا يقـوم به الشرح

فصل

في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن
عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه،
وحصلوا في قبضة الاسر في قلعة حلب، فسر هذا الفتح كافة الناس،
وتوجه نور الدين في عسكره إلى أعزاز، ونزل عليها وضايقها، وواظب
قتالها إلى أن سهل الله تعالى ملكها بالأمان، وهي على غاية من المنعة
والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل
عنها ظافراً مسروراً عائداً إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأول.

قلت: وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أولها:
فـدـتـك القـلـوب بـأـلـبـاها
وسـاح المـلـوك بـأـرـبـاها
كـتـاب تـرمـي جـنـود الصـلي
بـمـنـهـا بـتـقـطـيع أصـلـابـها
إـذا مـا انـثـت مـن قـراع الكـما
ة كـسـت وفـدـهـا وـشـي أسـلـابـها
تـبرنـس مـنـهـا البرنـس الشـيا
بـو حـلـتـه مـن وقـع احـلـابـها
عـشـية غـصـت عـلـى إـنـب
نـفـس النـصـارـي بغـصـابـها
وقـام لـأحمـد مـحـمـود هـا
بـجـذع مـوازـن أحـزـابـها

تجلى لها حيـدري المصـراع
أغلب مـود بغـلاها
مـورث أركـاسها مـن أب
أكـول الفـوارس شراها
همام إذا أعصـبـت نبـوة
دهامها بها شـم أعصـابها
مضى وجنى لك حلـو الشـها
دمعـا تمطـق مـن صـابها
وأوصى بها لك مـن بـعد ما
تجـوع ممقـرر أو صـابها
واقسم جـدك أن لا يـليـه
قـبـغـيرك ملبـس أثـوابها
صـبـحت دـمشـق بـمشـق الجـيـاد
زبور الوغـى بـين أحـداها
واصلت رأيك قبـل الحـسا
مخمـد جـمـرة أجـلاها
فأعطتك ما لم تنلـه يـد
وفازت رقـاك بـأصـحابها
وأنت تصـرف فضـل الزـما
م مـن حمـص تـأخـير ركـابها
تخونـها الجـور فـاستـدر كـت
بـعد لك أغـبار ظـبـطـابها
وفاجأت قـورس بـالشـائـلات
تمج القنـاس مـا اذنبـاها
فما رمـت حتـى رمت بـيـضها
إليك أزمـة ضـرابها
وعزت عزاز فـاذلـتـها
بـمجـرى مـضيـق لاسـهاها

شامخ من أنفها منكبا
وأكثر من عد طوراها
دلفت لعيط أم النجو
م في الأم رايطناء أتوراها
وعذرا مدمرت ما هتدت
ظنون الليالي لاحزايها
تفرعتها بفروع الشوش
سج مشرة هام أوشايها
وعوج إذا انبضت اغمضت
ذكاء لارسال نشايها
ومحدود ببات تطير الخطوب
ملا فظ ألسن خطايها
تصوب عقبان ريب المنون
متى بنتها باعقايها
ومار كعت حول شم الهضا
ب الاسجدن لانصايها
فلاذت بمعتصم بالكتا
ب وهوب المالك سلاها
بمعتصم بي الهدي والهدى
هموس السرى غير هيها
محل المحل بوصف الفتو
ح ووصف التهاني وأربايها
وتعجز مداحه أن يحى
ط ب آداب به فلك آدابها
بدائع لورددهر رم
ين بنات حبيب باحباها
أين ابن أوس وآياته
من اللاء أودت بحسايها

من الالاء عاد عتيق لها
وردة عليها ابابن خطابها
فأيامه من حبور تكا
ديطير بها فطرط إعجباها
لك الفضل إن راسلتك الجيا
دوقامت أدلة أنجباها
إذا أغتسقت همم الجائرين
أتيت السيادة من بابها
أبوك أبوها وأنت ابنها
العريق ودميه محرابها
أقول لمؤجره بالغرو
رتمطت هواها فاهوى بها
حذار فعند ابتسام الغيو
ث تخشى صواعق الهاها
ولا تخدعوا بوافترار الليو
ث فالنار في برد أنيها

وبقي أطول من هذا:

فصل

في صفة أسر جوسلين

قال ابن الأثير: سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب، منها: تل باشر، وعين تاب، وعزاز، وغيرها من الحصون، فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ولقوا نور الدين وكان بينهم حرب شديدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السلاح فأنفذه إلى

السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية واقصرا
وغيرهما من تلك الأعمال، وكان نور الدين قد تزوج ابنته وأرسل مع
السلح إليه يقول: قد انفذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك بعد هذا
غيره، فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم
إن هو جمع العساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر
وامتنع ، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من
الاقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا وإما أسرا، فاتفق أن
جوسلين خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فذهب وسبى
فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله
التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً فصانعهم على مال بذله
لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين، فأرسل
جوسلين في إحضار المال فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين
بحلب فأعلمه الحال، فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان
قهراً وكان نور الدين حينئذ بجمص، وكان أسره من أعظم الفتوحات
على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج، شديد العداوة
للمسلمين وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من
شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الاسلامية وقسوة قلبه على
أهلها، وأصبحت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده
وخلت بلادهم من حاميتها، وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على
المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي
بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق
نكث وغدر، فلقيه غدره وحق به مكره (ولايحيق المكر السيء إلا
بأهله)(٥٨) فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين
تاب، وعزاز وقورس، والراوندان، وحصن البارة، وتل خالد، وكفر لاثا
وكفر سود، وحصن سرفوت بجبل بني عليم، ودلوك، ومرعش، ونهر
الجوز، وبرج الرصاص.

قال: وكان نور الدين رحمه الله إذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء.

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسراني، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعاً ما ادعى من غره النهي والأمر
فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا إليه عناها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر
ومن راها من الأقدار في صهوة العلي
فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
إذا الجذأ مسى دون غايته المنى
فما ذا عسى أن يبلغ النظم والشر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك
زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقاً أن كرسي ملكها
حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنت نور الدين مذررت أرضها
سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها
وخطب العلي بـ. السيف ما دونه ستر
جلاها لك الأقبال حورية السنا
عليها من الفردوس أروية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة
نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهرا
فسقت اليها الأمن والعدل نحلة
فامست ولا أسر تخاف ولا إصر

فان صافحت يمينك من بعد هجرها
فاحلى التلاقي ما تقدمه هجر
وهل هي الا الحصان تمنعت
دلا لا وان عز الحيا وغلا المهر
ولكن اذا ما قستها بصداقها
فليس له قدر وليس لها قدر
هي الثغر أمسى بالكراديس عابثا
وأصبح عن باب الفراديس يفت
على انها لو لم تجيبك إنسابة
لارهقها من بأسك الخوف والذعر
فاما وقفت الخيل ناقعة الصدى
على يردا من فوقها الورق النضر
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغى
وأصدرتها والبيض من علق حجر
وجللتها نقعا أضباع شياتها
فلا شهبها شهب ولا شقرها شقر
على النهر لما كثر القصب القنا
مكاثرة في كل نحر لها نحر
وقد شرقت أجرافه بدم العدى
إلى ان جرى العاصي وضحضاحه غمر
صدعتهم صدع الزجاجة لا يد
لجابرهما ما كل كسر له جبر
فلا يتحل من بعدها الفخر دائل
فمن بارز الابرنز كان له الفخر
ومن بز انطاكية من مليكها
أطاعته ألحاظ المؤلفة الخزر
أخوال الليث لولا غدره نزعته به
إلى الذئب إن الذئب شيمته الغدر

أتى رأسه ركضاً و غودر شلوه
وليس سوى عافى النسور له قبر
وقد كان في استبقائه لك منة
هي الفتك لو لم تغضب البيض والسمر

كما أهدت الاقدار للقمص اسره
وأسعد قرن من حواه لك الاسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه
فأوبقه الكفران عدواه والكفر
والقت بأيديها إليك حصونه
ولولم تجب طوعاً لجاء بها القسر
وأمت عزاز كاسمها بك عزة
تشق على النسر ين لو أنها الوكر
فسروا مالا الدنيا ضياء وبهجة
فبالافق الداجى إلى ذا السنافر
كأنى بهذا العزم لافل حده
وأقصاه بالأقصى وقد قضي الامر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا
وليس سوى جاري الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها
فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر
وصلت بمعراج النبي صوارم
مساجدها شفع وساجدها وتر
وإن يتيمم ساحل البحر مالكا
فلا عجب أن يملك الساحل البحر
سللت سيوفاً أكلت كل بلدة
بصاحبها حتى تخوفك البدر
إذا سار نور الدين في عزماته
فقولا ليل الافك قد طلع الفجر

ولو لم يسر في عسكر من جنوده
لكان له من نفسه عسكر مجر
ملك سميت شم المنابر باسمه
كما زهيت تهابه الأنجم الزهر
فيا كعبة ما زال في عرصاتها
مواسم حج لا يروّعها النفر
خلعت على الأيام من حلل العلى
ملابس من أعلامها الحمد والشكر
وتوجت ثغر الشام منك جلالة
تمنت لها بغداد لو أنها الثغر
فلا تفتخر مصر علينا بنيلها
فيمنالك نيل كل مصر بها مصر
رددت الجهاد الصعب سهلا سبيله
وياطا لما أمسى ومسلكه وعمر
وأطمعت في الأفرنج من كان بأسه
يخوف أن يعتاده منهم فكر
وأقحمت جرد الخيل أعلى حصونها
ولولاك لم يهجم على كافر كفر
ومن يدعي في قتلك الشرك شركة
إذا لم يكن عند القوا في له ذكر
هي القانتات الحافظات فروجها
فشاهدها عدل ورائقها سحر
ولو لم يكن في فضلها وكمالها
سوى أنها من بعد عمر الفتى عمر

وله من قصيدة يصف فيها وقائعها أولها:
أما وخیال زار ممّن أحبّه
لقد هاج من ذكره ما لا أغبه

إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا
ذكرت نسيما بالشغور مهيبه
في انفحات الشأم رفقا بمهجة
يحامى عليها مدن ف القلب صبه
فلا تسألن الصب أين فؤاده
فإن فؤاد المرء مع من يحبه
وفي شعب الاكوار من هو عالم
غداة استطار البرق من طار لبه
يشيم ثغور المزن تهمل كأنها
سنا بشر نور الدين تنهل سحبه
إذا ما سافى مبهم الخطب وجهه
تمزق عن بدر الدجنة حجه
تولد بين الغيث والليث والتقى
منافسة أي الثلاثة تربه
يعد مضياء في الطبى لا وضربه
بها قلل الاعداء ما السيف ضربه
مكين الحجى أرضى الزمان بنفسه
إلى الآن حتى لان وانقصاد صعبه
حمى قبة الاسلام بالخييل فاغتدت
وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها
فما انقشعت الا وللبلد جنبيه
كيوم الرها الورهاء والهام يانع
ملي برعي الهند وأنسى خصبه
وشهباء حاجتها وغى صرخديه
ثناها وليل الحرب ينقض شهبه
وعارم يوم بالعريمة فاغتدت
كوادي ثمود إذ رغافيه سقبه

وعاصي على العاصي بأرعن خاطب
دم الأفك حتى أنكح النصل خطبه
بأنّيب لما أكسب المال واثني
بصاحب أنطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين للسيف رأسه
وللرمح حتى توجّج الرأس قلبه
على حين للخطي في عوامل
يعاقبه خفض الحسام ونصبه
وقائع محمودية النصر لم تزل
غريباً بها عن موطن السيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده
وتفعل أفعال الكتائب كسبه
وحيث انتضته عزمة من قرابه
مضى وهو نصل والممالك قربه
إلى أن دعت ربه كل بلدة
فليس من الأمصار ما لا يريه
ولما ترى بالقمص عجب هوى به
على أم رأس البغي والغدر عجه
فأصبح في الحجلين ينكر خطوه
بعيد على الرجلين في السعي قربه
تعاقبه البشرى بأخذ حصونه
في أعانها ضرب البشائر ضربه
تجاني عزاز باسمه تلّ باشر
فيلعنه لعن الصريح وسبه
فإن يكن المقهور من ثل عرشه
فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه
فقل للملوك الخافقين نصيحة
كذا عن طريق الليث يزأر غلبه

وخلوا عن الافاق فالشرق شرقه
بحكم الردينيات والغرب غربه
ولا يعصم بالدرب طاع على القنا
فإن القنا في ثغرة النحر دربه
رخيب فضاء الحلم عن ذات قدره
إذا ضاق من صدر المملك رجه
عفو عن الجاني يكاد الذي جنى
بكربيه شوقا إلى العفو ذنبه
أمتخذ الاخلاص لله جنه
ومن يعتصم بالله فالله حسبه
أبوك استرّ الشأم بالسيف عنوة
وللروم بأس طالما غال خطبه
إذا ذب عن أضغاث دنياه مالك
فانت الذي عن حوزة الدين ذبه
رأيت اتباع الحق خير مغبة
فأفرجت عن رأي يسرك غبه
وأوضحت ما بين الفريقين سنة
بها عرف المربوب من هوربه
وبينت نور الدين ما كان يتغني
دليلا بأن الله من أنت حزبه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:
هيهات يعصم من أردت حذار
أنى ومن أوهاك الاقدار

ومنها:
طلعت عليك بجوسلين ذريعة
لا سحلا انشاهها ولا امرار

وسعادة ما زلت تمرى خلفها
فيشف وهو الناتق المدرار
فارتك ما يجني الوفي وفاؤه
وأرتبه كيف تحين الغدار
عود أمر على إبارك طلعه
فاحيل ذاك البر وهو بوار
ما زلت تنعم وهو يكفر عاتيا
والله يهدم ما بنى الكفار
حتى أتاح لقومه ما جره
لثمود من عقر الفصيل قذار
اسرى فأصبح في برائن اسره
لا زال يدمي ظفره الاظفار
يهب التلاد من البلاد وما حوت
إن الساحة للبحار بحار
يقظان يخشى الله في خلقه
لامترف لاه ولا جبار
نصب المراقب للعواقب ناظرا
فيهال ذلك تريا الأبرار
لا كالذين تعجلوا حسواتها
وتغلسوها بعد وهي خسار
درجوا وأدرج في ملف رفاتهم
سوءى تساءل ذكرها الآثار
والمرء من يطوي فينشر طيه
ما أودعته صدورها الأحيار
قل للأولى ناموا على ناماته
ما كل هبة بارح اعصار
لا تأمنوا في الله بطشة ثائر
لله ملء سريره اسرار

- ٧٧٠٧ -

صاف إذا كدر المعادن عادل
إن حاف حكام الملوك وجاروا.
أعلى أبوه له النجاد وشيد في
صهواتها مما ابتناه من نار
محمد والمحمود آثارا إذا
نظمت على جيد الدجى الأسمار
ذانت له الأيام صاغرة كما
دانست له ظله الأمصار

له من أخرى أولها:
ما الملك إلا حواك نجاده

يقول فيها:
وتدين حسده لمحكم آية
والفضل ما شهدت به حساده
شمس إذا ما الحرب زر جيوبها
حل المعاق قد كثره وطراده
ألوى ألحى الشريعة جهده
وأذل ناصية الضلال جهاده
صعق البرنس وقد تلالا برقه
وأطار ساكن جأشه أراحه
ولى وقد سلت فسلت ضعفه
زبر تلقى فودهن فؤاده
مستلها مستسلها لاعده
رد المنى عنه ولا استعداده
ولجوسلين احتشهن فاصبحت
نهيى لهن بلاده وتلاده
جاءت به بعد الشماس عوابس
قود يلين لعنفهن قياده

بـه تصيـد لك السـعـود وقلـمـا
ينـجـو بـخـير مـن أـردت مصـادـه
دانـى لـه قـينـاه أـدهـم كـلـمـا
غـنـاه طـار شـمـا تـه عـوـادـه
سـلـبت عـزـاز عـزـاء وبقـورس
مـحـجـوبـة فـر شـت لـه اقـتـادـه
وبـتل خـالـد يـوم تـل جـيـنـها
خـلـط الثـرى بـجـيـنـه اخـلـادـه
وغـدا يـا شـر تـل بـا شـر قـلـبـه
بـا حـرّ مـا حـل القـلـوب عـدـادـه
مـنـت أـمـانـيـه بـشـائـرك التـي
عـادـت لـهـن مـائـمـا أـعـيـادـه
وحـبـوت مـلـكـك مـن نـظـيـم ثـغـورـه
حـلـيـات تـايـه تـحـتـه أـجـيـادـه
لا يـخـد عـنـك فـانـمـا اصـلـاح مـن
يـخـشـى انـتـشـاط خـنـاقـه افسـادـه
أنـزـلـه حـيـث قـضـت لـه غـدـراتـه
واحـلـه طـغـيـانـه وعـنـادـه
فـي حـيـث لا يـأـوي لـه سـبـحـانـه
حـنـقـا و يـكـشـط جـلـدـه جـلـادـه
و ثـن هـدـمـت بـنـي الضـلـال بـهـدـمـه
وعـدـت عـبـادك عـنـوـة عـبـادـه
فـتـكـت بـه آيـات مـن لـحـمـد
ولـد يـنـه ا بـدـاؤـه وعـوـادـه
او انـشـط البـلـد الحـرام تـوـاء مـت
تـثـنـي عـلـيـه تـلـاعـه ووهـادـه
ولـوان مـنـبره أـطـاق تـكـلـمـا
نـطـقـت بـيـاهـر فـضـلـه اعـوـادـه

نام الخليفة واستطال لذببه
عن سديته واستطير رقاده
رجعت لك العز القديم سيوفه
مازان رونق مائه اغماده
من بعد مانع الصليب لحزبه
ورأيت زرع الملك حان حصاده
انى تميل الحادثات رواقه
ببها وابها العمد عماده

فصل

قال ابن الاثير : لما سار نور الدين إلى قلاع جوسلين ملك بعضا،
وأبقى بعضاً ، فاجتمعت الفرنج فالتقوا مع نور الدين بدلوک فهزمهم
واستولى على دلوک وغيرها، ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها:

هي الخيل خير عتاد الكريم
يحضر لله ماحضارها
ضغمت فأدررت أفواهها
وسرت فقلمت أظفارها
الام ولم تبق مم اغزو
ت قلوبا تكابد اذ عارها
أما في مفصل أي القرا
ع أن تضجع الحرب أوزارها
عسى أن يجمع لهذا الحما
م أن يتوكر أوكارها
وما يوم من غلته واحد
فتودعه اللسن أشعارها
وأي من المقاول مما فعلت
ولو شفع الفطراء كثارها

فكم اجلبت خلفك الجافخا
ت (٥٩) فصلصل فخرک فخارها
أعدت بعصرک هذا الانی
ق فتوح . النبى واعصارها
وكان مهاجرها تابعی
ک وانصار رأیک انصارها
فجددت اسـلام سلمها
وعمر جـددک عمارها
وما يوم انـبـ الاکتی
ک بل طال بالبوع اشبارها
وأيامک الغـر من بعده
يعید إلى الطی اغرارها
ولما هیبت ببصری سمکت
بأهباء خیلک أبصارها
ویوم علی الجون جـون السرا
ة عز فسعطها عارها
صدمت عریمتها صدمة
أذابت مع الماء أحجارها
وفي تبل باشر باشرتهم
بـزحف تسور أسوارها
وإن دالکتهم دلـوک فقد
شددت فصـدقت أخبارها
وشب التـدامر حتى طلعت
عليها فـولتک أدبارها
مشاهد مشهورة نممت
على صفحة الدهر اسطارها
یلـذا لانی تـرجیعها
ویستفسر السفـر أسفارها

بنيت لوفد المنى كعبة
تجير المعلق استارها
وملكت الاراضي مغبرة
تكدت تحدث أخبارها
فمازلت تدجن حتى محو
تدجاها وشعثت أنوارها
وصلت فأعززت مسكنها
وصلت فأذلت أبارها
وصغت حل من علا أحكمت
على عنق الدهر أزرارها

قال أبو يعلى : في رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفريه
بعسكر الأفرنج النازلين بازائه قريبا من تل باشر، وعظيم النكاية فيهم
والفتك بهم، وامتلات الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن
خالد الذي كان مضايقه ومنازله.

قال : وفي أيام من محرم وصل جماعة من حجاج العراق وخراسان :
المأخوذون في طريق الحج عند عودهم بجماعة من كفار العربان، وحكوا
مصيبه ما نزل مثلها بأحد في السنين الخالية، ويكون أبشع منها، وذكر
أنه كان في هذا الحاج من وجوه خراسان وأعيانها وفقهائها وعلمائها
وقضايتها وخواتين أمراء العساكر السلطانية والحرم العدد الكثير، والاموال
الجمه والامته الوافرة فأخذ جميع ذلك وقتل الأكثر، وسلم الاقل،
وهتكت النساء وسلبن وهلك من هلك بالجوع والعطش، فضاقت
الصدور لهذه النازلة فكسي العاري منهم وأطلق لهم ما استعانوا به على
عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق (ذلك تقدير العزيز
العليم) (٦٠).

فصل

قال: وكان مجاهد الدين بزان قد توجه إلى حصنه صرخد ليتفقد أحواله، فعرضت نفرة بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الاغراض والفساد، واقتضت الحال استدعاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يوسف صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه، و توجهوا ولم يتعرض لشيء من أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليها.

قال: ووردت الأخبار من مصر بالخلف المستمر بين وزيرها ابن مصال وبين الأمير المظفر ابن السلار، ووقع الحرب وسفك الدماء إلى أن أسفرت الحال عن قتل ابن مصال الوزير وانتصاب ابن السلار موضعه في الوزارة.

قال: وفيها في سابع عشر رجب توفي القاضي بهاء الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهاب الحنبلي، وكان إماما فاضلا مناظرا مستقلا مفتيا على مذهب الامامين أحمد وأبي حنيفة بحكم ما كان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدم، وكان يعرف اللسان الفارسي مع العربي، وهو حسن الحديث في الجدل والهزل، وكان له يوم مشهود ودفن في جوار أبيه وجده في مقابر الشهداء.

قال: وتوفي عقيب وفاته القاضي النقيب فخر الدولة أبو الحسين بن أبي الجن، وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته.

ودخلت سنة ست وأربعين

ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاودة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدحه ابن منير بقصيدة يحرّضه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماه وهو محاصر دمشق، وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها:

اخليفة الله الذي ضمننت له
تصديق واصف سرّة المنبر
لا المستطيل بمصر ظل قصوره
والمستطال إليه شقة صرصر
يانور دين الله وابن عماده
والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفربحد السيف دار أشائب
عقلوا جياذك عن بنات الاصفر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا
نارا تحش بهم غدا في المحشر
اذكروا بخلق حرها واستسعرت
لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا
ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سق الهدي نفس الذي اذّ
رع الضلال على أغر مشعر
قلده ما اهدي علي لرحب
فلقد تهكم في الخداع الخيري
ما الغش ممن أمه نصرانة
لم تحتن كـالغش من متنصر
اذكت لنا هذي العزائم لا خبت
ما غار من سنن الملوك الغبر

اثقأب اراء المعزز وخفق را
يات العزيزز ويظظة المستنصر
شمر فقدمدت إليك رقاها
لا يدرك الغايات غير مشمر
أولست من ملأ البسيطة عدله
واجتب بالمعروف أنف المنكر
حذب الاب البر الكبير ورأفة الـ
أم الحفيفة باليتيم الاصغر
يا هضبة الاسلام من يعصم بها
يؤمن ومن يتول عنها يكفر
كانوا على صلب الصليب سراقا
انبث بنيت به بكل مذكر
آثارهم نجس اذال المسجد الـ
أقصى فصن ما دنسوه وطهر
جار الخليل ومن بغزة هاشم
بلهامك المتدمشق المتمصر
بعرمرم صلمت وعاءه عرى
اسماع جيحون وسيف البربر
يفتر عن ملك الملوك منحل الـ
أنواء بل سعد السعود الأكبر
عن طاعن الفرسان غير مكذب
ومتهم الاحسان غير مكسدر
بدر الجحافل والمحافل فارس الآ
ساد في غاب الشوشيج الاسمر
ملك تساوى الناس في أوصافه
عذرا المقل وبان عجز المكثر
يا أيها الملك المنادي جوده
في سائر الآفاق هل من معسر

إن القصائد أصبحت أبكارها
في ظل ملكك غاليات الأمهر
إن كنت أحييت ابن حمدان لها
فانا الذي غبرت في وجه السري
ولأنت أكرم من أناس نؤموا
باسم ابن أوس واستخصوا البحري
ذلت لدولتك الرقاب ولا تسزل
أن تغز تغنم أو تقاتل تظفر

وكتب إليه من حماه أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من
صاحبها يقول:
أبوك أب لو كان للناس كلهم
أبا ورضوا وطاء النجوم لفندوا
ومامات حتى سد ثلمة ملكه
بك الله ترمي مارماه فتصرد
صدمت ابن ذي اللغدين فأنحل عقده
وكالسلك قد أمسى يحل ويعقد
يقلب خلف السجف عينا سخينة
ويكي بأخرى ذات شتر ويسهد
ولا غرو قد أبقي أبوه وجهه
له كل يوم ثوب عجز يجدد
فياراكبا أمارضت فبلغن
بيوتنا على جيرون بالذل تعمد
وقل لمبيد الدين وهو مجيره
بزعم له وجه الحقيقة أريد
حملت الصليب باغيا ونبذته
وثغرك مطووس يباب وأرد
وحاربك حزب الله والله ناصر
لنا صره ودينا أحمد أحمد

تنصرت حيناً والبلاء موكل
ولا بد من يوم به تنهـود
وأقسم ماذاق اليهـود بايليا
وموضعها من بختنصر أسود
كبعض الذي جرّعته فسرطته^(٦١)
وأيد فيه من عماك المؤيد
ولا يتبه عزل اليك موجه
وتصنيفه قتل عليك مؤيد
رماك بياقلا دمشق فلم تكن
سوى بقلة حمقاء بالحمق تحصد
وجالدت جلادا وأنت مؤنت
تذكرت والجلاد أدهى وأجلد
تطاولت لأنفس تسمى ولا أب
وراءك زحفا إنما أنت مقعد
امسعاة نور الدين تبغي ودونها
أسنة تبر والعوام مل تعصد
بمحمودا المحمود سيفا وساعدا
حملت لقد ناجتك صها مؤيد
وهل يستوي سارت أسد طاويا
ونشوان يعلو معصا ويؤيد
تنصرت أمابـل تمجست والدا
وعما فغرق الكفر فيك مردد
تخذت بنى الصـوفى أسرا وأسة
لكي يصلحوا ما في يديك فأفسدوا
لعمري لنعم العبد أنت تجيعه
مولى وتولييه هو أنا فيحمد
إليكم بنى العلات عن متشاوس
له الشام مرفا والعراق مرفد

ما مصر إلا بعض امصاره التي
إلى أمـره تسعى قباء وتحفـد
انيـوا إليه فهو أرحم قادر
له الصفح دين وأقبلوا النصـح ترشدوا
ولا ترشفوا نفس المؤيد إنه
عن الخير يـروي أو إلى المين يسند
وفرّوا إلى مولاكم والذي له
عليكم أياد وسمها ليس يجحد
ولا تكفـروه إنما أنتم لهم
ومنه ويوم عند حوران يشهد
غداة على الجولان جـول وللظبي
رعود فريص الموت منهم يرعد
ولما اكفـهـر اليوم وأربـد وجهه
وعوّز مرهون وفر مزبد
وأيقن من بين السديرو جاسم
بان الحرار السـودبـا الجرد تجرد
ردتهم على بصرى وصرخـد خيلـه
وقد أبصرت بصرى رداها وصرخـد
وطاروا تهز المرفعات طـلام
كما انصاع من اسد نعام مشرد
وليلة ألقى الشريك بالمرج بركه
وما زج نيران الوغى تتوقـد
رمى وأخوه مغرب الشمس دونكم
بمشرقها غضبان يعدو ويسئـد
فمذوردت ماء الارنـط مغذـة
أثارت بثـورا غلـة ليس تبرد
أياسيف شامتـه يد الملك صارما
فيهممـد إذ يسري ويسري فيهمـد

دمشق دمشق إنما القدس سرحة
ومركزها صرح عليها مـرد
حموها لكي يحموا وقد بلغ المدى
بهم أجل حتم وعمـر محدد
متى اناراء طائر الفتح صادحا
يرفرف في أرجائها ويغرد

وله من قصيدة أخرى:
ندرك بالغوطتين قد ضمنت
ربوتها ربعه ومقـرأها
أطلع لها الشمس من جبينك لم
تـرجسواها في النوم جفناها
فالخيل صور إلى تساهم سـهميـ
ها وملهي في بيت لـهاها
دولة من دانت البلاد له
وعمها ظلـه فأغـناها
لابسواها تليق بهجتها
ولا سواها تبغي رعاياها

قال أبو يعلى: وفي عاشر المحرم نزلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عذرا من عمل دمشق وما والاها ، وفي الغد قصد فريق وافر منهم ناحية السهم والنيرب وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشق، فلما خرج منها إليهم أسرع النذير إليهم فحذرهم وقد ظهر الكمين فانهزموا إلى البلد، وفي الغد نزل نور الدين بعسكره على عيون فاسريابين عذرا ودومة، وامتدوا إلى تلك الجهات ونزلوا من الغد في أراضي حجيرا وراوية في الخلق الكثير والجـم الغفير، وانبسطت أيدي المفسدين من العسكر الدمشقي والأوباش من أهل العيث والفساد في زرع الناس فحصدوها، وفي الثمار فأفـنوها بلا مانع ولادافع ، وتحرك السعر وانقطعت السابلة،

ووقع التأهب للحصار ووافت رسل نور الدين إلى ولاية البلد يقول: أنا ما أؤثر إلا صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرت معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد، فلم يعد الجواب إليه بما يرضاه فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد.

قلت: هو الذي يسمى في زماننا بمقبرة المعتمد بين مسجد القدم ومسجد فلوس. قال: وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمي العساكر فيما سلف من السنين، وأهمل الزحف إلى البلد اشفاقاً من قتل النفوس ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة، والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة، فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي فذايا وحلقبتين والخامسين المصابقة للبلد، وما عرف في قديم الزمان من أقدم على الدنو منها، ثم رحل في العشرين من صفر إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الأفرنج من البلد لقوة عزمه على لقائهم، وصار العسكر النوري في عدد لا يحصى، وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لا يأذن لأحد من عسكره في التسرع والظهور، ولا يعودون إلا خاسرين مغلولين، وأقام على هذه الصورة، ثم رحل إلى ناحية الأعوج لقرب عسكر الأفرنج وعزمهم على قصده، واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبداني استجراراً لهم وأفرق من عسكره فريقاً يناهز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدمين ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الأفرنج ولقائهم وترقباً لوصولهم وخروج العسكر الدمشقي إليهم واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم، واتفق أن عسكر الأفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأول ودخل منهم خلق كثير

إلى البلد لقضاء حوائجهم، وخرج مجير الدين ومؤيد الدين في خواصهما وجماعة وافرة من الرعية واجتمعوا بملكهم وخواصه وما صادفوا عنده شيئاً مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوة، وتقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله، ثم رحل عسكر الأفرنج إلى رأس الماء، ولم يتهياً خروج العسكر الدمشقي إليهم لعجزهم واختلافهم، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف إليهم من العرب في خلق كثير ناحية الأفرنج للايقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الأفرنج إلى لجاة حوران للاعتصام بها، ونمى الخبر إلى نور الدين فرحل ونزل على عين الجر من البقاع عائداً إلى دمشق، وطالبا قصد الفرنج والعسكر الدمشقي، وكان الأفرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها، فلم يتهياً ذلك لهم وظهر إليهم سرخاك واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الأفرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يلتمسون باقي القطيعة المبدولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه مارحل عنكم.

قال أبو يعلى: وفي هذه الايام ورد الخبر بوصول الأسطول المصري إلى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة من العدة، وذكر أن عدة مراكبة سبعون مركبا حربية مشحنة بالرجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد انفق عليه فيما حكي وقرب ثلاثمائة ألف دينار. وقرب من يافا من ثغور الفرنج فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به، واستولوا على عدة وافرة من مراكب الروم والأفرنج، ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا من حجاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وببيروت وطرابلس، وفعلوا في الكل مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الاسطول المذكور لإعانتته على تدويخ الفرنجية، فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده

إليها لمضايقتها، وحدث نفسه بملكها لعلمه بضعفها وميل الأجناد والرعية إليه، وأشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفاً مقاتلة، ثم رحل ونزل بالدلمية من عمل البقاع، ثم نزل بأرض كوكبا غربي داريا ثم نزل بأرض داريا إلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الاجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلا اليسير ممن كان يخرج أولاً، ثم تقدّم ونزل القطيعة وما والاها ودنا منها بحيث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحف ولا شدّ في محاربة تخرجاً من قتل المسلمين، وقال: لاجابة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً وأنا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلم نائبه الامير حسان المنبجي مدينة تل باشر بالأمان في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وورد مع المبشر جماعة من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال وترددت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقتراحات، وتردد فيها الفقيه برهان الدين على البلخي والأمير أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرّ الحال على قبول الشروط المقترحة، ووقعت الايمان من الجهتين على ذلك والرضى به في عاشر ربيع الآخرة، ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بصرى للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب لأن واليها سرخاك كان قد شاع عصيانه وخلافه ومال إلى الأفرنج فاعتصد بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه وأنهمض إليه فريقاً وافراً من عسكره.

قلت: ولابن منير في نور الدين يذكر وقعة الجولان وغيرها قصيدة أولها:

مابرقـت بيضك في غمامها

إلا وغيث الدين لا بتسامها

يقول فيها:

محمود المحمود جـداً وجـداً
أرخص جلد الأرض حكم عامها
ملك أزل الروم عن صلبانها
دفاعه وكب من أصنامها
جال على الجولان أمس جولة
صفرت الأدحى من نعامها
والجون قد جرعها أجونه
وفل مشحوذاً من اعتزامها
وشد في القد له مليكها
قود عتود القوط في شبامها
وفي الرها صابت له سحابة
صاروا جفاء خف في التطامها
وهب في هاب له عواصف
تجهمتها الهف من جهامها
وكفر لائثاً لاث في جبينها
لثم ظبي أتت على لثامها
وقايع يرفض تحت وقعها
نظم الثريا في فضا مصامها
فساعة البيض إذا عدها
سوط عذاب صب في أيامها
واعجب العصب الشك التي
لم يعصب الرشده على أحلامها
حكممة استواؤها في غيها
في نقض ما أحصد من أبرامها
مظفر الرايات والرأي إذا الـ
حرب مشيت تعثر في خطامها
عدت به حد العلاء همم
هن النجوم أو نواصي هامها

جلت له الدنيا على زبرجها (٦٢)
عفو افلم يلو على حطامها
رأته وهو الليث يدمي ظفره
انفذ في المشكل من حكامها
فتوَّجته العز في مرتبة
تمنطق الجوزاء في نظامها
غضبان لاسلام لا يغيظه اسـ
تسلامها للقسر من اسلامها
خط على مثل أب طاعت له الـ
آفاق واستشرف لاغتشامها
تصرف الدنيا على إيثاره
عراقها مستردفا بشامها
لو لم يكن دون منى فات المنى
واقعد الفائز من قوامها
وامتك ماء مكة روضح
يقصر باع الذهر عن فطامها
وصار كالجمر الجمار وخلا
من أهله الأشرف من مقامها
ودونها لازلت ترقى في حمى
من مؤلم الارداء أو لمامها
تلبس بيت الله وشي يمن
يقر آياتك من أعلامها
فإنما الدين رحي قطبتها
وبازل مكننت من زمامها
امت بنا الأموال منك كعبة
سلم الليالي آية استسلامها
وارشفتنا بك ثغر نعمة
لانسأل الله سوى دوامها

وقال أيضا يمدحه:

بجـدك اصحـب الجـد الحـزون
واطلـع فجـره الفـتح المـبين
وفي كـنفيـك سـولت الـليـالي
وفـارق طـبعه الـزمن الخـزون
ومـنك تـعلم القـطـع المـواضـي
وقـد زبـنت بـها الحـرب الـزبـون
وأنت السـيف لم تـمسسه نـار
ولا شـحذت مـضاربـه القـيـون
تـرقـرق فـوق صـفـحـته الـامـاني
ويـقـطـر مـن غـرارـيه المـنـون
وقـبلـك مـا سـمـعت بـذي فـقـنـار
يـثـر الفـقـر كـان ولا يـكـون
ولا غـيـث سـما وتـه سـريـر
ولا لـيـث وسـادـته عـريـن
ولا قـمر لـه الـهـيـجاء هـال
ولا تـاج لـه الـسـدنيـا جـين
جـبـلت نـدى وعـفواً وانتقـاماً
ومـاء كـل مـجـبـول وطين
ومـلكك عـمر الأـقـطار قـطـرا
فأـمر عـت الأـواعـث والخـزون
تـلا لـأ تـحتـه غـرر الـليـالي
إذ الـايـام عـند سـواك جـون
وأنت أقـمت للـجـدوى مـنـارا
يـبين لـشـائـميه ولا يـبين
وعـندك مـشـرب النـعمى زلال
إذ اعـبقت مـشـاربـها الأـجـون
تـحـكم في عـطـائـك كـل عـاط
وقـد شـيدت مـن المـنع الحـصـون

لقد أشعرت دين الله عزاً
تتيه له المشاعر والحجون
وقام بنصره والناس فوضى
قوي منك في الجلى أمين
رجعت ملوكهم وهم خيوف
أسير في صفادك أو كنون
فبرنست البرنس لقاع خسف
وجرع مرّ جوسك جوسلين
إذا ما الفعل علّ تلاه حذف
يتباح لمتتهاه أو سكون
غنوا حتى غزوتهم فغنى الصـ
لدى في أرضهم حفف القطين
وكم عبر الصليب بهم صليبا
فرّدته قناك وفيه لين
وما خطرت بدار الشوك إلا
هوى الناقوس وارتفع الأذنين
ملأت عظام ساحهم عظاما
فكل ملال قوك به جرين
بأنسب والقنا تجري نجيعا
كان عيون أكعبها عيون
وبين حرار صرخ دذبـن حرا
لله في كل حبجبة كمين
وفين من العريمة في عرام
لله في جـونها الأقصى وجون
وكم حرم الحارم غادرتـه
ودارتـه لمنسفهـا دارين
وفي شعراء قورس صغن شعرا
تدار على غرار يه اللجون

وقائع صرن في صنعاء طيرا
يوقعها على عدن عدن
نالك أب إذا عد انتسابا
تراقى مصعدا والناس دون
شالا كان أملاك البرايا
وقد قيسوا به وهو اليمين
قضى وقضاؤه في الأرض حتم
فطاعة أهلها البنية دين
لهذا اليوم تنتخب القوا في
ويذخر نفسه الدر المصون
ونحن أحق منك بأن نهني
إذا قررت برؤيتك العيون
سلمت لنا فإننا كل صعب
نوازيه بأن تبقى يهون
ترابطنا بعقوتك التهاني
ويغبطنا بدولتك القرون

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديار مصر بأن أهل دمياط حدث
فيهم فناء ما عهد مثله في حديث ولا قديم بحيث أحصي المفقود منهم
في سنة خمس وأربعين فبلغ سبعة آلاف شخص، وفي سنة ست وأربعين
مثلهم، فصار الجميع أربعة عشر ألفاً، وخلت دور كثيرة من أهلها،
وبقيت مغلقة لساكن فيها ولا طالب لها.

وفيها في ثاني جمادى الآخرة توفي القاضي السديد الخطيب أبو الحسين
ابن أبي الحديد خطيب دمشق، وكان خطيباً بليغاً صيتاً عفيفاً، ولم يكن

له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبى الحسن الفضل ولد ولده، وهو حدث السن، فنصب مكانه ، وخطب وصلى بالناس واستمر الأمر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة ، اهتزت الأرض لها ثلاث رجفات في أعمال بصرى وحوران وما ولاها من سائر الجهات، وهدمت عدّة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها، ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه، ووصل إليها ودخل نور الدين صاحبها، فأكرمه وبالغ في الجميل في حقه وقرّر معه قرارات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:
وفت لك الدنيا ببيعادهـا
بأذلة افلاذ أكبادهاـا
وأوفدت غرّ سلاطينهاـا
عليك في همة انجادهـا
تبغى سناء أقصدت قصدهـا
طائعة طاعة أجنادهـا
خاضعة تعتدّ أعمارهاـا
يوم التلاقي يوم ميلادهـا
شامت دمشق بك برق العلى
فأرسلت أصدق رؤادهـا
رأتك نور الدين نار الهدى
قد أشرق الأفق بإيقادهـا
فيممت منك حيامزنة
بيض الايادي ورد رؤادهـا

فاسأل مجير الدين عن خبرة
أوردها محمود إيرادها
تبوأّت من عزها قبلة
سمر القنا أطناب أوتادها
تنافس الناس على دولّة
فت بها أعين حسادها
يغدو المعادي كالموالي لها
فوالها إن شئت أوعادها
يا ملكا يزهي بأسائه
منابر تسمو بأعوادها
وتأخذ الاسماع أوصافه
عن جمع الدنيا وأعيادها
كم للمعالي فيك من رغبة
تفنى الأمانى دون تعدادها
لك المساعي الغريبا جمعا
من طرفيها بين أضدادها
يغني الورى أفرس فرسانها
وفي التقى أزهد زهادها
فانت نسكا غيث أبدا لها
وانت فتكاليث أسادها
في أمّة أنت حمى دينها
حيناً وحيناً شمس عبادها
يطوى بك العمر إلى غاية
حسبك تقوى الله من زادها
هذا وكم من سنة بدعة
أعدمتها من بعد إيجادها
مآثر لو عدمت راويها
تكفل النظم بأسنادها

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعض التركمان على ظاهر بانياس، فخرج إليهم واليها من الأفرنج في أصحابه، وظهر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا.

وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحية من البقاع وأغاروا، فأنهض إليهم والي بعلبك رجاله فلحقوهم وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتدركة ما ثبطهم، فاستخلصوا منهم الغنيمة.

قلت: والي بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف.

قال ابن أبي طي: في سنة ست وأربعين أغار التركمان على بانياس فخرج أهل بانياس من الفرنج استنقذوا ما أخذوه، فعاد التركمان عليهم فكسروهم، واتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج، فأنفذ عسكرياً إلى التركمان استعاد منهم ما أخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنج فجهشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغارة على البقاع، والناس غافلون، فامتلات أيديهم من الغنائم والأسارى، واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب، وهو في بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه، فقدم عليهم ولده شمس الدولة، فخرج وأوقع بالفرنج، واتفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم، فهلك أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة، وخلص من كان عند الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السنة فارق صلاح الدين والده وصار إلى خدمة عمه أسد الدين بحلب، فقدمه بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً.

قال أبو يعلى: وفي ثاني شوال، وهو الثاني من شباط وافت قبيل

الظهر زلزلة اهتزت لها الأرض ثلاث هزات هائلة، وتحركت الدور والجدران ثم سكنت.

قلت: وفي هذه السنة في غرة جمادى الأولى كتب أحمد بن منير من حماء إلى نور الدين قصيدة يهينه بوصول الخلع إليه من بغداد من عند الخليفة ، على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، ويصف الفرس الأصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي أولها:

لعلائك التأييد والتأييل
ولملكك التأييد والتكميل
أبدأتهم وتقتفي فتنا ما
عزالورى إدراكه وتنييل
إما كتاب يستقل به الكتا
ئب أورسول للنجاح رسييل
لك من أبي سعد زعيم سعادة
فمن تفاعل فيك ليس يفيل (٦٣)
نعم الحسام جلوته وبلوته
يرضيك حين يصل ثم يصل
سهم تعود في الكنانة عودة
ويقصر المطلبوب وهو طويل
سدّدته فمضى وقرطس صادرا
كالنجم لا وهل ولا تهليل
فتنا القلوب إلى ولائك حوّل
منه بما يجنى رضاك كفييل
وأقام ينشر في العراق ودجلة
أيأتأؤها لمصر النييل
وكسالك من رأي الخليفة جبة
لا النقص يوهيها ولا التقليل
كنت الشريف أفضت في تشريفه
ماء عليه من سنالك دليل

أليوسف لما طلعت مقرطقا
طمشت حصان واستخف أبيل
أم عن سليمان يفرج ضاحكا
سجف الرواق وضعضع الكيول^(٦٤)
وملك في السرج أم ملك سطت
لبهائه عقل وتاه عقول
وبرزت في لبس الخلافة كاهلا
لجلاله في حلل الدجى التهليل
خلع خلعت على القلوب مسرة
سدكاتها^(٦٥) التعظيم والتبجيل
نشرت نضارا جامداً أعلامها
وتكاد تجري رقعة وتسيل
لقضى لها ان لا عديل لفخرها
رب براك فماتلاك عديل
أنت المهند من دسلته العلى
لم يخل من مهج عليه تسيل
مذهز قائمه الامام تألفت
غرر شدخن الملكه وحجول
واليست دولته فتته بدولة
متكلل بصعيدها الاكليل
ونصرته فحلاك أبيض دونه
صرف الزمان إذا استكل كليل
قلدته وكلاكما متلهذم
عضب فزان المغمد المسلول
وجبارك بك حين قري زحفه الـ
قرآن واستخذى له الانجيل
بأقب أصفر مشرف الهادي له التـ
حجيل لـون واللم تحجيل

قسيم الدجى بين الغدائر والشوى
واعتام رونقه الاصيل اصيل
وتقاسم الراؤه تحتك أنه
حي زوم مصرف عطفه جبريل
تختال في حبك الحلى غيلا
إن الشوامخ للبدور خيول
مرخى الذوائب كالعروس يزينه
طرف باطراف الرماح كحيل
تتصاعق النعرات تحت لبانه
إن شبت زفروا ستجش صهيل
لم يجب مثلك مثله مهـ دولم
يشلل على برق سواه شليل (٦٦)

وأنشده في هذه السنة أيضا بحمص قصيدة منها:
الدهر أنت ودارك الدنيا ومن
في العد بعده مؤمل معدود
وأزمة الاقدار طوع يدك والـ
أيام جنـدك والانسام عبيد
فت الورى وعقدت ناصية المدى
بمذمر الشعرى فأين تريد
تال أباك فهل سليمان يرى
في الدست مهـ دملكه داود
جلى وسدت مصليا لا يرفع الـ
معدوم ما لم يشفع الموجدود
لم يخترم جـ ذنـاك ولا أب
إن النباهة في الخليف خلود
شمخت منارك في اليفاع وأمها
من لم يسد فأرته كيف يسود

وهبيت لاسلام وهو مصوَّح
فاهتـز هضاب ورق نجود
وفتأت جمة صالمية بصيلم
نصع الاجنة يومها المشهود
خطمتهم فوق الخطيم لوافح
نفس الارين لوأرهن برود^(٦٧)
ورموا على الجولان منك بجولة
توئيد هانسر الضلال وتويد
ولحاظامهم بعرقه عارق
مازلت تمخض جوة فيجود
وشللت بالسروج السروج وفوقها
زرع لمحصده الرماح حصيد
وعلى عزاز عنوا وثل عروشهم
ملك مقيد من عصاه مقيد
وبتل باشر باشوك فعافسوا
أهب الاساود حشوهن أسود
أودوا كما أودى بعاد غيها
زعاوا كما استغوى الفصيل ثمود
إن ألوا عقرافانك صالح
أو ألوا غدرافانك هود
وزعتهم فبكل مهبط تلعة
خدب به من وازع أخدود
وعصبتهم بعصائب ملء الملا
شتى وإن خل البسالة عود
أثارها محمود وأثارها
مشهود وشعارها عمود
لبست من اسمك في الكريمة ملبسا
يبلي جديد الدهر وهو جديد

قصيرة الأجال طوّل باعها
بوع يسامى هامها وقدود
مطرورة الأسلاب مذكمتها
تساه الهدى وتبخر التوحيّد
أشرعتها فاعلى شريعة أحمد
مما جتته بوارق وعقود
ولكم نثرت نظمها في موقف
تغريد صالى حره التغريد
يجلسناك ظلامه ويحل ما
عقدت قنائه لسواؤك المعقود
في هبة زحم السماء رواقها
والارض ترجف تحته وتعيد
ضربت نعيمها فكأن كما تها
أوتاده القصوى وأنت عمود
في كل يوم من فتوحك صادق
هزج الغناء وطائر غريد
تهدي لعانة كاسه فرغانة
وتسيغ زبدة ماشداه زبيد
ففرار سيفك للاحابش محبس
ومثار نقعك للصعيد صعيد
لا تعد من هذا المقلد أمه
ملقى إليه لرعيها الاقليد
الورد قروا المسارح رجبنة
والرفد مدّ والظلال مديد
والعيش أبلج مشرق القسيات والـ
أشجار غروا الاصل غيد
والملك مدود الرواق منور الـ
أفاق وضياء المنى محسود

في دولة مذهب نشر ربيعها
نشر الرفات وأثمر الجلمود
محمودة الأثار محمودة
كل المواسم عندها تعيد

وقال يهنيه بليلة الميلاد ويصف النازلين في الجبل من قلعة حلب
بقصيدة منها:

هيت روزى ذراك صومك والـ
ميلاد جاء والسعد في نسق
فذاك انحلت فيه كل يد
وذاك أخلت فيه كل تقى
وجه كصدر الحسام تصبولة الـ
عين وينقد القلب من فرق
ومقللة شوقها ليقظتها
شوق لحسادها إلى الارق
ومرتقى تعجب السماء له
إذا استطالت إليه كيف رقى
توجت شهباءها بمشرقه
مشرقة شهباءها على الافق
جوتهادى منه كواكبها
طرفه طرف رجوم مسترق
فوارس تذهل الفوارس إن
تهافت من ارشاقها الرشق
من راكض في الهواء أهوى
ومن الفتاح مجرّ من تحته لبق
شاو من الخصر لو تحاوله الـ
خضر لزلت عن موطىء زلق
يقول من دينه الفروسة ما
لاقك الا ضرب من الالق

- ٧٧٣٦ -

بـدائع تغـبـط السـماء بها الأر
ض وتذكـي الـاشـفاق في الشـفق
في دولـة جمـعت اياها
مـن بـدد الحـسن كل مـفـترق
تـذر أـطـواقها على ملك
مـكتـفـل رزق كل مـرـتـفـق
مـحمـود اسـما وميسـا ونـدى
واعـتـصـب الـدم كل مـرـتـفـق
طـبق طـوفـانه فـلـست تـرى
إلا مـغيـثا مـشـفـف على غـرق
يا بـحـر لا خـلق يـدـعي شـبـها
فـات المـدى ما حـويت مـن خـلق
مـلـك هـذا الـذي تـملأه
صـبـاه يـجـري والـدمـر في طـلق

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرم بنزل نور الدين على حصن انطرسوس في عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الأفرنج، وطلب الباكون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه، وملك عدّة من الحصون بالسبي والسيوف والإخرا ب والإحراق والأمان.

قال: وورد أيضا ظفر رجال عسقلان بالأفرنج المجاورين لهم بغزة، بحيث هلك منهم العدد الكثير، وانهمز الباكون. قلت: وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحموره، وعوده عنهما فذكر قصيدة منها:

أبدأ تباش وجهه غزوك ضاحكا
وتؤوب منه مؤيدا منصورا
تدني لك الأمل البعيد سواهم
محقت اهلتها وكن بدورا
مثل السهام لو ابتغى ذوأربع
في الجؤ مطلبه الكـن طـورا
نبذت علائقها بحمص واعلقت
سحرا بمعرق عرقه الأظفورا
وغدون صافيتا للاح شوارها
قد اتلعت عتق اليك مشيرا
القلب أنت فإن تعامى عن هدى
عضوا هاب به فعاد بصيرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهم
يغري يياض أديمها الديجورا
أين الذبال من الغزالة أشرقت
وجهها وطبقت البسيطة نورا

غضبان أقسم لا يشيم حسامه
والأرض تحمّل في الكفـور كـفـورا
غسل العواصم أمس من أدراهم
واليوم ردّ به السواحل بـورا
لم يبق بين الحولتين وأمـد
وترا المظطغن ولا موتـورا
أخلى ديار الشرك من أوثانها
حتى غداث الوثهن نكيرا
رفع القصور على نضائدها هم
من بعد ما جعل القصور قبورا
بشواحب الالياط تقطو في الظلا
مقطا وتهوى في الصبحا نشورا
غادرت أنطرسوس كالطرس انمحي
رسا وحر ردعها يحمـورا
وهي الزناد لفتنة كانت على الـ
اسلام أحكم كسره اكسيرا
هتمت طرابلسا فاصبح ثغرها الـ
بسام من عز الثغور ثغيرا
أقليدها كانت وقد انطيته
واسأل به من دهنه خيرا
إن الأولى امنوا وقاعك بعدها
غروا وقد ركبووا الاغر غرورا
الق العصاف من أطاع ومن عصى
منهم ودمر أرضهم تدميرا
لايلهم إن قد مننت وشنها
شعواء تصلي الكافر ين سعيرا
باكر بركننا تنسف أسها
والخيل صور كي تزيرك صورا

وتريك لامعة التريك بساحة الـ
أقصى مطهره لها تطهيرا
أولست من قوم إذا هزوا القنا
فتلوا معاصمهم لها تسويرا
وإذا هم خطبوا اليراع عزيمة
ساقوا الشفار على المهار مهورا
لقى قسيهاهم إليك أزمة الـ
ملك المطيل على السهات أثيرا
ضحكت لك الأيام واكتأب العدا
قلقة فجئت مبشرا ونذيرا
لاملك الاملك محمود الذي
تخذ الكتاب مظاهرا أو وزيرا
تمشي وراء حدوده أحكامه
تأتمهن فيحكم التقديرا
يقظان ينشر عدله في دولة
جاءت لمطوى السباح نشورا
خلف الخلائف قائما عنهم بما
عيوابه ألوى الدغورا
البر والمعصوم والمهدي والـ
مأمون والسفاح والمنصورا
بشروا به فعهدهم وعهادهم
يمتحن تحت لوائه منشورا

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة أولها:

المجد ما ادعت ثراك مضابه
وتثقتك شعوبه وشعابه
ملك تكنف دين أحمد كنهه
فأضاء نيره وصاب شهابه

فالعـدل حـيـث تصـرفـت احـكامـه
والأمن حـيـث تصـرمـت أسـرابـه
متهاـلـل والموت في نـبـراتـه
يرجى ويرهب خـوفـه وعقـابـه
عقد اللـواء وسار يـقـدمـه وما
حلت عقـود تـمـيـمـها أـتـرابـه
أسـد فـرائـسـه الفـوارس والظبا
أظفـاره والسـمـهـريـة غـابـه
طـبع الحـديـد فـكان مـنـه جـنـانـه
وسنـانـه وإهـابـه وئـيابـه
ويـهـش إن كـبـت الـوجـوه كـأنـها
أعداؤه تـحـت الـوغي احـبابـه
نـشـرت بـمـحمـد وشر يـعـزة أحمـد
وأرى الصـحـابة ما احتـذاه صـحـابـه
ما غاب اصـلـح هاشـم فـيـها ولا الـ
فـاروق بـاء بـخطبـه خطـابـه
أبنـاء قـلـيـة قـائـمـون بـنـصره
إن اجـلـبت مـن قـاسـط أحـزابـه
صـبـحـوا مـحـلـقة الـبرنـس بحـالق
حـرـش الضـباب مـن القـلوب ضـبابـه
ما زال يـغـلب مـن بـغـاه ضـلالـه
حـتى اتـيـح مـن الـهـدى غـلابـه
مـلقى بـوحـش الـاصـر مـن تـزـيـلت
آراؤه وتـزايـلت آلا بـه
دون الأرنـط سـخـت بـه نـجـداتـه
ونـجـاده وقـرابـه وقـرابـه
سـلبـته ذرة تـاجـه يـد ضـيـغم
لم تـنـجـه مـن بـأسـه اسـلابـه

واتته تجلب جوسلين جنائب
 هبت فقل إلى القتال هبابه
 اسرته لا منعته سراه وغره
 بالقاع إن رام الورد سراه
 يمشي فتسمعه قعاقع قيده
 هزجا تقيء دماله أندابه
 لا تل باشره ولا كيسونه
 صدت منى عنه ولا عتابه
 ضمننت شقاوته سعادة صافح
 غطى على أعناته عتابه
 ما زال يغدر ثم يعذر قادرا
 حتى أتاه بجامح أصحابه
 قصر الأماني إن يملا عصره
 أسلام مضروبا عليه حجابه
 مجر يجر إلى الغنائم قباه
 وحى يزار على الفتوح قباه

وأنشده بحلب في شوال من هذه السنة قصيدة منها:
 لقد أوطأت دين الله عزاء
 أديم الشعرين له رغام
 دعاك وقد تناوشت الرزايا
 له أهب يوزعها العظام
 فقامت بنصره والناس فوضى
 قيام ذم ما اقترفت فقام
 جذبت بضبعه من قعر يرم
 له من فوق مقسمه التطام
 وملت على معاقلهم فخرت
 ولأ مثل ما انتقض النظام

بصر خـد والخطيـم وفي عـزاز
وقائع هـز مشهـدها الانام
ولم يعترف ويشـم لأمسـى
وأصبح لاعـراق ولا شـام
صبيت على الصليب صليب بأس
قـواه تحت كلـله حطـام
ويوم بالعريـمة كان حتفا
على الاشرـاك أمة العـرام
لقـوك كـأن ما سلـوه شـيح
وما اعتقلـوه مـن خـور ثـام
وهاب وقـورس ويكفـر لاثـا
ذممت وأنـت للجلـي ذمـام
صدمتهم بأرـعن مرجـحن
كـان مطـارا أنسرـه غـام
وأية ليلـة لم تـلف فيـها
لهم طيفـا يـروع بـه مـنام
بنور الدين أنشـر كل عدل
تعفت في الثـرى مـنه الرـمام
وعاد الحق بعـد كلال حـد
حمى مـن أن تـراع لـه سـوام
تألق عدله وذكـت سـطاه
فلا حـيف يخاف ولا اهـتضـام
بقاؤك خير مـا يـرجـوه راج
وأنفـع مـا يـبلـ به أوام

فصل

وفي هذه السنة ولد بحمص لنور الدين ابن سياه أحمد وهناه ابن منير
في بعض قصائده، ثم توفي بدمشق وقبره خلف قبر معاوية رضي الله

عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصغير، وقصيدة ابن منير قد تقدّم
بعضها في أول الكتاب ومنها في ذكر المولود:
توالى الأعياد لأزلفت لها

تبلي دياييج البقاء وتجد
الفطر والميلاد والمولد
قابله بدر التمام لسجد
ثلاثة تعرب عن ثلاثة
لمثلها يذكر حمدا من حمد
فتح مبين وطلاب مدرك
ودولة ماتت هي إلى أمد

وله من أخرى يقول:

وجئت بأحمد فملاأت حمدا
موارد كان معذبها عذابا
تهلل وجه ملكك يوم أهدت
قوابله لك الملك اللبابا
شبهك لا يغادر منك شيئا
سنا وحياء وبذلا واستلابا
قسيم الحمد إلا أن حرفا
من اسمك زاد للمعنى نابا
ألا لله يوم فرّ عنه
وركب نص بالبشرى الركابا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد
الدين الوزير إلى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصرا لسرخاك واليه
لمخالفته وجوره، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته،
فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك فقال له: هذا المكان يحكمك وأنا

فيه وال من قبلك، وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه ويلقى مجير الدين بما يجب له، فخرج في أصحابه ومعه المفاتيح وأخلى الحصن من الرجال ودخل إليه في خواصه وسرّ بذلك وتعجب من فعل مجاهد الدين وشكره على ذلك، وعاد إلى نعيمه على بصرى وحاربها عدّة أيام إلى أن استقرّ الصلح والدخول فيها أراد، وعاد إلى دمشق.

وفيها في شوال توفي الأمير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن المحسن ابن الملحي، ودفن في مقابر الكهف، وكان فيه أدب وافر وكتابة حسنة ونظم جيد، وتقدّم والده في حلب في التدبير والسياسة وعرض الاجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان، وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاذ الجبل، وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاص بك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه ولم يمهل غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاص بك أن يقبض عليه أيضا فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية، وحيث يطلب السلطنة لنفسه، فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده وسار إليه وهو بهمدان واجتمع به وخدمه خاص بك خدمة عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه ففترقوا واستقرّ محمد وثبتت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها، وكان قتل خاص بك ستة ثمان وأربعين، وبقي مطروحا حتى أكلته الكلاب، وكان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركمان، فخدم السلطان، فمال إليه وقدمه حتى فاق سائر الأمراء واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الوزير يحيى بن هبيرة في كتاب الافصاح أنه لما تناول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأسأؤوا الأدب ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة اتفق الرأي على الدعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول الله صلى الله وسلم على رعل وذكوان شهراً فابتدأ هو والخليفة سرا كل واحد في موضعه يدعو سحرا من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة، واستمر الأمر على ذلك كل ليلة، فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة كان موت مسعود على سريره لم يزد عن الشهر يوماً ولا ينقص يوماً، ووصل القصد بذلك من همذان إلى بغداد في ستة أيام، فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم فتبارك الله رب العلمين، مجيب دعوة الداعين.

قال: وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول: لأدل على وجود موجود أعظم من أن يدعى فيجيب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج خذلهم الله عسقلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قال الرئيس أبو يعلى التميمي: وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين بقوة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الأعمال والبلدان للغزو في احزاب الشرك والطغيان، ولنصرة أهل عسقلان على الأفرنج النازلين عليها وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخدول، وهم في الجمع الكثير، واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعااضد على الجهاد في ثالث عشر محرم، واجتمع معه في ناحية الشمال وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بفليس بالسيف، وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الأفرنج والأرمن، وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير، ونهضوا طالين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته، وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور الدين ففضى الله تعالى بالخلف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فأجفلوا عنها من غير طارق من الأفرنج طرقتهم، ولاعسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرقوا وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأول، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان، ففويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال، وظفروا بعدة وافرة من مراكب الفرنج في

البحر، وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها والزحف بالبرج إليهم، واستمر ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها، فهدموه وهجموا البلد وقتل من الفريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان فأجيبوا إليه وخرج من أمكنه الخروج في البر والبحر إلى ناحية مصر وغيرها، وقيل إن في هذا الثغر المفتوح من العدد الحربية والاموال والميرة والغلال ما لا يحصر فيذكر، ولما شاع هذا الخبر في الأقطار نساء سماعه، وضاعت الصدور وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله، فسبحان من لا يرذ نافرذ قضائه، ولا يدفع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه.

فصل

قال: وعرض بين الرئيس ابن الصوفي وبين أخويه عز الدولة وزين الدولة مشاحنات ومشاجرات اقتضت المساعدة إلى مجير الدين في جهادى الأولى، فأنفذ مجير الدين إلى الرئيس يستدعيه للإصلاح بينهم في القلعة فامتنع من ذلك وجلس في داره، وهمّ بالتحصن عنه بأحداث البلد والغوغاء وآلت الحال إلى تمكن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرر بينهما إخراج الرئيس من البلد وجماعة إلى حصن صرخد مع مجاهد الدين بزبان واليه، بعد أن قرر له بقاء داره وبستانه وما يخصه ويخص أصحابه، وتقلد أخوه زين الدولة مكانه وأمر ونهى ونفذ الأشغال على عادته في العجز والتقصير وسوء الأفعال، والتماس الرشاش على أقل الأعمال، ورأى مجير الدين عقيب ذلك التوصل إلى بعلبك لتطبيب نفس واليه عطاء الخادم واستصحابه معه إلى دمشق لينوب عنه في تدبير الأمور، وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الدين بزبان أن نية مجير الدين قد تغيرت فيه، فاستوحش من عوده إلى البلد بغير يمين يحلف له بها على أمانه في نفسه، فوعد بالإجابة، فعاد إلى داره بدمشق، ثم هجس في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم فدعاه ذلك إلى الخروج

من البلد سرّاً طالباً صرخد، فحين عرف خبره أنهض في طلبه وقص أثره فأدرك وقد قرب من صرخد، فقبض عليه وأعيد إلى القلعة بدمشق وأعتقل بها اعتقالاً جميلاً، ثم تجدد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره أشياء ظهرت عنه مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة من القضاء النازل به لسوء أفعاله وقبح ظلمه وخبثه، ثم عدل به الجاندارية إلى الحمام بالقلعة مستهل ذي القعدة وضربت عنقه صبراً وأخرج رأسه ونصب على حافة الخندق، ثم طيف به والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه وتفننه في الفساد ومقاسمة اللصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة بتقريره وتدبيره وحمايته، وكثر السرور بمصرعه، وابتهج به ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازل وخزائنه ومخازن غلاته وأثاثه وذخائره فانتهبوا منها ما لا يحصى، وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة فلم يحصل للسلطان من ذلك إلا النزر اليسير، ورد أمر الرياسة والنظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله وسكنت الدهماء وبولغ في إخراج منازل الظالم، ونقل أخشابها.

قال: وكان عطاء الخادم قد استبد بتدبير الأمور ومدّ يده في الظلم، وأطلق لسانه بالهجو وأفرط في الاحتجاب، وقصر في قضاء الأشغال، فتقدم مجير الدين باعتقاله وتقييده والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال، ثم ضربت عنقه ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السلار الذي كان رتبته قد علت ومنزلته في الوزارة قد تمكنت، كان لزوجته ولد

يعرف بالأمر عباس قد قدّمه واعتمد عليه في الأعمال، ولعباس هذا ولد قدّمه الوزير وأنعم عليه وأذن له في الدخول بغير إذن إليه، فدخل عليه وهو نائم في فراشه فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هو أبو الحسن علي بن السلار وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بالاسكندرية للحافظ أبي طاهر السلفي رحمه الله، وكان قتله في سادس المحرم بمواطأة من الخليفة الملقب بالظافر بن الحافظ.

وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البلخي رئيس الحنفية، ودفن في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشهداء، وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع والدين والعفاف والتصوّف، وحفظ ناموس العلم والتودد إلى الناس على طريقة مرضية وسجية محمودة.

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسن أحمد بن منير الشاعر في جمادى الآخرة، ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشاعر أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني من حلب باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام في الثاني والعشرين من شعبان.

قلت: هما شاعرا الشام في وقتها، وقد شبههما العماد الكاتب في كتاب الخريدة بالفرزدق وجري، وكذلك كان اتفق موتها في سنة واحدة، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه الله قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرض سنذكره، وما قاله ابن منير من قصيدة له:

أياسيفأعزالدين منه الـ
غرار العضب والنوم الغرار
ملأت جوانح الاقطار رجفا
كل أن الأرض خامرها دوار
علاك حل على الدنيا افتاج
بمفرقها وفي يدها سوار
أضأت شمس عدلك في دجاها
فكل زمان ساكنها نهار
فتحرق من عصاك وأنت ماء
وتغرق من رجاك وأنت نار
الا لله وجهك والمنيا
مكلحمة ولليلى ض افترار
هتكت حجابيه والنصر غيب
وللهبوات طي وانتشار
بطعن للقلوب به انتظام
وضرب للرؤوس به انتشار
تباده كآن الموت غنم
ومامن عادة البدر البدار
أنخت على الصليب مطا صليبا
به من صك مبركه هدار
بمشرفه المناكب مقربات
لهن بمتن كل وغى حصار
جنين بانب أنب العناصي^(٦٨)
واضمن وللقنا منه اثار
وفي هباب أبت بها فجاءت
كما أجلى من الكسم الصوار^(٦٩)
وكم في فج حارم من حريم
عفته فلا جدير ولا جدار

وانطاكيسة استننت إليها
فاجفل خيطها وله عرار (٧٠)
وصبح في عزاز بها عزاز
فأسمى وهو وعث أو خبار (٧١)
يشق بها دجى الغمرات عسفا
جواد لا يشق له غبار

وله من أخرى:
وما يوم الفر نجة منك فذ
فتحصر عده خطط الحباب
أجاش الاربعاء لهم خميسا
بعيد الغور ملتطم العباب
وأحكم بالخطيم لهم خطاما
أمر بريمه مرّ الضراب
مشو متساندين إلى صليب
يبرقع هبوة الصنم الصلاب
تلفهم المنايا في الثنايا
وتفجأهم شعوب من الشعاب
أطاشت سهم كبشهم هنا
فكنت ذباب طائشة الذباب
حللت التاج عنه وحل تاجا
مكان العقد من عقد الكعاب
أناف على العقاب فكان أشهى
وأبهى منه في ظل العقاب
فأشرف وهو عن شرف معوق
واصعدوه هي غاية الانصباب
تكاشره الشوامت وهو مغض
ثناه مناه عن رجع الجواب

بعيداً من قراع واقتراع
يقوب له إلى يوم المآب
وكم سرط بخيلك اقبلوه الصـ
سدور فكان سوطاً من عذاب
تركتهم بأرض الشام شاماً
لظفر رتقيته أولناب
هتكت حجابهم والشمس وسنى
بشمس لا توارى بالحجاب
بأبيض من حيي ك الهند صاف
مصون المتن مبتذل الذباب
له سمة الشيوخ صفاء شيب
وفي خطواته ترف الشباب
الايانظر الدنيابعين
أرتبه علاها (٧٢) خدع السراب

تبطنها فطلتها ثلاثاً
على عز التملق والخلاب
فلأوي إلى رأي شعاع
ولا يثنى إلى أمل خراب
ترفع عن مجاورة الأماني
وحلق عن محاضرة التصابي
صلاة الله كل درور شمس
على مثوى أيبك من التراب
فقد ألقى إلى الاسلام عضباً
يطبق في النوائب غير نابي
تجيش له رواس كالرواسي
تمد لها جفان كالجوابي

وله من أخرى:

مظفر العزم ممدود الرواق على
معالم الدين يرفيها وبينها
ردّ الكنائس كنس اللهدى فخبث
نار الضلال ووارتها أثافها
وأورد العلم عدا من أيا لته
فاستن وافتن عبا في صوافيها
وبث للشرك اشراكا فمادرجت
طريدة منه الا استوهقت فيها
يابدر مذأشقت في الدست غرته
غيث الرعية واخضلت مراعيها
أقام أحمد من محمودها علما
به استقام على البيضاء ساريا
محيي شريعته من بعد ما انهدمت
واستعجمت بعد إفصاح معانيها
شابت مواهبه فيها مهابة
حتى استقرت على سمت سواريا

وله من أخرى:

عزت سيوفك فالعراق عراقها
والشام غير مدافعات شامها
إن أغمدت حل العزائم حلها
أوجردت حرم الكرى احرامها
شجنت (٧٣) عداك بها فلا اشراقها
بمفازة منها ولا إعتامها
سريت فصبحها بها يقظاتها
هدأت فمستها بها أحلامها
كما الماء إلا أن في رشفاته
نار أحشاشات النفوس ضرامها

خفست على أيها نكـــــم أوزانها
يوم الوغى واستثقلتهاهاها
حتى أحلن الشام شاماً صرصرت
فيه جنادها وصدحهاها
ورحضن أدران الجزيرة بعد ما
غمرت بها وهداها وأكامها
شطراً أبرت ومثله أنظرته
وقع الخطوب تكرها أيامها
بالخابطات الغاب تزار أسده
والمجفلي الحي اللقاح صيامها
أورتها أجمات أنطـــــا كية
عنقا وقد شبب الصدا اجمها
تلقى المشافر في مرأشف كلما
بردت بها الأكباد زادهيهاها
فعدت وقد عز السراح سراحها
وتوزعت في كنسها آرامها
ومشى الضلال القهقري واستأصل الـ
أذان من رجع الأذان صلامها
وغدا يخللها الخليل سواحبا
عذباً يمر لها العذاب غمامها
غضب الدين الله حص جناحه
بغيا وأدمى صفحته لدامها
فلا الآن رد النور فيه نوره
وانجاب من تلك الهنات ظلامها
محمود المحمود أقدامها إذا
خام الكماة وزلزلت أقدامها
الفارج الكرب العظام تضاجت
أشداقها وفرى القلوب ضغامها (٧٤)

وله من أخرى:

أما الرعايا فإنيها رشفنت
لديك نعمى عذابا ثناياها
سلكت نهج العدل القويم بها
فأحمدت دينها ودنياهاها
وكم أميتت خوفا فامنهاها
متالف الخوف خوفك الله
لله أقطارك التسي قطرت
لها منهاها إلى مناياهاها
أنسب في أنسب فوارسهاها
تردي فتري أولاك أخراهاها
أشجيت لها البرنس هبوتها
وكم عتاعا تيا فاشجهاها
وجوسلين استسباغ نطقتهاها
فاحتلب النذل تحت مغداهاها
ردته صفرا من كل ما ملكت
يداه أيدها مناضل مسراهاها
جويس جاستك أوجه لارأت
بؤسا وجاد الحيا محياهاها
في سريّة لو تكون فإرسهاها
يومئذ ما انبعثت أشقاهاها
لا زال ظل النعماء عن ملك
ما الشمس كفؤا له إذا بهاها
والله جازيه عن مقيدة
أعزها الله مذبذولاهاها
محمود المعتلي إلى فلكك
الحميد وثراؤه ولا يهاها
أعطاكه جدك المتوج بالجو
دّونفس لله مغزهاها
نفس عزوف عن الخنا طبعته
نزهها الله يوم سواهاها

أنت الذي سلم الانام له
يمنى طباق العلى ويسراها
وأنت مولى الملوك قاطبة
من كل فنا خسرو وشاهنشاهها
والشهره هذا لا قول أحده
أوه بديل من قولتي واهها

وله من أخرى:
يابن الذي لم يال في نجدة الـ
إسلام ادلاجـا وتهجيرا
تكنف الشام وقد شام ببر
ق الخوف انجـادا وتغـويا
وكف كلب الروم من بعد أن
انشبه نـابـا واظفـورا
فاهله رققك إن انصفوا
رقا بحـد السيـف مسـطـورا
بدرهوى واستخلف الشمس في
دستك اشراقا وتأثيرا

وله من أخرى:
ملك كسى الاسلام من ذبه
بردا بتديح الطبى معلما
من أصبح الشام به شامة
يقطر من قتل عداه دما
لو لم يقيم منصلتـا دونـه
لم تلق في أقطارها مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماه واهتمامه بالعرس وعوده إلى
حلب:

الدهر ما رضته بالجود والباس
مقسم بين اغراس واعراس
فتح تعافيه فتح ومطلب
داني المنال وملك ثابت راسي
نصر ابصري وصفحاعن حماة لقد
أحسنيت للهداء حسبا أيها الآسي
يابن الذي عنت الدنيا لدولته
من فاطمي اعزته وعباسي

وله فيه أيضا:
غدا الدين باسمك سامي العلم
أمين العماد مكين القـدم
لذلك لقبك نور الله
وقد أغطش الظلم فيه الظلم
أضاءت بعدلك آفاقه
وفضت عرى الدين لما ادهم
ولم تمش ره والنصر الرها
ومثل لك أدرك لما عزم
ويوم بسوطا بسطت الحما
م على الهضب من ركنها فانهدم
وبصري وصرخددل ولم تثر
دراك الكانارد يفي ارم
ومذفض جيشك في الغوطـ
ين فض الصليب له ما نظم
وفي كفر لاثا وهاب حللـ
ست عقد البرنس بيض خذم
معدة أنها لاتسـ
ل الامقممة للقـم

يوم بسر فودج رعتهم
 أجا أأغصهم واصطلم
 وفوق العريمة غشاهم
 عرام جيوشك سيل العرم
 وأبت بكلبهم في الكبو
 ل مباح الحريم مذل الحرم
 وبارتهم أذنت أنها
 ابارتهم فلييؤ بـ
 بنوها واعلوا ولم يعلموا
 بها خط في اللوح منك القلم
 وإنك خارم ما أحكمو
 هومن ديننا راقع ما انخرم
 ترفع من بعد خفض هدى
 وتخفض من بعد رفع صنم
 سمكت المدارس فوق النجو
 م فكم منجم تحتها قد نجم
 وعاش الحنيفة والشاف
 عي بما شذت منها وكانارم
 وإن لم تكن هاشمي الأصو
 ل قانك فرع الهزبر الهشم
 ومن يدعى في العلى ما ادعى
 ت وأنت ابن من عزلما احتكم
 واقسم ما غاب ميت سقت
 مغارسه عين هذي الشيم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ، ونفسه فيها طويل ،
 ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب
 نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد الموصلية ، وسيأتي شيء من شعره إلى
 أن قدم العماد الكاتب للشام في سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الأمر ،

- ٧٧٥٩ -

وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها
نظماً ونشراً، وسيأتي كل ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال ابن الأثير: وفيها توفي صاحب ماردين حسام الدين تمرشاش
وليها بعده نجم الدين ألبى بن تمرشاش بن أرتق.

قلت: وقد مدحه القيسراني والعرقلة وغيرهما من الشعراء.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

قال ابن الأثير: ففيها ملك نور الدين دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجّد في ملكها أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية عسقلان، وهي مدينة فلسطين حسنا وحصانة، ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهف ولا يقدر على إزعاجهم عنها لأن دمشق في طريقه، وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط، وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق.

واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا الفتك بها والنهب والسبي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة، وكان رسوهم يجيء إلى دمشق ويجيئها من أهل البلد، ثم أشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحب وطنه سار إليه، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مؤيد الدين ابن الصوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدو فلجأوا إلى الله تعالى ودعوه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه، على يد أحب عباده إليه وأحسنهم طريقة، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقا، نور الدين محمود، فحسن له السعي في ملكه البلدة وألقاه في روعه، فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه لأن صاحبه متى رأى شيئا من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم.

قلت: وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدّم ذكر شيء منها، ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة:

يظن صلاح الدين فرسان جلق
كفرسانه وما الاسد مثل الثعالب
رجال إذا قام الصليب تصلبت
رماحهم في كل ماش وراكب
غدا يطلع الشام الفرنج بفيلق
مسعودة أبطاله للمصائب
لها الليل نقع والأسنة أنجم
فما غير أبطال وغير جنائب

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني صاحب حماه، أحد أصحاب زنكي وقد تقدم ذكره مراراً، وكأنه كان في مقدمة الجيش النوري لما قصد دمشق في المرتين الأوليين، أو في إحداها، أو في زمن حصار زنكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها وإنضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فإن الدم كان عنده عظيماً لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل، فلما رأى الحال هكذا عمد إلى أعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلانا - ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين - قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره، فتارة يأخذ إقطاع أحدهم، وتارة يقبض عليه، فلما خلت دمشق من الأمراء قدم أميراً كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهياً شجاعاً، وفوض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لا يتمكن من دمشق معه، فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول، فلم يصنع إلى قوله وقتله.

قلت: وفي بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء هذا كان له
مع نور الدين في دمشق حديث فإنه قال:
ودمشق في دمشق رجلا سلم
لحور نسائهم منهم نساء
هي الفردوس أصبح هو عاف
من العافي ومن خال خلاء
جنان تعرف الجنات فيها
ولا رأي هنالك ولا رواء
لا سمح صعبها ودنت قصاها
وامكنك إقتياد وامتطاء
ويانعم العطاء عطاء رب
توسطه فأنشطه عطاء
تفاءل باسمه فالقال وعد
يكون على ظباك به الوفاء
هو السبب الذي شذرت قواه
وهذبه لخدمتك الصفاء
وسيف إن تشمه تشم حساما
وإن يغمد فتنار بل ذكاء
جنته لك السعادة قطف رأي
لنقب الخادع بك به هناء

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديث، وإنما هذه الأبيات أو ما في
معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك، وعطاء هذا هو الذي
ينسب إليه مسجد عطاء خارج الباب الشرقي بدمشق، وجوزة عطاء
بيت أبيات وهي أرض فيها أخشاب كبار من الجوز تربي أوتارا للجامع
دمشق، وهي وقف عليه، وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء.

قال ابن الأثير: فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في دمشق،
فراسل أحداث البلد وزناطه واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، فصار

إليهم وحاصرهم عشرة أيام، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، فإلى أن جمعوا وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفي حنين، وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيق عليهم ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي فدخله بالامان عاشر صفر، وحصر مجير الدين في القلعة وراسله وبذل له الاقطاع الكبير من جملته مدينة حمص فأجاب إلى تسليم القلعة وصار إلى حمص.

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق فخرج في تجميل عظيم ومعه ألف فارس، فعظم على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين ونزل بمرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يعرفه بما جرى عليه، فسار نور الدين في عساكره وزحف إلى البلد من شرقيه، وكانت الحرب في عاشر صفر ، وتولى أسد الدين القتال وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد، ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لأن نور الدين كان من شرقها وجل العسكر مقابله، ورأى من كان مع نور الدين من الجاندراية والحلبين إلى خلو السور من المقاتلة فتسرعوا إلى السور وتعلقوا به وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال أن إمراة كانت على السور فدلّت حبلا فصعدوا فيه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلام وصعد جماعة أخرى، ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين ، فوقع على أهل البلد الخذلان وكسر باب البلد ودخلت الخيالة منه، وملك نور الدين دمشق، وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها، فولاه نور الدين أمرها وردّ إليه جميع أحوالها، وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرحبة.

قال الرئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرم وصل الأمير أسد

الدين شيركوه رسولاً من نور الدين إلى ظاهر دمشق، وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الألف، فأنكر ذلك، ووقع الاستبحاش منه وإهمال الخروج إليه لتلقيه والاختلاط به، وتحزرت المراسلات فيما اقتضته الحال ولم تسفر عن سداد ولا نيل مراد، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغلات، ووصل نور الدين في عسكره إلى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا عند دومة، ورحل في الغد ونزل بيت الأبار من الغوطة، وزحف إلى البلد من شرقيه، وزحف إليه من عسكره وأحدثه الخلق الكثير ووقع الطراد بينهم، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، ثم زحف يوما بعد يوم، وتأكد الزحف يوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليه العسكر الدمشقي فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كيسان والدباغة من قبلي البلد وليس على السور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر، غير نفر يسير لا يؤيه لهم، فتسرع بعض الرجال إلى السور وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه جبلا فصعد فيه، وحصل على السور ولم يشعر به أحد وتبعه من تبعه وأطلعوا علما نصبوه على السور وصاحوا: نور الدين يامنصور، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله وحسن ذكره، وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر أغلاقه، وفتح فدخل منه العسكر وسعوا في الطرقات، ولم يقف أحد بين أيديهم، وفتح باب توما، أيضا ودخل الناس منه، ثم دخل نور الدين وخواصه، وسر كافة الناس من الأجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الاسعار والخوف من منازل الفرنج الكفار، وكان مجير الدين لما أحس بالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه فأومن على نفسه وماله، وخرج إلى نور الدين فطيب نفسه ووعدته الجميل، ودخل نور الدين القلعة في اليوم المقدم ذكره وأمر بالمناداة بالامان للرعية والمنع من انتهاب شيء من دورهم وتسرع قوم من الرعا والأوباش إلى سوق علي وغيره فعاثوا ونهبوا، وأنفذ نور الدين إلى أهل

البلد بما طيب نفوسهم وأزال نفرتهم، وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية دار جدّه، وأقام أياماً، ثم تقدم إليه بالمسير إلى حمص في خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد أن كتب له المنشور باقطاعه عدّة ضياع بأعمال حمص برسمه ورسم جنده، وتوجه إلى حمص على القضية المقررة، ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أمثال الرعية من القضاة والفقهاء والتجار وخطوبوا بما زاد في ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه، ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الأنهار وأنشأ بذلك المنشور وقرى على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيامه ونصرة أعلامه.

وقال ابن الاثير: لما استقل نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عاماً.

قلت: قد تقدم ذكره في أول الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفرقة فيما بعد.

قال: وألقى الاسلام جراحه بدمشق، وثبتت أوتاده، وأيقن الكفار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين، وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فأنتهى الأمر إلى نور الدين فخاف أن يحدث ما يشق تلافيه، بل ربما تعذر لاسيما مع مجاورة الأفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعوّضه عنها مدينة بالس، فلم يرضها، وسار عن الشام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاور المدرسة النظامية وتوفي بها.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا أنه لا يقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص

وتقربوا إليه، ثم إن من بتل باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حسان المنبجي وهو من أكابر أمراء نور الدين واقطاعه منبج فأمره أن يتسلمها منهم، فسار إليها وتسلمها وحصنها ورفع إليها ذخائر كثيرة.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بزاق أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد إلى داره، ووصل الرئيس مؤيد الدين المسيب إلى دمشق مع ولده النائب عنه في صرخد إلى داره معولاً على لزومها وترك التعرض لشيء من التصرفات والأعمال، فبدأ منه من الأسباب المعربة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السداد والرشاد ما كان داعياً إلى فساد النية فيه، وكان في إحدى رجليه فتح قد طال به ونسيه، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه وأسقط قوته مع فهاق متصل وقلاع في فيه زائد، ففُضِيَ نَحْبُهُ في رابع ربيع الأول ودفن في داره، واستبشر الناس بهلاكه والرحمة من سوء أفعاله.

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظافر بن الحافظ، وأقيم ولده عيسى مقامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقبوه بالفاتر، وعباس الوزير، ثم ورد الخبر بأن الأمير فارس الدين طلائع بن رزيق، وهو من أكابر الأمراء المقدمين الشجعان المذكورين لما انتهى إليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتنع وجمع واحتشد، وقصد العود إلى مصر، فلما عرف عباس بها جمع: خاف الغلبة فتأهب للهرب في خواصه وأسبابه وحرمه وما تهيأ من ماله، وسار مغذاً فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خرج إليه جماعة من خيالة الأفرنج فاغتر بكثرة من معه، وقلة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه وانهمز أقبح هزيمة هو وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذي قتل العادل بن السلار

مع ولده وحرمة وماله وكراعه، وحصلوا في أيدي الفرنج ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدة، ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل في أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به، من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة، وتدير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من أجهأ الهرب على أشنع صفة من العدم والعري في آخر ربيع الآخر .

قلت: وفي ذلك يقول عمارة اليمنى من قصيدة له:

لکم یابنی رزیک لازال ظلکم
مواطن سحب الموت فیها مواطن
سللتم علی عباس بیض صوارم
قهرتم بها سلطانہ وهوقاهر

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس، كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه، وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس ببعض حتى يفنؤهم، وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحنى في ذلك فنهته فاطلع والده على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به وقرر معه قتل الظافر، وكانا يخرجان متنكرين وهما تربان سنهما واحد فدعاه إلى داره ورتب من أصحابه معه في جانب الدار نفراً، ثم لما استقرّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسة، ورموه بجب الدار، وأصبح عباس جاء القصر، ضحوة نهار للسلام، وجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر، وقال: ما لمولانا ما جلس للسلام، فتبلى الاستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: ما لك لاتجاوبني؟ قال: يامولاي مولانا ما ندرى أين

هو، قال: مثل مولانا يضيع ارجع واكشف الحال، فمضى ورجع فقال: ما وجدنا مولانا، فقال: يبقى الناس بلا خليفة ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد لنبايعه، فمضى وعاد، وقال: الموالي يقولون لك: ما لنا في الأمر شيء والدنا عزله عنا، وجعله في الظافر والأمر لولده بعده، قال: أخرجوه حتى نبايعه وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول لأخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم ، فخرج الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الأستاذ، فأخذه عباس فحمله وبكى وبكى الناس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ.

قال ابن منقذ: ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فما راعنا إلا قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة فإذا السيوف تختلف على إنسان، فقلت لغلام لي أرمني: انظر من هذا المقتول، فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين هذا مولاي أبو الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، ثم إن واحداً شق بطنه يجذب مصارينه، ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربة سيف والدم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي الخزانة ألف سيف مجرّد.

قال: وكان ذلك اليوم من أشدّ الايام التي جرت عليّ لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره الله سبحانه، وجميع خلقه.

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في ديوانه قال: كان لعباس أربعمئة جمل تحمل أثقاله ومائتا جنيب، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمئة وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها فارسهم وراجلهم، تقدّم بشدّ خيله وبغاله وجماله ليتحمل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت ذلك الفضاء إلى

قصر السلطان إلى الإيوان، خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله وغلماؤه كلهم تحت يديه فقال للجمالين والخربندية والركابية: روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب، ففعلوا ذلك وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم، وكان ما جرى من تهويل الدواب لطفاً من الله تعالى به فإنها سدت الطريق بينه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلق كثير، ونحن في قلة ما نبلغ خمسين رجلاً، وغلماؤه عباس ومماليكه في ألف ومائتي غلام بالخيل والسيوف والسهل التام، وثمانمائة فارس من الأتراك خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية فراراً من القتال، فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال

والبغال، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عباس من باب النصر وجاؤوا في أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره، وكان عباس قد أحضر من العرب نحو من ثلاثة آلاف فارس يتقوى بهم على المصريين، واستحلفهم ووهبهم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدروا به وقتلوه أشد قتال ستة أيام يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف الليل ثم يركبون ويهتدون خيلهم على جانب الناس، ويصيحون صيحة واحدة فتجفل الخيل وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه منعة وقوة، فيأخذونه، فكان ذلك سبب هلاك خيله وتمكن الأفرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصده الأفرنج إليه.

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليه وأخذوا منه حسباً على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظناً منهم أن له عودة إليهم وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس، ويوم الأحد صبحهم الأفرنج، وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم فقتلوا ابنه الأوسط وابنه الأكبر، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صغاراً وانصرفوا.

قلت: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعز بن باديس الحميري، ويلقب بالأفضل ركن الدين ويكنى بأبي الفضل، ورأيت علامته في الكتب أيام وزارته « الحمد لله وبه أثق » وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عم جود الأفضل السيد الوري
وأغنى غناء الغيث حيث يصبوب (٧٥)

ومن أبيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر:
وأنفق من انعامهم في هلاكهم
وأظهر ما قد كان عنه تنافق
ومدّ يد أقدم طوله إلى هلاكهم
وحلت بأهل القصر منه البوائق
سقى ربه كاس المنايا وما انقضى
لله الشهر إلا وهو للكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصالح من المودة والمصافاة فأحضره واستحلفه أنه لا ينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ من أستاذه داره من يدخل على حرمه إلى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عند أهله وأولاده.

وقال: قد حملت ثقلهم عنك لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ، يعني ولده ناصر الدين وبأخواه ، فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه، فأعادهم أسامة من بلبس، وأنفذ إلى الملك الصالح يقول له: قد أنفذت أهلي وأولادي إليك، وأنت ولي ما تراه فيهم، فأنزلهم في دار وأجرى عليهم الجاري الواسع وأحسن إليهم غاية الأحسان ، وكان يكاتبه في الرجوع إلى مصر وهو يلطف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسب إلى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين، فأنفذ إليه يقول له: تصل إلى مكة في الموسم

ويلقاك رسولي إليها يسلم إليك مدينة أسوان، وأنفذ إليك أهلك وأمدك بالأموال وهي كما علمت الثغر بيتنا وبين السودان، وما يسد ذلك الثغر مثلك وأكثر من الوعد وذكر رغبته في قربه ورعايته وما بينه وبينه من قديم الصحبة، فاستأذن أسامة في ذلك الملك العادل نور الدين، وكان في خدمته فقال: يا فلان ما تساوي الحياة الشتات والرجوع إلى الأخطار والبعد عن الأوطان، ومنعه من ذلك بإحسانه ووعدته أن يستخلص أهله، فكتب أسامة إلى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله وترددت بينهما مكاتبات وأشعار متصلات إلى أن سيرهم وهم نيف وخمسون نسمة في الأكرام والاحترام إلى آخر ولايته .

وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم وقالوا: يكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه، ووصله بعض أصحابه من دمشق وهو في العسكر النوري بحلب فأخبره أن من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا، وأن المركب انكسرت بهم في ساحل عكا، ونهب الفرنج كل ما فيه ولم يصلوا إلى دمشق إلا بأنفسهم، وأن ممتلك الافرنج أعطاهم خمسمائة دينار أصلحوا منها حالهم، وأكثروا ظهوراً إلى دمشق قال أسامة:

إلى الله أشكو فرقة دميّت لها

جفوني وأذكت بالهموم ضميري

تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى

وطارت بها الأشواق كل مطير

فلما قضى الله اللقاء تعرضت

مساة دهوري في طريق سروري^(٧٦)

فصل

قال أبو يعلى: وفي آخر ربيع الأوّل وصل الأمير مجد الدين أبو بكر

محمد نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج، وأقام أياماً وعاد إلى منصبه في حلب وتدير أعمالها.

قلت: مجد الدين هذا هو ابن الداية، وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى أخوته وسيتكرر ذكرهم في هذا الكتاب، ومجد الدين أكبر أخوته، وقد مدحه الشعراء قال القيسراني من بعض ما قاله فيه:
دعوا ماضى من قبل هذا المابعد
فأقسم لولا المجد ما عرف المجد
كريم سميت أوصافه لعفاته
قارئ كل اثنين بينهما عقد
محياه والبشرى ويمناه والندى
ونجواه والدينا وتقهواه والزهد
ففي قربه الزلفى وفي وعده الغنى
وفي نيله الحسنى وفي رأيه الرشده
إذا وجه نور الدين قابل مجده
فقل في كمال البدر قابل السعد

وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته، وولي الحرمين ابنه قاسم بن هاشم، وهو الذي أرسل عمارة اليمني الفقيه الشاعر إلى الديار المصرية، وسيأتي ذكره.

قال أبو يعلى: وفي ثامن من جمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مصر أن عدة وافرة من مراكب الفرنج من صقلية وصلت إلى مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها، فهجمت عليها وقتلت وأسرت وسبت ونهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام وتركها صفراً، وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة، ومن سلم واختفى وضاعت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضي فخر الدين أبي منصور محمد بن عبد الصمد بن الطرسوسي، وكان ذا همة ماضية ويقظة ومروءة ظاهرة، وفي داره وولده ومن يلم به من غريب ووافد، وقد نفذ أمره وتصرفه في أعمال حلب في الأيام النورية، وأثر في الوقوف أثراً حسناً، توفّر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

وفيهما تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك، ذكر ابن الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان الضحاك البقاعي ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها واستولى عليها.

وقال ابن أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك فأنفذ إليه وتسلمها منه وألحقه بأصحابه.

قال: ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة، وجعله في البلد، وولى القلعة رجلاً يقال له ضحاك، فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكاً وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعاً وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تور انشاه شحنكية دمشق، فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن توفي، فولى صلاح الدين شحنكية دمشق.

قلت: هذا وهم، تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين، فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شحنكية دمشق، وأما كونه ولي الشحنكية بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيت ما يؤكد، قرأت في ديوان العرقلة وقال يهنيه بالشحنكية بدمشق، وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذي: قلت لحسادك زيد وافي الحسد

قد سكن الدار وقد حاز البلد
لا تعجبوا إن حل دار عمه
أما تحل الشمس في برج الأسد

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنة:
لصوص الشام تابوا من ذنوب
تكفروها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا
فمولاى الصلاح لكم فساد

وله فيه أيضا:

رويدكم بالصمص الشـ
أم إنى لكم ناصح في مقالى
واياكم وسمي النـ
بي يوسف رب الحجى والجمال
فذاك مقطوع أيدي النسـ
اء وهذا مقطوع أيدي الرجال

قال ابن ابى طي: وولي صلاح الدين شحنة دمشق والديوان فأقام
فيه أياما، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب
الديوان أبي سالم بن همام ، فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته،
وطيف به في دمشق.

قلت: وابن همام هذا هو الذي ذكره الشنباسي في قصيدته، وأشار إلى
حلق لحيته بقوله:

كأبي سالم بن همام لما
قام للنصح عادى مشي ملثم

ثم قال ابن أبي طي: واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه
بخواصه، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعا في
لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة .

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك قليج

أرسلان بن الملك مسعود بن سليمان بن قتلмыш ملك قونية وما والاها ، فملك عدّة من حصونها وقلاعها بالسيف والأمان، وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشغولين بمحاربة أولاد الدانشمند، ونصروا عليهم في وقعة كانت بأقصرا في شعبان، فلما عاد قليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عظم عليه هذا الأمر، واستبشعه مع ما بينهما من المودعة والمهادنة والصهر، وراسله بالمكاتبة والانكار والوعيد والتهديد فأجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينهما مستمراً على هذه الحال، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق.

قال: وولي الاسطول المصري مقدّم شديد البأس. بصير باشغال البحر، فاختر جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابهم، ونهض بهم في عدّة من المراكب الاسطولية، وأقلع في البحر ليكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقتل من فيها واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد منها في البحر فظفر بمراكب حجاج الفرنج، فقتل وأسر وانتهب وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلت : وفي هذه السنة ورد أمر الخليفة ببغداد، وهو المقتفي ، إلى أمير الحرمين قاسم بن هاشم يأمره أن يركب على باب الكعبة المكرمة باب ساج جديداً، قد ألبس جميع خشبه فضة وطلاي بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير إليه خشب الباب القديم مجرّداً ليجعله تابوياً يدفن فيه عند موته. وذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم فتوجهت إلى زييد، وعدت من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججت في الموسم منها فدفعت لأمر

- ٧٧٧٧ -

الحرمين ماله، وألزماني الترسل عنه إلى مصر، يعني مرة ثانية بسبب جناية
جناها خدمه على حاج مصر والشام.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية، وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه لمنع، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه، بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاوله وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه، ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصه من حارم، فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم وعاد.

وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة وذكر أبياتا من قصيدة لابن منير، وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين، فأما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة، وقد قرأت في ديوان ابن منير، وقال يمدحه ويهنيه بالعود من غزاة حارم:

مافوق شأوك في العلى مـزدا
فعلام يقلق عزمك الاجهاد
همم ضربن على السماء سرادقا
فالشهب أطناب لها وعماد
أنت الذي خطبت له حساده
والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم اليلند
وانجلي للائلئ الاسناد
زهرت لدولتك البلاد فروحها
ارج المهيب ودوحها اميداد

أحيار بيع العدل ميت ربوعها
فالبرض نسج والهشيم مراد
فالعيش إلا في جنابك ميتة
والنوم إلا في حماك سهاد
وإذا العدى زرعوا النفاق واحصدوا
كيدا فعزمك ناقض حصاد
بالمقربات كأن فوق متونها
جن الملاوك كأنها أطواد
تدأى ومن وحي الكفاة صفورها
فألزجر قيد والندى قياد
سحب إذا سحبت بأرض ذيلها
فالحزن سهل والهضاب وهاد
يهدي الشواظ في دجنة نقعها
بندر بسر جرك نير وقاد
ألبست دين محمد يانوره
عزاله فوق الشها إسعاد
مازلت تسمكه بمياد القنا
حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذار هفت عزمك دونه
عددي سراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلمها
حمدتك عن خطبائها الاعواد
ولئن حمت منك الأعادي مهلة
فلهم إلى المرعى الوبي معاد
ولكم لكم في أرضهم من مشهد
قامت به لظباكم الأشهاد
ملق بأطراف الفرنجة كل كلا
طرفاه ضرب صادق وجلاد

حاموا فلما عاينوا حوض الردى
حاموا برائش كيدهم أو كادوا
ورجا البرنس وقد تبرنس ذلّة
حرم ما بحارم والمصصاد مصاد
ضجعت ثعالبه فأخرس جرسها
بيض تناسب في الحديد حداد
وسوا عد ضربت بهنّ وبالقنا
من دون ملّة أحمد الاسداد
يركزن في حلب ومن افنانها
تجنّي فواكه أمنها بغداد
يامن إذا عصفت زعازع بأسه
خمدت جحيم الشرك فهي رماد
عجبال قوم حاولوك وحاولوا
عودا فواتاهم إليه مراد
ورأوا النصر فوقك خافقا
فأقام منهم في الضلوع فؤاد
من منكر أن ينسف السيل الربا
وأبى وه ذاك العارض المداد
أو أن يعيد الشمس كاسفة السنّا
نار لها ذاك الشهاب زناد
لا ينفع الأباء ما سمكوا من الـ
علياء حتى ترفع الأولاد
ملك يقيد خوفه ورجاؤه
ولقلما تتضافر الاضداد

وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أولها:
للك ما تشاء من الدوام

يقول فيها:

حظيت من المعالي بالمعاني
ولاذا الناس بعبدك بالاسامي
عنيزز المتتمى عالي المراقي
بعيد المرتقى غالي المسامي
فما أحسد إلى العلياء يدي
بمحتدك القسيامي القسامي
أبوك المعتلي قمم الأعادي
إذا استعمرت مدامرة القيام
زكبا عرق العراق وقد تكنى
به وأطال من شمم الشام
وجدك جد حتى قال قوم
على الفلك ابتنى عمدا الخيام
فخرت ففت أباء عظاما
إذا فخر المنافر بالعظام
وقفنا والنواظر مسجندات
وروح العزم زاري الختام
أساطرك الزبور مفصلات
كأنام من صلاة في نظام
لدي ملك سجاياه سجال
تعاقب بين عفوا وانتقام
كريم أكثر يده أيادي الـ
عفاة وقللت عدد الكرام
فأهللنا السالفتي هلال
وكفرتنا الضاحكتي حسام
ذهلنا والسباط نخال سمطنا
وقد سجد المقاول للسلام
هل الدست استقل بليث غاب
أم الفلك ارتدى بدر التهام

يطرب به إلى العلياء نفوس
غروب عن ملاءمة الملام
وخير سماعه ضرب مدام
إذا طرب المملوك إلى المدام
سقى الله العوامل من جبان
شققن النقع عن نقع الاوام
فكم انتجت من أمل عقيم
بها وحسمت من داء عقام
بإنسب والرعال كأن ثولا
تطأوح تحت غير من أيام
مقام كنت قطب رحاه أرجى
مقام بين زمزم والمقام
رميتهم بأرعن مرجحن
ابارهم وكننت أبررام
وقمت وقد تناعس كل راع
وقام وقد تناعس كل حام
فأيدي الخيل تذرع بحرلج
من الدم من يد التشخين طام
أحلت الدين فيه وكان هما
عزيز القوم معتدل القوام
وفي شجراء حارم شاجرتهم
سواهم كالسهام بكالسهام
نظائرهم تلهم حماما
تطأير تحتنه مثل الحمام
فلو قد مثل الاسلام شخصا
لرشف ما وطئت من السلام
فاكذب مدعين هفوا وغروا
بأن الأرض تخلصوهم من همام

أولى لأبصاركم هذا التعاشي
عن النور المبين بل التعامي
عن القمر الذي يجلوه ظل الـ
عواصم في ضياء الليل التهامي
هو المهدي لامن ضل فيه
كثير واستخف سوى هشام
وقائم عصرنا لا ما تمنى
به من صوغ أضغاث المنام
بنور الدين أنشركل حق
أطيل ثوابه تحت المرجام
وطالت قبة الاسلام حتى اسـ
توت بين الفوارس والنعام
تطابق لاسمه لفظ ومعنى
أحلاه الطباق على الأنام
جرى قدامه ابن سبكتكين
وقبل الويل هينمة الرهام
وكان من النجوم بحيث تومي
إليه من عنايات التكامي
وجئت فصار أشمخ ما بناه
لما شيدت الطام من رغام
أطاعك إذ أطعت الله جد
ركبت به الزمان بلا زمام
ألا ياربما اتفق الاسامي
وفاضل بينها درج التسامي
جنى شرفا من استغواه حتف
إليك وكم حياة من حمام
ترشفك الكفاة وأنت موت
كانك من طعان في طعام

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: توجه نور الدين إلى ناحية حلب في بعض
عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم
في أعمال حلب وإفسادهم وصادفه في طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبي
بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرههم، ووصل مع
المبشر عدّة وافرة من رؤوس الأفرنج المذكورين وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في بعض أيام رمضان سالماً بعد
تهذيب حلب وأعمالها وتفقد أحوالها، واستقرّت المودعة بينه وبين ولد
السلطان مسعود صاحب قونية وزال ماكان حدث بينهما، وفي شوال
تقرّرت المودعة والمهادنة بينه وبين ملك الأفرنج مدّة سنة كاملة، أوّلها
شعبان وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية،
وكتبنا الموصفة بذلك بعد أن تأكدها بالأيان والمواثيق المشدّدة.

قال: وفي العشر الآخر من ذي الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان
استقر من المودعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وافرة من الفرنج في
البحر وقوّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس،
وقد اجتمع فيها من جشارات الخيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحى
الضياع ومواشي الجلايين والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي
لا يحصى فيذكر للحاجة إلى الرعي بها، والسكون إلى الهدنة المستقرّة،
ووقع للمندوبين وبخفظها تقصير فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما
وجدوه، وأقفروا أهله منه مع من أسروه من التركمان وغيرهم وعادوا
غانمين ظافرين أمنين، واللّه عادل في حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة
منهم، وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السنة الآتية.

وفيهما توفي القاضي أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس، كاتب
الانشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دمياط، ذكره العماد الكاتب في
الخريدة وأثنى عليه، ومن شعره في رجل كان يكثّر التكبير في آخر
الصلاة.

وفاتر النية عنيها

مع كثرة الرعدة والهمزة

مكبر سبعين في مرة

كأنه صلى على حمزه

وله في وصف كتاب:

مداده في الطرس لما بدا

قبله الصب ومن يزهد

كأنها قد حلّ فيه اللما

أوذاب فيه الحجر الأسود

وبلغني أن القاضي الفاضل كان يعظمه كثيراً ويسميه ذا البلاغتين،
وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده
غالباً إلا في ركوبه من القصر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر
فيسايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والآداب والشعر.

قال: وفيها في يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأول من هذه السنة توفي
الفقيه الزاهد أبو البيان نبأ بن محمد المعروف بابن الحوراني، وكان حسن
الطريقة مدّناً صبياً إلى أن قضى متديناً نقياً عفيفاً سخيّاً محباً للعلم
والأدب والمطالعة للغة العرب، وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر
الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء رضي الله عنهم يوم
مشهود من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزلازل بالشام.

قال أبو يعلى: في ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار، وفي الليل ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهنّ بحيث أحصين ست مرات، وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها في أول النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماه بانهدام مواضع كثيرة وانهدام برج من أبراج افامية، بهذه الزلازل المباركة، وذكر أن الذي أحصي عدده منها تقدير الأربعين، وما عرف مثل ذلك في السنين الماضية والأعصار الحالية، وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار وبالليل ثانية في آخره، وفي أول شهر رمضان زلزلة مروعة وثانية وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب انتصاف الليل، وفي ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق، وعند الصباح أخرى، وفي الليلة التي تلتها زلزلتان أولها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة، وفي ثاني شوال زلزلة أعظم مما تقدّم، وفي سابعه وسادس عشره، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه، ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم، فله الحمد والشكر، لكن وردت الأخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها، وأما شيزر فإن الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير، وأما كفر طاب فهرب أهلها منها خوفاً على أرواحهم، وأما حماه فكانت كذلك، وأما باقي الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة، والله أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلة عظيمة، وتلاها أخرى وكذا في ليلة العشرين واليوم بعدها، وتواصلت الأخبار من الشام بعظيم تأثير هذه الزلازل، وفي ليلة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافت أربع زلازل، وضج الناس بالتهليل والتسبيح والتقديس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الأخبار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثرت في حلب تأثيراً أزعج أهلها وأقلقهم وكذا في حمص وهدمت مواضع فيها، وفي حماه وكفر طاب وأفامية، وهدمت ما كان بني من مهدوم الزلازل، وحكي أن تيماء أثرت فيها هذه الزلازل تأثيراً مهولاً، وفي رابع رجب نهراً وافت بدمشق زلزلة عظيمة لم ير مثلها فيما تقدم، ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم وهربوا من الدور والسقائف وانزعجوا وأثرت في مواضع كثيرة، ورمت من فص الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن إعادته، ثم وافت عقيها زلزلة في الحال، ثم سكنتا بقدرة من حركها، ثم تبع ذلك في أول ليلة اليوم المذكور زلزلة، وفي وسطه زلزلة، وفي آخره زلزلة، وفي ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس، وتلاها في النصف منها ثانية، وعند انبلاج الصبح ثالثة، وكذلك في ليلة السبت وليلة الأحد وليلة الاثنين، وتتابعت بعد ذلك بما يطول الشرح، ووردت الأخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه، ويرعب النفوس ذكره بحيث انهدمت حماه وقلعتها وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان، وهم العدد الكبير والجم الغفير، بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسير، وأما شيزر فان ربضها سلم الا ما كان خرب أولاً، وأما حصنها المشهور فإنه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقذ ومن تبعه إلا اليسير ممن كان خارجاً، وأما حمص فإن أهلها كانوا قد قد اختلفوا منها إلى ظاهرها فسلموا، وتلفت مساكنهم، وتلفت قلعتها، وأما حلب

فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب
وأفامية وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعازل إلى جبلة
وجبيل ، وأتلفت سلمية وما اتصل بها إلى ناحية الرحبة وما جاورها، ولولم
يدرك العباد والبلاد رحمة الله تعالى ولطفه لكان الخطب أفظع، وقد نظم
في ذلك من قال:

رَوَعَتْنَا زَلَزَلٌ حَادِثَات

بِقَضَاءِ قَضَاهُ رَبِّ السَّمَاءِ

هَدَمَتْ حَصْنَ شَيْزٍ زُرْجَمَةٍ

أَهْلَكَتْ أَهْلَهُ بِسُوءِ الْقَضَاءِ

وَبَلَدًا كَثِيرَةً وَحَصْنًا

وَتُغُورًا مَوْثِقَاتِ الْبِنَاءِ

وَإِذَا مَارَنْتَ عِيُونَ إِلَيْهَا

أَجَرْتَ الدَّمْعَ عِنْدَهَا بِالدَّمَاءِ

وَإِذَا مَا قَضَيْ مِنَ اللَّهِ أَمْرًا

سَابَقَ فِي عِبَادِهِ بِالْمَضَاءِ

حَارَ قَلْبُ اللَّيْبِ فِيهِ وَمِنْ كَأَنَّ

لَهُ فُطْنَةٌ وَحَسَنَ ذِكْرًا

وَتَرَاهُ مَسْبُوحًا بِأَكْبَرِ الْعِيَانِ

مِنْ مَرُوعٍ أَمِنْ سَخَطِهِ وَبِلَاءِ

جَلَّ رَبِّي فِي مَلِكِهِ وَتَعَالَى

عَنْ مَقَالِ الْجَهَالِ وَالسَّفَهَاءِ

قال: وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع
والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والأماكن
المسقفة إلى الجامع والأماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت
بعد ذلك أخرى ففتحت البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين
والصحراء وأقاموا عدة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون
ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم.

قال: وفي الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة روعت الناس وأزعجتهم لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها، ووافت الأخبار من ناحية حلب بأن هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماه أعظم مما كانت في غيرها وأنها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجئ إليها وأنها دامت أياما كثيرة في كل يوم عدّة وافرة من الرجفات الهائلة يتبعها صيحات مختلفات توفي على أصوات الرعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر، وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهنّ، فلما كانت ليلة السبت العاشر من شوال، وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء، الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها، هزة خفيفة، وكذا في ليلة العاشر من ذي القعدة وفي غدها زلازل، وليلة الثالث والعشرين والخامس والعشرين منه أيضا زلازل نفر الناس من هولها إلى الجوامع والأماكن المنكشفة، وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وفي يوم الجمعة انسلاخ ذي القعدة وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

قال ابن الأثير: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخرجت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدها بمدينة حماه وحصن شيزر فإنهما خربا بالمرّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرة، وغيرها من البلاد والقرايا، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصه إلا الله تعالى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أن الله منّ على المسلمين بنور الدين جمع وحفظ البلاد، وإلا كان دخلها الأفرنج بغير حصار ولا قتال.

وقال: ولقد بلغني من كثرة الهلكى أنّ بعض المعلمين بحماه ذكر أنه فارق المكتب لمهمّ فجاءت الزلزلة فأخرجت الدور، وسقط المكتب على

الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ابن منقذ، وقال في الزلازل التي أهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتداءؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحوها من عشرة آلاف نسمة، قال وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعاهد البلاد:

ننظن اليقين أحلاما
فحركتنا هذي الزلازل أي
تقظواكم ينام من ناما (٧٧)

وقال أيضا:

أيها الغافلون عن سكرة الموت
تواذلا يسوغ في الخلق ريق
كم إلى كم هذا التشاغل والغف
لة حار الساري وضل الطريق
إنما هزت الزلازل هذي الـ
لارض بالغافلين كي يستفيقوا (٧٨)

وقال في الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور النزهة في أكواخ
عملوها بالأخشاب لئلا تهدها الزلازل:
يا أرحم الراحمين أرحم عبادك من
هذي الزلازل فهي الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم
ركاب بحر من الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا وفيها ونصفهم
لمصرع السلف الماضين يسرقب

تعوضوا من مشيدات المنازل بالـ
لاكوأخ فهي قبور سقفها خشب

كانها سفن قد أقبلت وهم
فيها فلا ملجأ منها ولا هرب (٧٩)

وقال: يرثي أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها:
ما استدرج الموت قومي في هلاكهم
ولا تخرمهم مشى ووحدانا
فكنت اصبر عنهم صبر محتسب
وأحمد الخطب فيهم عزأ وهانا
واقتردي بالورى قبلي فكم فقدوا
أخا وكم فارقوا أهلا وجيرانا
لكن سقب المنايا وسط جمعهم
رغافخروا على الأذقان اذعانا
وفاجأتهم من الأيام قارعة
سقتهم بكؤوس الموت ذيفانا
ماتوا جميعا كرجع الطرف وانقرضوا
هل ماترى تارك الحين إنسانا
اعزز علي بهم من معشر صبروا
على الحفيظة إن ذل لوثلة لانا
لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم
قلبا أجشمه صبرا وسلوانا
فلوراؤني لقالو مات أسعدنا
وعاش اللهم والاحزان اشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبرني
عنهم فيوضح ما قالوه تيانا
بادوا جميعا وما شادوا فواعجبا
للخطب أهلك عمارا وعمرانا

هذي قصورهم أمست قبورهم
كذلك كانوا بها من قبل سكانا

ويح الزلازل أفنت معشري فإذا
ذكرتهم خلتنني في القوم سكرانا
لألتقى الدهر من بعد الزلازل ما
حييت إلا كسير القلب حيرانا
أخنت على معشري الأدين فاصطلمت
منهم كهولا وشبانا وولدانا
لم يجمعهم حصنهم منها ولا رهبت
بأسا تناذرة الأقران أزمانا
إن افقرت شيزر منهم فهم جعلوا
منيع أسوارها بيضا وخرصانا
هم هوها فلو شاهدتهم وهم
بها الشاهدت أسادا وخفنانا
تراهم في الوري أسد ويوم ندى
غيثا مغيثا وفي الظلماء رهباننا
بنو أبي وبنو عمي دمي دمهم
وإن أروني مناة وشنأنا
يطيب النفس عنهم انهم رحلوا
وخلفوني على الآثار عجلانا (٨٠)

وكتب إليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها:
بأبى شخصك الذي لا يغيب
عن عياني فهو البعيد القريب
يا أخلاي بالشام إن غب—
ستم فشوقي إليكم لا يغيب
غصبتنا الأيام قريباكم من—
أولا بد أن ترد الغصوب

كره الشام أهله فهو محقو
ق بأن لا يقيم فيه ليب

إن تجلت عنه الحروب قليلا
خلفتها زلازل وخطوب
رقصت أرضه عشية غنى الـ
رعد في الجوّ والكريم طروب
وتنت حيطانه إذا مالتـ
ها شمال بزمرها وجنوب
لاهبوب لنائم من أمانـ
ه وللعاصفات فيها هبوب
وأرى البرق شامتاً حاك السـ
ن وللجوب الغمام قطوب
ذكروا أنه يذوب به السحـ
ب فما للصخور أيضاً تذوب
أبذنب أصابها قدر اللـ
ه فلأرض كالأنام ذنوب
إن ظني والظن مثل سهام الـ
رمي منها المخطئ ومنها المصيب
إن هذا الآن غدت ساحة القد
س ومال السلام فيها نصيب
منزل الوحي قبل بعث رسول اللـ
ه فهو المحجوج والمحجوب
نزلت وسطه الخنازير والخمـ
ر وبارى الناقوس فيه الصليب
لوراها المسيح لم يرض فعلا
ذكروا أنه له منسوب
لهف نفسي على ديار من السكـ
ان أقوت فليس فيها مجيب

أن تخصيصكم نوائب ما زلت لكم دون من سواكم تنوب

أبعد الناس عن عبادة رب الناس قوم إلههم مصلوب

فاحتسب ما أصاب قومك مجد الدين واصبر فالحادثات ضروب فذاك القنائة يكسر يوم الـ روع منها صدر وتبقى الكعوب

وقرأت في ديوان العرقلة كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيد غلام المولى، وكان عبيد هذا موصوفاً بالثقل في بيت بمدينة حماه يوم الزلزلة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هما فيه، فقال العرقلة:

قل لصلاح الدين رب الندى بلغ عبيدا كل ما أملته بثقله لما تصحاجتيا سلمك الله من الزلزلة

قرأت في بعض كتب أبي الحسين الرازي عن شيوخه أنه وقع بدمشق في ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة، حكى عنها نحو مما مضى ذكره، وأكثر، نسأل الله تعالى تمام العافية.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأول توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها، وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار من ناحية حمص وحماة باغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال،

وفي خامس عشر ربيع الأول ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أديران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجال فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماها فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كمناء من شجعان الأتراك، واندفع المسلمون بين أيديهم في أول المجال، وظهر عليهم الكمناء فأنزل الله نصره على المسلمين، بحيث لم ينج منهم إلا القليل، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لا يحصى كثرة، ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الأفرنج ومسلمي جبل عامل المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوماً مشهوداً، وأنفذ نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به،

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجم الغفير، واجتمعوا بنور الدين وتقررت الحال على قصد بلاد المشركين لتدوينها، والابتداء بالنزول على بانياس، وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياماً يسيرة ويتوجه، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث والمطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول، وفي

سابع ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابه الاعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هوتين في التركمان والعرب، بأن الأفرنج خذلهم الله تعالى أنهضوا سرية من أعيان مقدميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظنا منهم بأنهم في قل، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يبق منهم إلا اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الإثنين تالي اليوم المذكور.

قال: وتلا هذه الموهبة المتجددة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تنامي النقب وإطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب، وهجوم الرجال فيه وبذل السيف في قتل من فيه ونهب ما حواه، وانهمزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة الله تعالى لا يبطيء، والله يسهله ويعجله.

قال: واتفق بعد ذلك أن الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنصري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس، وقد أشرفوا على الهلاك وبأدروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين، فلم يجيبهم إلى ما سألوه ورغبوا فيه، فلما وصل ملك الأفرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازل على بانياس لحصارها، والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستخلصوا من كان فيها،

وحين شاهدوا ماعم بانياس من إخراج سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الاعلام بأنّ الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لما عرف أنّ معسكر الكفرة الأفرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور، من الاتراك و العرب، وجدّ في السير فلما شارفهم وهم غارون وشاهدوا راياته قد اظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحمام، فأنزل الله نصره على المسلمين وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا، واستأصلت السيوف الرجالة، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه الله فيهم، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله، والآخر غريب لا يعرف، وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمها الله، وقتل أربعة من شجعان الكفرة، وامتألت أيدي العساكر من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بالاتها المشهورة، وكان فتحا مبينا ونصراً عزيزاً، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعها راية من راياتهم منشورة، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدّة، والمقدمون منهم ولاة المعازل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة، وفي يده راية، والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحصى لهم من عدد: الشيوخ والشبان والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المين وأكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي

عنهم المرامي دونهم، والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنة ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

ما رأينا فيما تقدم يوماً
كامل الحسن غاية في البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم
ذلّة الأسر والبلا والفناء
وبراياتهم على العيس زفوا
بين ذلّ وحسرة وعنساء
بعد عزهم وهيبة ذكر
في مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هلك الأعادي
عند شنّ الاغارة الشعواء
شؤم أخذ الجشار كان وبالا
عمهم في صباحهم والمساء
نقضوا هدنة الصلاح بجهل
بعد تأكيدها بحسن الوفاء
فلقوا بغيتهم بما كان منهم
من فساد بجهلهم واعتداء
لاحى الله شملهم من شتات
بمواضع تفوق هذا المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسّر
وجزاء الشكر خير الجزاء
ولرب العباد حمد وشكر
دائم مع تواصل النعماء

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملكها وتدوينها، والله المعين والموفق.

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا وأكثروا العيث، واتصل ذلك بنور الدين فأنهض إليهم عسكرا كثيفا فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس، وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشد حصار حتى افتتحها في الثامن والعشرين من ربيع الأول، وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها، واتصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج فلبس لأمته، وتقدم في جماعة من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرجال بلقاء الفرنج وناجزهم الحرب فلم يتماسكوا بين يديه ورجعوا على أدبارهم، وتبعهم مقدار فرسخين يقتل ويأسر، وغنم منهم غنيمة حسنة، وعاد إلى أصحابه ظافراً، وتوجه في وجهته مؤيداً.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وفي الثاني عشر من جمادى الآخرة، تواصلت الأخبار بوصول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنزول على أنطاكية، وأوجبت الصورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الأفرنج، وتكررت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات بحيث فسد الأمر، ولم يستقر على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرّ عزه في بعض عسكره، وأقر باقيه ومقدميه مع العرب بازاء أعمال المشركين.

قال: وفي ثالث رجب توجه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها، لتجديد مشاهدتها، وإمعان النظر في حمايتها عندما عاث المشركون فيها، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها ثم قال بعد ذلك: قد تقدم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بلاد الشام عند إنتهاء الخبر إليه بتجمع أحزاب الفرنج خذلهم الله وقصدهم لها وطمعهم

بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثورها لحمايتها والذب عنها، وإيناس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفر طاب وحماه وغيرها، بحيث اجتمع إليه، العدد الكثير والجم الغفير من رجال المعقل والأعمال والتركمان، وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد، فلما اشتد به وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدمين وأوصى إليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرّر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده، والساد لثمة فقد، لاشتهاره بالشهامة، وشدة البأس، ويكون مقبلاً بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة، فلما تقرّرت اشتدّ به المرض فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها، من فساد الأفرنج، وتواصلت الأراجيف بنور الدين فقلقت النفوس، وازعجت القلوب فتفرقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا، وتجمع من عدّة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلة وغيرهم وظهروا عليهم، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر، واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب، فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه، فنارت أحداث حلب وقالوا : هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه، فزحفوا في السلاح إلى باب البلد وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والانكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين بحي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره، وأنفذ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حيّ في نفسه، وما

كان إلى ما فعل حاجة، فقليل: الذنب في ذلك للوالي، وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال له، فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفح للآحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل، وما طلبوا إلا صلاح حال أخي وولي عهدي من بعدي، وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصرفت الهمم إلى مكاتبات المقدمين بالعود إلى جهاد الملاحين، وكان نصره الدين قد ولي مدينة حران وما أضيف إليها وتوجه نحوها، ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزاه على استدعاء العساكر الإسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب ووصل إليها في خيله، فاجتمع بنور الدين، فأكرم لقياه وشكر مسعاه وشرعوا في حماية الأعمال من شرّ عصب الكفر والضلال.

قال: ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حسنت صفاتك يا زماني
وفزت بهارجوت من الأماني
فكم أصبحت مرتاعا للخوف
فبدلت المخافة بالأمان
وجاءتنا أراجيف بملك
عظيم الشأن مسعود الزمان
فروعت القلوب من البرايا
وصار شجاعها مثل الجبان
وثارت فتنة تحشى أذاها
على الاسلام في قاص ودان
ووافي بعد ذاك بشير صدق
بعافية المليك مع التهاني
فولى الخوف منهم الملباني
وعاد الأمن معمورا المغاني

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزر، فخرج نور الدين وأخذها من بني منقذ، وسلمها إلى مجد الدين بن الداية، وسار إلى سمرين، لأنه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هناك مرض أشفى منه، فأحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وأن يكون الأمر بعده لأخيه نصره الدين أمير ميران، فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصفرخوفا أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين، فعاد إلى خدمته مهنتاً بالعافية، وكان أخوه نصره الدين قد حاصر قلعة حلب في مدة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره إلى حران، وجعل ولي عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار، وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من خلب وغيرها، والداخلين إليها.

قلت: ولا بن منير تهنته لنور الدين من مرض غير هذا:
يا شمس لا كسف ولا تكدار
ولا خلعت من نورك الانوار
البدر منقوص وأنت كامل
لك السرايا وله السرار
برؤك لاسلام من أدوائه
بروفي أعداؤه بوار
ما أنت إلا السيف صمد
عن متنه مضربه البتار
لو كان محمولا أذى عن منفس
لحملته دونك الابصار
ولو فدت أرض السماء ساقت الـ
ملوك في فدائك الامصار

أنت غياث محلهم إن أجذبوا
وخيرهم إن ذكر الخيـار
وفي سرير الملك منها ملك
لـلـه في سرائه اسرار
خير ملك الأرض جد أو أبـا
إن هـز عطفـي ما جد نجـار
مد على الـدين رواق دولـة
تنازعـت أسـارها السـار
علت بناياه وحلت في يده
فهـي عليه السـور والسـوار
محمود المحمود عصر ملكه
فللحيـا من مـزنه اعتصـار
يانور دين أظلمت آفاقه
لو لم تبلـج هـذه الاثـار
للـه أيامك ما تخطـه
بالمسك من اسفارها الاسفار
سلمت لاسلام ترعى سرحه
إذا ونى رعائـته وجـاروا
شكوت فالدينـا على سـكانها
قـرارة جانـبها القـرار
كادت تموت الأرض من اشفاقها
لـولا شفـاء رـدها القـرار
زرت عليك الترك حبيب نسب
يحسدها بـزيه نـزار
لاعدمت منك الأماني ربا
معطى من الاقبال ما تختار
ما سمح الدهر بان تبقى لنا
فكل جرح مسنـا جـار

لَا نُوَدِّي لَانَعَمَ اللَّهُ شَكَرًا
بِكَ يَا أَكْظَمَ الْبَرِيَّةِ قَدْرًا
زُورَ عَشْرَ وَافِي لَاقِظًا
جَعَلَ الْمُنْمَةَ الْمُنْمَةَ الْمُنْمَةَ عَشْرًا
أُمَ مَغْنَاكَ ضَامِنًا أَنْ أَيْبَا
مَكَ تَفْنِي الْأَحْقَابَ عَصْرًا فَعَصْرًا
فِي مَحَلٍّ لَهُ السَّمَاءُ كَانِ سَمَكًا
وَجَدَ دَوْلَهَا الْمَجْمُوعَةَ مَجْرِيًا
أَيُّهَا الْعَادِلُ الْمَظْفُورُ لَاقِظًا
صَتَّ شَبَابُ الدَّهْرِ مِنْ شَبَابِكَ ظَفْرًا
جَعَلَ اللَّهُ مَا اسْتَهْلَ مِنْ الْأَشْجَارِ
مَهْرِيْنَهُ لِي فِي مَغَازِيكَ نَصْرًا
أَبَدًا يَنْشُرُ التَّهْلُوكَ عَلَيَّ سَا
حَتَّى كَالزَّهْرِ فِي الْمَوَاسِمِ نَشْرًا
أَنْتَ أَسْرَى الْمُلُوكِ نَفْسًا وَقِنْسًا (٨١)
وَالِإِلى أَسْرِهِمْ مِنْ الطَّيْفِ أَسْرَى
مَلِكًا عِنْدَهُ الْمَشَارِبُ تَسْتَمُّ
رِيًّا وَخِلَافُ الْجُودِ تَمْرِي فَتَفْرَى
فَلَكَ اللَّهُ مِنْ مَثْمَرِي بَذْرًا
يَصْطَفِي صَالِحًا وَيَحْصِدُ أَجْرًا
عَشَّ لِلْمَلِكِ أَصْبَحْتَ فِي الدُّسْتِ مِنْهُ
فَوْقَ كَسْرِي عَدْلًا وَشَعْبًا وَكُسْرًا
تَفْطُرُ الطَّيِّبَاتِ لِلْفُطْرِ فُطْرًا
وَتَعْمُ الْأَعْدَاءُ فِي النَّحْرِ نَحْرًا
يَقْتَنِي مِنْ كَسَاكَ أَنْفَسَ مَلْبُورًا
مِنْ وَيَقْنِيكَ مِنْهُ أَطْوَلَ عَمْرًا

أنت تملي ونحن ننظم ماتنـ
شـره الغـرمـن مساعـيك نـثـرا
صـرف اللـه عـنـك عـين زـمـان
بـك صـارت بـعد الاـصـابة عـبرـى
وتـوالـى لـك الفـتـوح إـلى أن
تـمـلـا الخـافـقـين نـهـيـا وأـمـرا
كـلـمـا انـهـجـت مـلـابـس نـعـمـى
وتمـلـيتـهـن جـدـدت أـخـرى

وقال القيسراني من قصيدة:
أشرق البدر يـاجـين الـهـلال
فجـلـاه لـوجـهـك المـتـلـالـي
عـن لـيـال حـجـبـن عـنـا سـنـاها
إنـمـا غـيـبـة الـهـلال لـيـالـي
لـم يـكـن مـا أـلـم يـا نـجـم شـكـوى
فـتـهـنـى لـو افـد الـاقـبال
لـا و لا كـان زائـر مـن سـقـام
إنـمـا كـان طـائـفـا مـن خـيال
وعـكـة أـقـلـعت وأنت صـحـيح
ويـصـح النـسـيم بـالـاعـتـلال
أومـا هـذه السـمـاء سـرـار الـ
بـدـر فـيـهـا عـلى طـرـيق الكـمـال
نـعـمـة اللـه لـا يـخـص بـها الخـا
لـق الـامـن كـان مـنـه بـيـال
ولـبـاس مـن المـثـوبـة والغـفـ
رـان ألبـست صـافي الـاذيـال
فـهـنـئـك البـقـاء وإن كـا
ن هـنـاء يـخـص فـيـه المعـالي

والتقى والندى ومعرفة الخبيـ
ل ويبيض الظبي وسمير العوالي

والخلال التي إذا ما تحللت
صدرت منك عن كريم الخلال
إن وقتك النفوس ما تتوقى
فحقيق فـدى الموالى الموالى
أو تحصنت في شعار من التقـ
وى فما زلت منه في سربال
فشفى الله من أجل دوائـ
يه صريح الدعاء والابتغال
ملكاً أبداً المخافة بالامـ
ن وأضحى يعد في الأبدال
وهو تاج الملوك فالملك العا
طل حال به على كل حال
وإذا النيران غابا ففسور الـ
ن شمس فجرته الأصال
قد أرت وجهك العلى ما يريها
وهي مرآة صالـح الأعمال
وقضى الله أن نجمك في الأنجـ
م سام وأن جدك عال
كل يوم هذا المحيا محيى
بالتنهاني على يد الأقبال

فصل

في ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ

قال ابن الأثير: وهو حصن قريب من حماء بينهما نحو من نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه، وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقي به مدة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجاعاً كريماً صواماً قواماً، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي وهو والد أسامة، فقال: واللّه لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها، وكان عالماً بالقرآن والأدب، كثير الصلاح، فولأها أخاه أبا العساكر سلطان بن علي، وكان أصغر منه فاصطحبها أجمل صحبة مدة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور فكبروا وسادوا منهم: عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد، فحسد أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صغر أولاد أخيه وسيادتهم ساء ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبيات جيدة في معناها، وكلهم كان أدبياً شاعراً فمنها:

ظلموم أبست في الظلم إلتاماديا
وفي الصدد والهجران إلتناهيها
شكت هجرنا في ذاك والذنب ذنبها
فيا عجباً من ظالم جاء شاكيها

وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولاً في هواها وواشياً
ومال بها تيه الجمال إلى القلا
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا
ولأناسيما أودعت من عهدها
وإن هي أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه لي والمعاني
وكنت هجرت الشعر حيناً لأنه
تولى برغمي حين ولى شبايبا
وأيمن من الستين لفظ مفوف
إذا رمت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخي يرعى بني واسري
ويحفظ عهدي فيهم وذمما
ويجزهم ما لم أكلفه فعله
لنفي فقد أعدته من تراثيا
فمالك لما أن حنى الدهر سعدتى
وثلم مني صار ما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك مني جفوة وتنائيا
فأصبحت صفر الكف مما رجوته
كذا اليأس قد عفى سيل رجائيا
على أننى ما حلت عما عهدته
ولا غيرت هذي السنون وداديا
فلا غرو عند الحادثات فإنني
أراك يمينى والانام شماليا
تمن بها عذراء لوقرننت بها
نجوم سماء لم تعد دراريا

تحلت بدر من صفاتك زانها
كما زان منظوم السلاكي الغواني
وعش بانيا للجود ما كان واهنا
مشيد آمن الاحسان ما كان واهيا

قال: وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد، بعض الستر فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الأيام بينهم إلى أن قوي عليهم، فأخرجهم من شيزر، وكان أعظم الاسباب في إخراجهم ما حدثت به عن مؤيد الدولة أسامة ابن مرشد، قال: كنت من الشجاعة والاقدام على ما علمه الناس، فبينما أنا بشيزر، وإذا قد أتاني إنسان أخبرني أن بدحلة بغار بها أسد ضاريا، فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله، ولم أعلم أحداً من الناس لئلا أمتع من ذلك، فلما قربت من الأسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه، فلما رأي قصدي، ووثب فضربته بالسيف على رأسه فانفلق، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاه فرسي وعدت إلى شيزر، ودخلت على والدتي وألقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال، فقالت : يا بني تجهز للخروج من شيزر، فوالله لا يمكنك عمك من المقام ولا أحداً من أخوتك وأنتم على هذه الحال من الاقدام والجرأة ، فلما كان الغد أمر عمي باخراجنا من عنده وألزمنا به إلزاما لامهلة فيه، ففترقنا في البلاد، فقصدوا الملك العادل نور الدين وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى أوطانهم لاشتغاله بجهاد الفرنج والخوفه من أن تسلم شيزر إلى الفرنج، وبقي في نفسه، وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج، فاشتد ما في نفسه، وهو ينتظر الفرصة، فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحد كان بالحصن، فبادر إليها وملكها وأضافها إلى بلاده وعمرها وأسوارها وأعادها كأن لم تخرب، وكذلك أيضا فعل

بمدينة حماه وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

قلت: وسياقي ذكر اسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين،
وهي السنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من
شيزر استوطن دمشق، ثم فارقه إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين
الدين أنر أتاك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدة أولها:
ولو افلما أرجو ناعدهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مريوما بفكري ما يريهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ولا أطلعت
على ودائعهم في صددري التهم
فليت شعري بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدهم عن وصلي السام
حفظت ما ضيعوا أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا واصلت إذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم
ما الرزق إلا الذي يجري به القسم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا لقلت هم
لهم مجال الكرى من مقلتي ومن
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبذلوا بي ولا ابغني بهم بدلا
حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا
بلغ أميري معين الدين مألوفة
من نازح الدار لكن وده أمم
وقل له أنت خير الترك فضلك الـ
حياة والدين والاقدام والكرم

هـ لا أنفت حياء أو محافظـة
 من فعل ما أنكرته العرب والعجم
 اسلمتننا وسيف الهند مغمدة
 ولم يرو سنان السم هـ ري دم
 وكنيت أحسب من والاك في حرم
 لا يعتريه به شيب ولا هم
 وما طمان بأولى من أسامة بالـ
 وفاء لکن جرى ابالكائن القلم
 هنا جنينا ذنوباً لا يكفرها
 عذر فماذا جنى الأطفال والحرم
 القيتهم في رضى الأفرنج متبعاً
 رضى عدى يسطو الرحمن فعلهم
 جرهم مثل تجريبي لتخبرهم
 فللرجال إذا ما جريوا قيم (٨٢)

وهي طويلة، وطمان المذكور خادم تركي كان لأتابك ملك الأمراء
 زنكي بن أق سنقر، هرب من خدمته إلى دمشق فطلبه ولج فيه، فاشتمل
 عليه معين الدين للجنسية وحماه، فلما لج فيه سيره إلى العرب وقام له بها
 يحتاج إلى أن رده لخدمته بدمشق، وبقي أسامة بمصر إلى أن خرج منها
 مع عباس كما سبق ذكره، وأسر الفرنج أخاه نجم الدولة محمد بن
 مرشد، وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر
 الاعانة في فكاه، فلم يفعل، قال: وأدخر الله سبحانه أجر خلاصه
 وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه الله فوهبه فارساً من مقدمي
 الداوية يقال له المشطوب، قد بذل الأفرنج فيه عشرة آلاف دينار
 فاستخلص به أخاه من الأسر، وبلغ أسامة أن القاضي كمال الدين بن
 الشهزوري أنشد نور الدين:

ملك بني منقذ تولى
 وكان فوق السماك سمكه

فَاعْتَبِرُواوَانْظُرُوا وَقُولُوا
سُبْحَانَ مَنْ لَا يَزُولُ مَلَكُهُ

والمعروف ملك بني برمك فغيره المنشد لما تمثل به في غرضه فأجازهما
أسامة بهذه الأبيات:

وَكَلَّ مَلِكٌ إِلَى زَوَالٍ
لَا يَعْتَرِي ذَا الْيَقِينِ شَكٌّ
إِنْ لَمْ يَزَلْ بِأَنْتَقَالَ حَالٌ
أَزَالَ ذَا الْمَلِكِ عَنْهُ هَلَكُهُ
وَاللَّهِ رَبُّ الْعِبَادِ بَاقٍ
وَهَذَا لَكَ نَسْدُهُ وَشَرْكُهُ
فَقُلْ لِمَنْ يَظَلُّمُ الْبَرَايَا
غَرَّكَ أَمُّهَا لَسْتُ وَتَرْكُهُ
تَنْسَى ذَنْبًا عَلَيْكَ تَحْصِي
يَحْصُرُهَا نَقْدُهُ وَحُكْمُهُ
كَمْ نَاسٌ لَكَ نَسْكُهُ رِيَاءٌ
أَوْ بَقِيَّةٌ فِي الْمَعَادِ نَسْكُهُ
فَاحْذَرْ فَمَا يَخْتَفِي عَلَيْهِ
مَنْ عِنْدَهُ صَدَقُهُ وَافْكُهُ

وما أحسن ما قال أسامة في كبره:
مع الثمانين عاث الضعف في جلدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي خط مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القنأ في لبة الأسد
وإن مشيت وفي كفي العصا ثقلت
رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد

فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد (٨٣)

فصل

في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: تناصرت الأخبار بظهور أمير المؤمنين المقتضي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضم إليه من عسكر الموصل وغيره بحيث قتل العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرقين مفلولين خاسرين بعد المضايقة والتناهي في المحاصرة والمصابرة.

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب ب وفاة السلطان غياث الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خراسان، عقيب خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي حصل فيه، وكان يجب العدل والانصاف للرعايا وحسن السيرة، جميل الفعل، وقد علت سنة وطال عمره، وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من هذه السنة إلى نور الدين بالتشوق إليه والإحاحاد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما من الله عليه به من خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي يلي به في أيدي الأعداء الكفرة من ملوك التركمان، بحيلة دبرها وسياسة أحكمها وقررها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه.

قال: وفيها في شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب ب وفاة الشيخ مخلص الدين أبي البركات عبد القاهر بن أبي جرادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين، وكان كاتباً بليغاً حسن البلاغة نظماً ونثراً مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء.

قال: وفي رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصرى بأن واليها فخر الدين سرخاك قتل غيلة بموافقة من أعيان خاصته، وكان فيه إفراط في التحرز واستعمال التيقظ، ولكن القضاء لا يغالب ولا يدافع.

قال: وفيها في أوائل ذي القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقب بصلاح الدين، وكان في أيام شببته قد حظي في خدمة عماد الدين زنكي وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير، وحسن السفارة، وصواب الرأي، ولما علت سنة ضعف عن ركوب الخيل وألجأته الضرورة إلى الحمل في المسحفة لتقرير الأحوال، والنظر في الأعمال ولم ينقص من حسه وفهمه ما ينكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولاده في منصبه وولايته.

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة فقهاء بلخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغته العربية والفارسية، والإسراع في جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلما في كتابته أبو الحياة محمد ابن أبي القاسم بن عمر السلمى، ووعظ في جامع دمشق عدة أيام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلطة لسانه وسرعة جوابه، وحدة خاطره، وصفاء حسه.

قال ابن الأثير: وفيها في ذي الحجة توفي الأمير عز الدين أبى بكر الديسى، صاحب جزيرة ابن عمر، وكان من أكابر الأمراء يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلا حازما ذا رأي وكيد ومكر، ومملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل أخو نور الدين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام، خذلهم الله تعالى بمضايقتهم لحصن حارم، ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق إلى أن ضعف، وملك بالسيف، وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرق العساكر الإسلامية، والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقاييل المرض العارض له، ولله المشيئة التي لا تدافع، والأقضية التي لا تمنع.

قال: وفي صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدين من حلب للتوجه إلى دمشق، واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شن الغارات على أعمال حوران والاقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والاختراب في الضياع، والنهب والسبي والأسر، وقصدوا داريا للنزول عليها في انسلاخ صفر، وإحراق منازلها وجوامعها والتناهي في إخراجها، وظهر إليهم العسكرية والأحداث، وهموا بقصدهم والاسراع إلى لقاءهم وكفهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكفار خذلهم الله تعالى كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الاقليم، ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعة سادس ربيع الأول سالماً في نفسه وجملته، ولقي بأحسن زي وترتيب وتجميل، واستبشر العالم بمقدمه المسعود وابتهجوا وبالغوا في شكر الله تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه، وشرع في تدبير أمر الأجناد والتأهب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان وأغاروا على أعمالها، وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلاً وأسراً

بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين، وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى، وعاد ظافرا غانما.

قلت : وأرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة، يشرح فيها حال هذه الغزاة، ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما منّ الله تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها، وكان كثيرا ما ي كاتبه طالبا منه إعلام نور الدين بالغزاة لحثه عليها وأول هذه القصيدة:

ألاهـكـذا في الله تمضي العـزائم
وتنضي لدى الحرب السيوف الصوامر
وتستنزل الأعداء من طول عزهم
وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزي جيوش الكفر في عقردارها
ويوطئ حماها والأنوف رواجم
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم
وإن بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش في صفرفما
مضي نصفه حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا
مفاوز وخد العيس فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى
عزيمته جهـد الظما والسائم
يهجر والعصفور في قعر وكره
ويسري إلى الاعـداء والليل نائم

يبارى خيولاً ماتزال كأنها
إذا ما هي انقضت نسور قشاعم
يسير بها ضرغام في كل مارق
وما يصحب الضرغام إلا الضراغم
ورفقتة عين الزمان وحاتم
ويحيى وإن لاقى المنية حاتم
وواجههم جمع الفرنج بجملته
تهون على الشجعان فيها الهزائم
فلقوههم زرق الاسنة وانطوا
عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
وما زالت الحرب العوان أشدها
إذا ما تلاقى العسكر المتضاجم
يشبههم من لاح جمعهم له
بلجة بحر موجهات متلاطم
وعادوا إلى سل السيوف فقطعت
رؤوس وحزت للفرنج غلاصم
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر
ولا قيل هذا وحده اليوم سالم
نقتلهم بالرأي طوراً وتارة
تبدوسهم من المذاكي الصلادم
فقلوا والنور الدين لأقل حده
ولاحكمت فيه الليالي الغواشم
تجهز إلى أرض العدو ولا تن
وتظهر فتورا ان مضت منك حارم
فما مثلها تبدي احتفالاً به ولا
يعرض عليها للملوك الاباهم
فعندك من الطاف ربك مابه
علمنا يقينا أنه بك راحم

أعداك حيا بعد أن زعم السورى
بأنك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها
وحلت بها تلك الدواهي العظام
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر
فسقت سبايا واستحلت محارم
وقد كان تاريخ الشام وهلكه
ومن يحتويه أنه لك عادم
فقم واشكر الله الكريم بنهضه
إليهم فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدت نروعههم
ونحلف جهدا أننا لانسالم
وغاراتنا ليست تفتر عنهم
وليس ينجي القوم منا الهزائم
فاسطولنا أضعاف ما كان سائرا
إليهم فلا حصن لهم منه عاصم
ونرجو بأن يحتاج باقيهم به
وتحوى الأسارى منهم والغنائم

وكتب إليه أيضا:

ياسيد اسمهم —————
ته إلى الرتب العليه
فينال منهم —————
م غيره أوفى م —————
أنت الصديق وإن بعد
ت وصاحب الشيم الرضيه
نبيك إن جي —————
فعلت فعال الجاهلية

سـارت إلى الأعـداء مـن
أبـطـالها مـائـتـا سـريـه
فـتـغـير هـذي بـكـرة
وتـعـاود الأـخـرى عـشـيه
فـالـوـيـل مـنـهـا لـلـفـرنـ
جـقـقـد لـقـوا جـهـد البـليـة
جـاءت رـؤـسـهـم تـلـو
حـعـلى رـؤـوس السـمـهـر يـة
وقـلـائـع قـد قـسمـت
بـين الجـنـود عـلى السـو يـه
وـخـلـائـق كـثـرت مـن الـ
لـأسـرى تـقـاد إلى المـنـيـة
فـانـهـض فـقـد أنـيـت مـجـ
بـالـديـن بـالـحـال الجـليـه
وألـم بـنـور الـديـن واعـ
لـمـهـا تـيـك القـضـيـة
فـهـو الـذي مـازال تـحـ
لـص مـنـهـا فـعـالـا ونيـه
ويـيـد جـمـع الكـفـر بـالـ
بـيـض الـرقـاق المـشـرفـيـه
فـعـسـاه يـنـهـض نـهـضـة
يـفـنـي بـها تـلـك البـقـيـة
إـمـ النـصـرة دـيـنـهـ
أـو مـلـكـهـا أولـلـحـمـيـه

وكتب إليه أيضا يقول:
أيها المنقـذي أنت على البـعـ
د صـديـق لـنا و نـعم الصـديـق

ملك عادل أنار به الـديـ
من فعم الاسلام منه الشروق
ماله عن جهاده الكفر والعد
ل وفعمل الخيرات شغل يعوق
هو مثل الحسام صدر صقيل
لين مسسه وحـدـزليـق
ذو أنـاة يخالها الغـراهما
لا وفيها حتف الأعادي المحيق
فاسلم الاسلام كهفين ماطـ
ـرز ثوب الظلام برق خفوق (٨٤)

وكتب إليه أيضا:
قل لابن منقذ الذي
قد حاز في الفضل الكمالا
فلذاك قد أضحى الأنـا
م على مكـارمه عيـالا
كم قد بعثنا نحوك الـ
الأشعار مسرعة عجالا
وصددت عنها حين را
مت من محاسنك الوصالا
هـلا بذلت لنا مقـا
لا حين لم تبـذل فعـالا
مع أنـنا نوليـك صبـا
را في المودة واحتـالا
ونبشـك الأخبـار إن
أضحيت قصـارا أو طـوالا
سارت سرايـنا القصـا
ـد الشام تعتسف الرمالا
تزجي إلى الأعـداء جر
د الخيل اتبـاعا تـوالا

تمضي خفافا للمغنا
ر بها وتأتينا ثقالا
حتى لقد رام الأعنا
دي من ديارهم ارتحالا
وعلى العيرة معشر
لم يعه دوا فيه القتالا
لما نأت عم ن يح
نهضت إليه اخيلنا
من مصر تحتمل المرجالا
واليض لامعة ويينا
ض الهند والاسل النهالا
فغدت كأن لم يعه دوا
في أرضه احيا حلالا
هذا وفي تل العجرو
ل ملأن بالقتلى التلالا
إذ مر مرري ليس يلا
وي نحور رفقتة اشتغالا
واستاق عسكرنا الله
أهلا يحبه م ومالا
وسرية ابن فرنج الطا
ئي طال بهم وصالا
سارت إلى أرض الخليا
ل فلم تدع فيها خلالا
فلو أن نور الدين يح
ل فعلنا فيه م مثالا
ويسير الاجنأد جه
رأكي ينأز لهم نزالا
ووفى لنا ولأهل دول
ته بما قد كان قالا

لرأيت للافرنج ط
رأفي معاقله واعتقالا
وتجهزوا للسير نح
والغرب أوقص ودوا الشمالا
وإذا أبى الاطرا
حالا للنصيحة واعتزالا
عدنا بتسليم الأمو
ر لحكم خالقنا تعالى

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:
يا أشرف الوزراء أخ
لاقا وأكرمهم فعلا
نبهت عبدا طالما
نبهته قه قدرا وحالا
وعتبت به فأنلت به
فخرنا ومجدنا نينا
لكن ذاك العتب يش
لعل في جوانبه اشتعالا
أسفنا لجد حال عنا
له إلى مساءته ومالا
أما السرايا حين تر
جسع بعد خفتها ثاقالا
فكذلك عاد وفود بنا
بك مثقلين ثنا ومالا
ومسيرهم في كل أر
ض تبغى فيهم المجلالا
فكذلك فضلك مثل عد
لك في الدنيا سارا وجالا
فاسلم لنا حتى نرى
لك في بني الدنيا مثالا

واشدد يد يدك بـودنو
رالدين والقبه الرجال
فهو المحامي عن بلا
دالشام جمعاً أن يذالا
وميد املاك الفرز
ج وجمعهم حالاً فحالا
ملك يتيه الدهر والدن
يا بدولته اختيالا
جمع الخلال الصالحا
ت فلم يدع منها خالالا
فلإبدال النظار
ن رأت عيـونهم الكمالا
فبقيتا للمسلم
ين حما وللدين اجمالاً (٨٥)

وكتب إليه الصالح من قصيدة تقدّم ذكرها في الزلازل:
ولعمري إن المناصب في الديـ
ن على الله أجـره محسوب
وجهاد العدوّ والفعل والقو
ل على كل مسلم مكتوب
ولك المرتبة العلية في الامـ
ر ين مذكنت إذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع مالك في الطعـ
ن ولا في الضراب يوم ما ضرب
وإذا ما قرضت فالشاعر المـ
لق فيما يـقوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لا ينـ
كر إن التدبير منك مصيب

لك رأي بقطان إن ضعف الرأ
ي على حاملي الصليب صليب
فانهض الآن مسرعاً فبأمشا
لك ما زال يدرك المطلبوب
ألق منارسالة عند نورالديـ
من مافي القاءها ما يريب
قل لله دام ملكه وعليه
من لباس الاقبال برdqشيب
أيها العادل الذي هو للديـ
من شباب وللحروب شيب
والذي لم يزل قديماً عن الاسـ
سلام بالعزم منه تجلى الكروب
وغدا منه للفرنج إذا لا
قوه يوم من الزمان عصيب
إن يرم نرف حقدهم فلا شطا
ن قناه في كل قلب قليب
غيرنا من يقول ما ليس يمضيـ
به بفعل وغيرك المكذبوب
قد كتبنا إليك ما أوضح الآ
ن بما اذا عن الكتاب تريب
قصدا أن يكون منا ومنكم
أجل في مسيرنا مضرروب
فلدينا من العساكر ما ضا
ق بأدناهم الفضاء الرحيب
وعلينا أن يستهل على الشا
م مكان الغيوث مال صيب
أوتراها مثل العروس تراها
كله من دم العدا مخضوب

سار في قلعة وما زال باللّـ
— به وصدق النيات تنمى القليل
ويقايا الاسطول ليس له بعد
— دل إلى جانب الشام وصرول
فحوى من عكا وانظر سوس
— عذّة لم يحط بها التحصيل
جمع ديوية بهم كانت الافـ
— رنج تسطو على السورى وتصول
قيدي وسطهم مقدمهم يـ
— دى إلينا وجيده مغلول
بعد مشوى جماعة هلكوا بالـ
— سيف منها الغريق والمفلول
هذه نعمة الاله وتعدى
— دأيادي الاله شيء يطول
أبلغن قولنا إلى الملك العا
— دل فهو المرجو والمأمول
قل له كم تماطل الدين في الكفـ
— ار فاحذر أن يغضب الممطول
سر إلى القدس واحتسب ذاك في اللّـ
— به فبالسير منك يشفى الغليل
وإذا ما أبطام سيرك فاللّـ
— به إذا حسبنا ونعم الوكيل

فأجابه أسامة بقصيدة منها:
يا أمير الجيوش يا أعدل الخـ
— كام في فعله وفيما يقـول
أنت حليت بالمكارم أهل الـ
— عصر حتى تعرف المجهول

وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ
— من فـهـذا عـان وهـذا قـتـيل
بالغ العبد في النيا بة والتـ
— رـيـض وهـو المـفـوّه المـقبـول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا
دت لـه الأرض والجبال تمـيل
وإذا عاقت المقادير فاللـ
— هـ إذا حسبنا ونعم الوكيل (٨٦)

وكتب الصالح إليه جوابا قصيدته الطائية التي أولها:
هي البدر لكن الثريا لها قرط
ومن أنجم الجوزاء في نحرها سـمـط

ثم قال بعد وصف السيوف:
ذخرنا سـطـاهـا للفرنج لأنها
بهم دون أهل الأرض أجـدر أن تـسـطـو
وقد كاتبوا في الصلح لكن جـوا بـهم
بحضرتنا ما يـنـبـب الخط الا الخط
سطور خيول لا تغيب ديارهم
لها بالمواضي والقنا الشـكـل والنقـط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاحـا
أثـيـاف أسنان الرماح لها مشـط
رددنا به ابن الفنـش عـنا وإـنا
يـثـيـتـه في سـرـجـه الشـدّ والـرـبـط
فقولوا لنور الدين ليس لجائف الـ
— جـرا حـات إلا الكـي في الطـب والبـط (٨٧)
وحسم أصول الداء أولى بعـاقـل
ليـب إذا سـتـولى على المـدـنـف الخـلـط
فدع عنك ميلا للفرنج وهـدنة
بها أبدا يحظى سواهم ولم يحظوا

تأمل فكم شرط شرطت عليهم
قد بياوكم غدربه نقض الشرط
وشمر فانا قد اعنا بكل ما
سألت وجهزنا الجيوش ولن يبطلوا^(٨٨)

قال العماد في كتاب الخريدة: الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك
سلطان مصر في زمان الفائز، وأول زمان العاضد، ملك مصر، واستولى
على أمر صاحب القصر، ونفق في زمانه النظم والنثر، وقرب الفضلاء،
واتخذهم جلساء، ورحل إليه ذوو الرجاء، وأفاض على الداني والقاصي
العطاء، وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه
بنصر الاسلام، وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته، وإحكام معاني
حكيمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال إن المهذب ابن الزبير كان ينظم له
وأن الجليس بن الحباب كان يعينه، وله ديوان كبير وإحسان كثير، ولما
جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة:
انظر إلى ذي الداركم

قد حل ساحتها وزير
ولكم تبخر آمنا
وسط الصفوف بها أمير
ذهبوا فلا والله ما
يقي الصغير ولا الكبير
ولمصل ما صاروا إلي
من الفناء غدا نصير^(٨٩)

فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيع الأول من ناحية حلب
بحدوث زلزلة هائلة روعت أهلها وأزعجتهم، وزعزعت مواضع من

مساكنها، ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى، وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة في دمشق روعت واقلقت ثم سكنت.

وفي التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفر، وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم، فغنموهم، وقتل أكثرهم، وأسر الباقون، وفيهم ولد المقدم المتولي حصن حارم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارس واحد.

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأول جمادى الآخرة من السنة وافي البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر، كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء، ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق، وكثر التعجب من آثار قدرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفي الليلة الثالثة والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغداة، وورد الخبر من العسكر المنصور بأن الفرنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان، واتفق أن عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المتقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتا في مكانه في عدّة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام، ونجى الله وله الحمد نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى،

وشدة بأسه وثبات جاشه ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيمه سالماً في جماعته، ولأم من كان السبب في اندفاعه بين يدي الفرنج، وتفرق جمع الفرنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصلح والمهادنة، وحرص على ذلك، وترددت بين الفريقين مراسلات ولم يستقر بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالماً.

قلت: وذكر أبو الفتح بحر بن أبي الحسن بن بحر الاشرقي المعهد كان بالمدرسة النظامية في سيرة مختصرة جمعها لنور الدين وقد تقدّم شيء منها رحمهما الله قال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة، ففضى الله بانهمزام عسكر المسلمين وبقي الملك العادل مع شردمة قليلة وطائفة يسيرة واقفا على تل يقال له تل حيش، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجاله المسلمين مع رجاله الكفار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولياً وجهه إلى قبلة الدعاء، حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه يقول: يارب العباد، أنا العبد الضعيف ملكتي هذه الولاية، واعطيتني هذه النيابة، وعمرت بلادك ونصحت عبادك وأمرتهم بما أمرتني به، ونهيتهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد إنهمز المسلمون وأنا لأقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم، ولا أملك إلا نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذابا عن دينك وناصراً لنبيك، فاستجاب الله دعاءه وأوقع في قلوبهم الرعب وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الاقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما قدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان

منهم يجولان بين الصفيين يطلبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد مولى الشهيد بالخروج إليهما فخرج وجال بينهما ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع إلى قريب صف الكفار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه السلام قال: كان أعطاني ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها، يعني في ذلك اليوم واقفا مع الملك العادل، فلما وصل الكفار، وقربوا منا شمت البغلة رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة، فتحقق ذلك في قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه.

قال فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا إليه وباسوا الأرض بين يديه وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع، وفي هذا الاقليم فإن جرى والعياذ بالله وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلف هذا الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع، فلما عرف الكفار ذلك وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ندموا على ذلك ندامة عظيمة، قال: وكان قبل هذه الواقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم خلقا كثيرا، على ما حكى عن صلاح الدين صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصل في الجريدة ألف أسير مع التركمان، هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القدس، ودخل إلى قلعته فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى.

فصل

قال أبو يعلى: وفي رجب تجمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على إعادة ما كان أبطل وسامح به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ، وعرصه البقل والأنهار، وصانهم من اعنات شرار الضمان، وحوالة الاجناد، وكرروا لسخف عقولهم الخطاب، وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض، وكتبوا بذلك حتى أجيبوا إلى ما راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك من المقدمين والأعيان والرعايا، فما اهتدوا إلى صواب ولا نجح لهم قصد في خطاب ولا جواب، وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى نور الدين، فصرف همه إلى النظر في هذا الأمر، ففتحت له السعادة وإيثار العدل في الرعية لاعادة على ما كان عليه، فأمر في عاشر رمضان باعادة الرسوم المعتادة إلى ما كانت عليه من إماتتها، وتعفية أثر ضمانها، وأضاف إلى ذلك تبرعاً من نفسه بإبطال ضمان الهريسة والجبن واللبن، ورسم بكتب منشور يقرأ على كافة الناس بإبطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثناء عليه والنشر لمحاسنة.

قال: وفي الحادي والعشرين من رمضان وصل الحاجب محمود المسترشد من ناحية مصر بجواب ما تحمله من المراسلات من الملك الصالح متولي أمرها، ومعه رسول من مقدمي أمرائها، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة النورية، وأنواع الثياب المصرية، والجياد العربية، وكانت فرقة من الفرنج خذلهم الله قد ضربوا لهم في المعابر، فأظفر الله بهم فلم يفلت منهم إلا القليل النزر، ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصري بظفرة بجملة وافرة من الفرنج تناهز أربعمائة فارس وتزيد على ذلك في ناحية العريش من الكفار بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلب.

قال: وقد كانت الاخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية في ذي الحجة ببروز ملك الروم منها في العدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقلة الاسلامية، ووصله إلى مروج الديباج وتخييمه فيها، وبث سراياه للأغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن أفتتح من أعمال لاوين ملك الأرمن عدّة من حصونه ومعاقله، ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة الولاة بالأعمال والمعاقلة بإعلامهم ما حدث من الروم، وبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتضي لأمر الله، ومعه وزيره عون الدين بن هبيرة، فكاتب أصحاب الأطراف فتحركوا ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه ملك شاه قصد همذان ودخلها في عسكر كبير ونهب، وأخذ نساء الأمراء الذين معه وأولادهم، فاختلط العسكر وتفرقوا، وعاد محمد نحو همذان وخرج أهل بغداد فنهبوا وأوخر العسكر المنقطعين، وشعثوا دار السلطان.

قلت: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأول المحدث المنفرد بعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخاري، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين

قال أبو يعلى: في أول يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونهما، وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوته، ووقع الإرجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعيان الأجناد، وضافت صدور قطان الثغور والبلاد، خوفاً عليه، وإشفاقاً من سوء يصل إليه، لاسيما مع أخبار الروم والفرنج، ولما أحس من نفسه بالضعف تقدّم إلى خواص أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمّت على وصية إليكم بما وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين، إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين، وإن أخي نصرة الدين أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لأرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي قطب الدين مودود متولي الموصل، لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد، فحلفوا له وأنفذ رسله إلى أخيه بإعلامه صورة الحال، ليكون لها مستعداً، ثم تفضل الله تعالى بابلاله من المرض وتزايد القوة في النفس والحس، وجلس للدخول إليه والسلام عليه، وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رتب في الطرقات من يحفظ السالكين فيها، فظفر المقيم في منبج برجل حمال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حجابيه إلى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والاسراع إلى دمشق لتسلم إليه، فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين، وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة

الدين الفراء مجداً إلى دمشق فانهض أسد الدين في العسكر المنصور لردّه ومنعه من الوصول، فاتصل به خبر عوده إلى مقرّه عند معرفته بعافية أخيه، فعاد أسد الدين إلى دمشق، ووصلت رسل الملك العادل من ناحية الموصل بجواب ما تحملوه إلى أخيه قطب الدين، وفارقوه وقد برز في عسكره متوجّها إلى ناحية دمشق، فلما فصل عن الموصل اتصل به خبر عافيته، فأقام بحيث هو ، وأنفذ وزيره جمال الدين أبا جعفر محمد ابن علي لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يوم السبت الثامن من صفر في أحسن زي وأبهى تجميل، وخرج إلى لقائه الخلق الكثير.

قال: وهذا الوزير قد ألهمه الله تعالى من جميل الأفعال وحيد الخلال وكرم النفس، وإنفاق أمواله في أبواب البر والصدقات والصلات، ومستحسن الآثار في مدينة الرسول عليه السلام، ومكة ذات الحرم والبيت المعظم شرفه الله تعالى، ما قد شاع ذكره وتضاعف عليه حمده وشكره، واجتمع مع نور الدين، وجرى بينهما من المفاوضات والتقاريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعد الإكرام له، وتوفيته حقه من الاحترام، وأصبحه برسم قطب الدين أخيه وخواصه من الملائكة ما اقتضته الحال الحاضرة، وتوجه معه الأمير أسد الدين.

وقال ابن أبي طي: لما وصل الوزير جمال الدين إلى حلب تلقاه موكب نور الدين وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة، وأنزل في دار ابن الصوفي وأكرم غاية الإكرام، وأعيد إلى صاحبه شاكرًا عن نور الدين وسير معه الأمير أسد الدين شيركوه رسولاً إلى قطب الدين بالشكر له والثناء عليه، وأنفذت معه هدايا سنية، فسار وعاد إلى حلب مكرماً فوجد نور الدين عازماً على الخروج إلى دمشق لما بلغه من إفساد الفرنج في بلد حوران ، فسار في صحابته، ووصل نور الدين إلى دمشق فأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم انهض أسد الدين في قطعة من العسكر للاغارة على بلد صيدا ، فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب

وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلا وهو قد عاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة ، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلت: وهذا هو ما تقدم ذكره بعد المرضة الأولى، وكأن ابن أبي طي جعل المرضتين واحدة بحلب، وأبو يعلى ذكر أن الأولى بحلب والثانية بدمشق، وهو أصح، والله أعلم

فصل

قال أبو يعلى: وكان قد وصل من ملك الروم رسول من معسكره ومعه هدية أتخف بها الملك العادل من أثواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعال ، وقبول بمثل ذلك، وحكي عن ملك الفرنج خذله الله أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقررت، والمهادنة انعقدت، والله يرد بأس كل واحد منهما إلى نحره ، ويذيقه عاقبة غدره ومكره.

قال ووردت أخبار من ناحة ملك الروم باعتزامه على أنطاكية ، وقصد المعادل الإسلامية، فبادر نور الدين بالتوجه إلى البلاد الشامية لا يناس أهلها من استيحا شهم من شر الروم والأفرنج خذلهم الله تعالى، فسار في العسكر صوب حمص وحماه وشيزر.

قال: وفي ثالث ربيع الأول وافت زلزلة هائلة ما جت أربع موجات ، وأيقظت النيام، وأزعجت اليقظى، وخاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصفة شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلقت أكثر الثمار صيفيها وشتويها، وأفسدت بعض الأشجار ، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال: وتجددت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرّر المراسلات والاقتراحات في التقارير، وأجيب ملك الروم إلى ما التمسّه من إطلاق مقدّمي الأفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم، وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاويه، من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجواهر النفيس، وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة، وما استحسّن من الخيول الجبلية، ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائداً إلى بلاده مشكوراً محموداً، ولم يؤذ أحداً من المسلمين في العشر الأوسط من جمادى الأولى، فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قطب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والأفرنج سباطاً عظيماً هائلاً، تناهى فيه، وفرّق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير، ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهوداً في الحسن والتجمل، واتفق أن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسباط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني اسامة وغيرهم واستاقوا مواشيهم، فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في إثرهم فريقاً وافراً من العسكر فأدركوهم، ثم إنهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه وأعيد إلى أربابه .

قال: وتقرّر الرأي النوري على التوجه إلى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصلاح، فرحل في عسكره أوّل جمادى الآخرة، فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرر الحال على أمان من بها، وسلمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقررت أحوالها، وأحسن النظر في

- ٧٨٣٩ -

أحوال أهلها، وسلمها للأمير زين الدين على سبيل الإقطاع ، وفوض
إليه تدبير أمورها.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمي أمراء الأكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان في كل عصر ينقضي وأوان، جميل المحيا حسن البشر في اللقاء، وحمل من داره بيباب الفراديس إلى الجامع للصلاة عليه، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، ولم يخل من باك عليه ومؤبين له ومتأسف على فقده لجميل أفعاله وحميد خلاله.

قلت: وله أوقاف على أبواب البر، منها: المدرستان المنسوبتان إليه إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله، وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك، وقد مدحه العرقلة وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق إلى الملك العادل نور الدين رقعة يسأله فيها الإعفاء من القضاء والاستبدال به، فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وهو المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم، واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه على أن القضاء، من بعض أدواته، واستقر أن يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده.

قلت: ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء

كل جمعة، وإليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مدة، ويصلون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى هاهنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي، فإنه آخر كتابه، وفي هذه السنة توفي رحمه الله.

قال ابن الأثير: وفيها توفي أمير المؤمنين المقتضي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبو المظفر يوسف، ولقب بالمستنجد بالله، فأقر ابن هبيرة على وزارته،

قال: وفيها حج زين الدين علي، وأحسن إلى الناس في طريق مكة، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله، فلما لبس الخلعة كانت طويلة وكان قصيراً جداً، فمدّ يده إلى كمرانه وأخرج ما شدّ به وسطه وقصر الجبة، فنظر المستنجد بالله إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الأمير والجندي لامثلكم.

قلت: وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو آخر خلفاء مصر، ووصل من الصالح بن رزيق كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه.

هنا عن نعمة قل عن قدرها الشكر
وصبراً لـرزاء لا يقـوم به الصبر
مضى الفائز الطهر الامام وقام بالـ
لإمامة فينا بعده العاضد الطهر
امام هدى لله في نقل ذاك إلى
كرامته وفي إقامته ذاسر

- ٧٨٤٢ -

فَعِشْ أَبَدًا وَاسْلَمْ لَهُمْ يَا كَفِيَاهُمْ
تَدَافِعْ عَنْهُمْ كُلَّ حَادِثَةٍ تَعْرِوْ (٩٠)

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي طي: في هذه السنة حج أسد الدين من الشام ، وخرج في تجميل عظيم وشارة رائعة واستصحب معه من الأزواد والكسب أشياء عظيمة ، ويقال إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب ، وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق ، وحج ملهم أخو ضرغام وزير مصر، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً وخرج نور الدين إلى لقائه وكان يوم وروده يوماً عظيماً

وقال أيضاً: وفيها قتل الصالح بن رزيك بمصر، وكان سبب قتله أن عمه العاضد عملت على قتله وأنفذت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الأموال واحتاط على عمه العاضد.

قال. وإنما كرهته عمه العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحفظه للأموال، وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبهم ، وتمكن من الدولة تمكننا حسناً، ثم إن عمه العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم من السودان مالا جزيلا حتى أوقعوا به الفعل، جلسوا له في بيت في دهليز القصر مخفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر، ودخله وسلم على العاضد، وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصيحة فعثر الصالح بأذياله فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودي الرقبة، وحمل إلى باب القصر، وأصيب ولده رزيك في كتفه، ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل ، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، وعم رزء ابن رزيك، وملك

صرف الدهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ منحوسة الجدد، منكوسة الراية معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسفها الثاني، وجعلها معان المعاني وأنشر رميمها، وعطر نسيمها، وتسلم قصرها والتزم خصرها (٩١).

قال زين الدين الواعظ: عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلمها إليّ:
انست بكم دهر افلما ظعتتم اسـ
تتقرت بقلبي وحشة للتفرق
وأعجب شيء أنني يوم بينكم
بقيت وقلبي بين جنبي مابقي
أرى البعد ما بيني وبين أحبتي
كبعد المدى ما بين غرب ومشرق
ألا جددي يا نفس وجدا وحسرة
فهذا فراق بعده ليس نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرة، وقتل في شهر رمضان (٩٢).

قلت: ولعمارة اليمن ولغيره مدائح في الصالح ومراث جلييلة، وقد أثنى عليه كثيرا في كتاب الوزراء المصرية، ولم يكن مجلس أنسه ينقطع إلا بالذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته.

قال: وكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك، وكان شاعرا يحب الأدب وأهله، يكرم جلسيه ويبسط أنيسه، ولكنه كان مفطر العصبية في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفاً قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

قال: ودخلت عليه قبل أن يموت بثلاث ليال وفي يده قرطاس قد
كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة:
نحن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظانة لاتنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا
ليت شعري متى يكون الحمام

قال: ومن عجيب الاتفاق أني أنشدت ابنه مجد الاسلام في دار سعيد
السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان، أو السابع عشر قصيدة
أقول فيها:
أبوك الذي تسطو الليالي بحده
وأنبت يمين إن سطا وشال
لرتبته العظمى وإن طال عمره
إليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللحظ المصون ودونها
حجاب شريف لا انقضى وحجال

قال: فانتقل الملك بعد ثلاث إليه (٩٣)

قال: ومما رثيته به قولي:
أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فلني لما بي ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه ويخرس قائله
فقد رايتني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
وأنني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن الوجوه ثواكله

دعوني فما هذا بوقت بكائه
سيأتيكم طل البكاء ووابله
ولم لانبكيه ونندب فقده
وأولادنا أيتامه وأرامله
فياليت شعري بعد حسن فعاله
وقد غاب عنا بنا الدهر فاعله
ايكرم مثوى ضيفكم وغريبكم
فيسكن أم تطوى بين مراحلـه

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:
طمع المرء في الحياة غرور
وطوى لآمال فيه اقصر

ومنها:
ولكم قدر الفتى فأتته
نوب لم يحط بها التقدير

ومنها:
فض ختم الحياة عنك حمام
لا يراعني أذننا ولا يستشير
ما يخطى إلى جلالك اليوم إلا
قدر أمره علينا قدير
يا أمير الجيوش هل لك علم
أن حرا الاسى علينا أمير
إن قبرا حللتـه لغنـي
إن دهر رافقـه لفقير
انطوى ذلك البساط وعهدي
وهو بالعلم والندى مغمور
لا تظن الأيام أنك ميت
لم يمـت من ثناؤه منشور

إن مضى كافل فهذا كفى
أو وزير يغيب فهذا وزير
دولة صالحة خلفتها
دولة عادلية لا تجور
ما شكونا كسر النوايب حتى
قيل في الحال كسر كرم مجبور
نصر الناصر العلى بالعوالي
ولنعلم المولى ونعم النصير

قال أيضا يرثيه ويذكر الظفر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده
بالقرفة، قصيدة طويلة منها:
قد كنت أشرق من ثمامد مدامعي
أسفا فكيف وقد طمى التيار
عم السورى يوم الخميس وخصني
خطب بأنف الدهر منه صغار
ما أوحش الدنيا غدية فارقت
قطبار حى الدنيا عليه تدار
خربت ربوع المكرمات لواحد
عمرت به الاجداث وهي قفار
نعش الجدود العائثرات مشيع
عشيت برؤية نعشه الابصار
نعش يودّ بنات نعش لو غدت
ونظا مهابها أسفا عليه نثار
شخص الأنام إليه تحت جنازة
خفضت لرفعة قدرها الاقدار
سار الامام أمها فعلمت أن
قد شيعتها الخمسة الأبرار
ومشى الملوك بها حفاة بعدما
حفت ملائكة بها أطهار

فكانها تابوت موسى أودعت
في جانبيه سكينه ووقار
لكنه ماضم غير بقية الاسـ
لام وهو الصالح المختار
أقطتـه دار الوزارة ريشما
بنيت لنقلته الكريمه دار
وتغايير الهرمان والحرمان في
تابوته وعلى الكريم يغار
أثرت مصر آمنه بالشرف الذي
حسدت قرافته اله الأمصار
وجعلتها أمنابه ومثابه
ترجو مثابه قصدها الزوار
قد قلت إن نقلوه نقله ظاعن
نزحت به دار وشط مزار
ما كان إلا السيف جد دغمده
بسواه وهو الصارم البتار
والبدرفارق برجه متبدلا
برجابه تشعشع الأنوار
والغيث روى بلدة ثم انتحى
أخرى فنوء سحابه مدرار
يامسبل الأستار دون جلاله
ماذا الذي رفعت له الأستار
مالي أرى الزوار بعد مهابة
فسوضى ولا أذن ولا استئثار
غضب الاله على رجال أقدموا
جهلاً عليك وآخرين أشاروا
لاتعجبا لقذار ناقة صالح
فلكل دهر ناقة وقذار

واخجلت اللبىض كيف تطاولت
سفها بأيدي السود وهي قصار
واحسرتا كيف انفردت لأعبد
وعبيدك السادات والأحرار
رصدوك في ضيق المجال بحيث لا اله
خطي متسع ولا الخطار
ما كان أقصر باعهم عن مثلها
لو كنت متروكا أو ما تختار
ولقد ثبتت ثبات مقتدر على
خذلانهم لو ساعد المقدار
وتعشرت أقدامهم بك هيبة
لو لم يكن لك بالذيول عثار
أحللت دار كرامنة لا تنقضي
أبدا وحل بقاتليك بسوار
يأليت عينك شاهدت أحوالهم
من بعدها ورأت إلى ما صاروا
وقع القصاص بهم وليسوا مقنعا
يرضي وأيمن من السماء غبار
ضاقت بهم سعة الفجاج وربما
نام العدو ولا ينام الثار
وتوهموا أن الفرار مطيعة
تنجي وأيمن من القضاء فرار
طاروا فمدأبوا الشجاع لصيدهم
شرك الردى فكأنهم ما طاروا
فتهنن بالأجر الجزيل وميعة
درجت عليها قبلك الأخيار
مات الوصي بها وحمزة عمه
وابن البتول وجعفر الطيار

نلت السعادة والشهادة والعلی

حیا ومیتا إن ذالفخار
ولقد أقصر العين بعـدك أروع
لـولاه لم یـک للعلی استقـرار
الناصر الهادي الذي حسناته
عن سیئات زماننا أـذار
ولما استقام لحفـظ أمـة أحمد
عمرت به الأوطان والأوطار

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر، وسار إلى قلعة حارم وجصرها، وجدّ في قتالها، فامتنعت عليه لخصانتها وكثرة من بها من الفرسان الفرنج وشجعانهم، واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك وراسلوه وتلطفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده، وممن كان معه في هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيرين وكان قد دخله العام الماضي سائرا إلى الحج، فلما دخله عامئذ كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي كم لك منة
عليّ وفضل لا يحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله ذي الركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما
تحمّلت من وزر الشبيبة عن ظهري

قلت: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احذر من الدنيا ولا
تغتر بالعمــــــــــــــــر القصير
وانظر إلى آثار من
صرعته من ابــــــــــــــــالغرور

- ٧٨٥٢ -

عمروا وشادوا مـاتـرا
هـمـن المنـازل والقـصـور
وتحولوا مـن بـعد سـكـ
(٩٤) نـاها إلى سـكنى القـبـور

قلت : قال ابن أبي عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن
عياض بن أبي عقيل، صاحب صور، ويلقب عين الدولة ، مات سنة
خمس وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النفيس. والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقية تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم، ومنازلة طرابلس، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم في وسط النهار، لم يرعهم إلاّ ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن، فكبسوهم، فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا فانهزموا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج عن ظهر خيمته عجلا بغير قباء، فركب فرسا هناك للنوبة، ولسرعته ركه وفي رجليه شبحة فنزل إنسان من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين، وقتل الكردي، فسأل نور الدين عن خلفي ذلك الكردي فأحسن إليهم جزاء لفعله، وكان أكثر القتلة في السوق والغلمان، وسار نور الدين إلى مدينة حمص، وبينها وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ، وكان الناس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان رحمه الله أشجع من ذلك وأقوى عزما، ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن نقيم هاهنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قتلوا أو كثروا، والله لأستظل بجدار حتى أخذ بثار الإسلام وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج إليه الجند، فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سلم، وأما من قتل فإنه أقر اقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد، وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا إنه لم يفعل هذا، إلاّ وعنده من القوة أن يمنعنا، وكان نور الدين رحمه الله قد أكثر الخرج إلى أن قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك، وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند

ويسألو كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ، فكل من ذكر شيئا أعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادّعى شيئا كثيرا علم بعض النواب كذبه فيما ادّعاه ، لمعرفتهم بحالهم ، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية ويستأذنونهم في تخليف الجندي على ما إدّعاه ، فأعاد الجواب لا تكذبوا عطاءنا فإنني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره ، وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فغضب من هذا ، وقال: والله إنني لأرجو بأولئك النصر ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطيء ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رأي بسهام قد تخطيء وتصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة ، فلم يجبهم إليها ، فتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم ، وتفرقوا.

قلت: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبيد الله ابن سعد الموصلي نزيل حمص من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه الله أولها:

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل
ضوامن لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله
عرو عزم وبأس غير متقل
وما يعيبك ما حازوه من سلب
بالختل قد تأسر الأساد بالحيل
ولما أخلدوا جنبنا إلى خدع
إذا لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم
لينفذ القدر المحتوم في الأزل

حتى أتوكم ولا الماذي من أمم
ولا الظبى كذب من مرهق عجل
قنألقى وقسي غير موثرة
والخيل عازبة ترعى مع الحمل
ما يصنع الليث لانا ب ولا ظفر
بها حواليه من عفرو من وعمل
هلا وقد ركب الأسد الصقور وقد
سلوا الظبى تحت غابات من الاسل
وإن هم أضاعوا حزمهم ثقة
بجمعهم ولكم من واثق خجل
وبني الأصافر ما نلتهم بمكركم
والمكر في كل إنسان أخو الفشل
ومار جعتم بأسرى خاب سعيكم
غير الأراذل والأتباع والسفـل
سلبتم الجرد معرة بلا لجم
والسمر مركوزة والبيض في الخل
هل أخذ الخيل قد أردى فوارسها
مثال أخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا كسالبه
والحرب دائرة من كف معتقل
جيش أصابتهم عين الكمال وما
يخلصو من العين إلا غير مكتمل
لهم يوم حنين أسوة وهم
خير الأنام وفيهم خاتم الرسل
سيفتضيك بضرع عند أهـونه
البيض كالبيض والأدراع كالخلل
ملك بعيد من الإنسان ذو كلف
بالصدق في القول والإخلاص في العمل

ومنها:

فالسمر ما أصبحت والشمس ما أفلت
والسيف ما فل والأطواد لم تنزل
وكم تجلت بنور الدين من ظلم
وانجاب ما كان للاضلال من ظلل
قل للمولين: كفوا الطرف من جبن
عند اللقاء وغضوا الطرف من خجل
طلبتم السهل تبغون النجاة ولو
لذتم بملككم لذتم إلى الجبل
أسلمتموه ووليتهم فأسلمكم
بثينة لو بغاهما الطود لم ينل
فقام فرداً وقد ولت جحافل
فكان من نفسه في جحفل زجل
في مشهد لوليوث الغيل تشهده
خرّت لأذقانها من شدة الوهل
وسط العدى وحده ثبت الجنان وقد
طارت قلوب على بعد من الوجل
يعود عنهم رويداً غير مكترث
بهم وقد كثر فيهم غير محتفل
يزداد قدماً إليهم من يقننه
أن التأخر لا يحمي من الأجل
ما كان أقربهم من أسر أبعدهم
لو أنهم لو يكونوا منه في شغل
ثباته في صدور الخيل أنقذكم
لا تحسبوا وثبات الضمر الذلل
ما كل حين تصاب الأسد غافلة
ولا يصيب الشديد البطش ذو الشلل
والله عونك فيما أنت مزمعه
كما أعانك في أيامك الأول

كم قدم ملكت لهم ملكا بلا عوض
وحزت من بلد منها بلا بدل
وكم سقيت العوالي من طلي ملك
وكم قريت العوافي من قرا بطل
لأنكبت سهمك الأقدار عن غرض
ولا تثبت يدك الأيام عن أمل

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله: (غيري بأكثر هذا الناس ينخدع) القصيدة، فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم، وهم المنهزمون، وقد أحسنا معا عفا الله عنهما، وعبيد الله بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مفلق، كان مدرسا بحمص يعرف بابن الدهان، وله ترجمة في تاريخ دمشق، وقد ذكره العماد الكاتب في خريدته فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره، وسيأتي ذكره أيضا في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين وست وسبعين وثمان وسبعين إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة ، أعني سنة ثمان وخمسين وخسمائة توفي عبد المؤمن ابن علي خليفة المهدي محمد بن تومرت ، صاحب المغرب، وولي بعده ابنه يوسف.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى مصر المرة الأولى، وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النورية، عازما على ملك الديار المصرية، واستضافتها إلى المملكة النورية، وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب، وهو أكبر أبناء شاذي من بلد دوين، وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان بمالي الروم، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد، وقدموا العراق وخدموا مجاهد الدين بهروزا الخادم وهو شحنة العراق، فرأى في نجم الدين عقلاً ورأيا وحسن سيرة فجعله دزداراً بتكريت، وهي له فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين، فلما انهزم أتابك زنكي الشهيد والد نور الدين بالعراق من قراجه الساقى وهو أتابك داود بن السلطان محمود، وذلك زمن المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبّر دجلة وتبعه أصحابه، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم، ثم إن أسد الدين قتل انسانا نصرانيا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت، وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصا من ممالك بهروز بسهم فقتله، فخشي على نفسه، فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي، وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصراني وكان عزيزا عند بهروز هرب إلى الموصل، والتحق أيوب به وسنوضح هذه القضية إن شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين.

ثم إن أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعا حسنا، وصارا من جملة جنده، فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزداراً فيه، فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق نجم الدين، فأرسل إلى سيف الدين غازي وقد قام بالملك بعد والده ينهي الحال إليه فلم يتفرغ لبعلك، وضاق الأمر على

من بها، وخاف نجم الدين أن تؤخذ عنوة ويناله أذى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعاً ذكره، فأجيب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلم القلعة ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدم، وصار عنده من أكابر الأمراء، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد، وكان يخدمه في أيام والده، فقربه نور الدين وأقطعته ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره، لشجاعته وجراته، فزاده إقطاعاً، وقرباً حتى صار له حمص والرحبة وغيرها، وجعله مقدّم عسكره، فلما تعلق المهمة النورية، بملك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين وهو بها في ذلك، فطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يراد منه، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لها ما طلبا منه، وحلف لها عليه، ووفى لها لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل لاسيما نجم الدين فإن جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك إلا نجم الدين، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك.

فلما كان سنة تسع وخمسين عزم نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر، ولم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين، فسيره وكان سبب ذلك أن شاور بن مجير أبا شجاع السعدي، وهو الملقب أمير الجيوش الذي يقول فيه عمارة من قصيدة:

ضجرا الحديد من الحديد وشاور

في نصر آل محمد لم يضج

حلف الزمان ليأتين بمثله

حنثت يمينك يا زمان فكفر

وهو وزير الملقب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمان وخمسين سادس ربيع الأول إلى نور الدين،

مستنجداً به، على من أخذ منه منصبه قهراً، وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب، وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم، ورتبوه ومكنوه، فإن قوتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان، وما كانوا يرون المكاشفة وأغراضهم مستقيمة، وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال، وكان شاور قد غلب على الوزارة وانتزعها من بني رزيك، وقتل العادل بن الصالح بن رزيك الذي وزر بعد أبيه، واسمه رزيك، ويلقب بالناصر أيضاً، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن علي من الاسكندرية واستخدمه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيش على ما ذكره عمارة اليميني في كتاب الوزراء المصرية، وقال: غرس منه للدولة، بل للملة، شجرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت وفرعها في السماء .

ثم خرج على شاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضرغام بن سوار، ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قبل فغلبه وأخرجه، من القاهرة وقتل ولده طيثاً، واستولى على الوزارة، فرحل شاور إلى الشام قاصداً خدمة نور الدين، مستصرخاً به ومستنصراً، فأحسن لقائه وأكرم مثواه، فطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها، ويكون له فيها حصة ذكرها له، ويتصرف على أمره ونهيه، واختياره، ونور الدين يقدم في ذلك رجالاً ويؤخر أخرى، تارة يحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق، وكون الفرنج فيه إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً، ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه قضاءً لحق الوافد المستصرخ، وحبساً للبلاد، وتطلعاً على أحوالها، وكان هوى أسد الدين في ذلك، وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالي معه بمخافة، فتجهز وسار مع شاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابن الأثير والعماد الكاتب.

وقال القاضي ابن شداد: كان ذلك سنة ثمان وخمسين ، والقول في ذلك قولهما، فقد بينا أن قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين ، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين .

قالوا: وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه، والانتقام ممن ناوعه في الوزارة ، وساروا جميعاً، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسلام مماليك الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين، ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة وقتل وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً، وتمكن من منصبه، وكان عمارة قد مدح ضرغاما بقصيدة منها:

وأحق من وزير الخلافة من نشأ
في حضرة الإكرام والإجلال
واختص بالخلفاء وانكشف له
أسرارهم بأبواب الرائن الأحوال
وتصرف الوزراء عن آرائه
كتصرف الأسماء بالأفعال

قال عمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالاً:

أرى حنك الوزارة صار سيفاً
يجذب حذاه صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى وإلا
بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة اليمني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه قوله:
فنصرت في الأولى بضرب زلزال
أقدام وهي شديدة الإقدام

ونصرت في الأخرى بضرب صادق
أضحى يطير به غراب الهام
أدركت ثارا وار تجمعت وزارة
نزعاً بسيفك من يدي ضرغام

وكان ضرغام أولاً من أصحاب شاور واتباعه، وقد أشار إلى ذلك
عمارة في قوله من قصيدة له:
كانت وزارتك القديمة مشرعا
صفوا أولكن كدّرت غدرانها
غصبت رجال تاجه وسريره
من بعد ما سجدت له تيجانها

وله من قصيدة أخرى في شاور:
وزير تمتته الوزارة أولاً
وثانية عفواً وبغير طلاب
فخانتته في الأولى بطانته وده
ورب حبيب في قميص حباب
وجاءته تبغي الصلح ثاني مرة
فلم يرض إلا بعد ضرب رقاب

ولم يغلب وزير لهم وعاد غير شاور، وكان مدة أخذ الوزارة منه إلى
أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهي مدة الحمل نص عمارة على ذلك،
وقال قتل ولده طيء يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان، وجاز
رأسه على رمح تحت الطيقان والنساء يولولن بالصراخ، وكان فيهن
واحدة تحفظ قولي في الصالح:
أينسى وفي العينين صورة وجهه الـ
كريم وعهد الانتقال قريب

فما زالت تكرر حتى رأت رأس ضرغام

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلت في ذلك:

ونزعت ملكك من رجال نازعوا
فيه وكنيت به أحق وأقعدا
جذبوا رداءك غاصبين فلم تزل
حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقه
أمرت نسيماً الليلى أن لا يردا
تاريخ هذان لته في مثله
يوم ما يوم عبرة لمن اهتدى
حملت به الأيام تسعة أشهر
حتى جعلن له جمادى مولدا

وله فيه أيضاً:

لله درك موتور أقض به
دست و سرج وأجفان ومضطجع
ما غبت إلا يسيراً ثم لحت لنا
والثار مستدرك والمملك مرتجع
قضية لم ينل منها ابن ذي وزن
إلا كما نلت والآثار تتبع

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضاً، فأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فأنف أسد الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة بليس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم، ويخوفهم من نور الدين أن ملك مصر، وكان الفرنج قد

أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهم خائفون، فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم، ويطلب منهم أن يساعده على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته، وطمعوا في ملك ديار مصر، وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه، فتجهزوا وساروا، فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير، سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الأفرنج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقيين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، فأعانوه وسار بعضهم معه وأقام بعض في البلاد يحفظها، فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين، وقصد مدينة بليس وأقام بها هو وعسكره، وجعلها ظهراً يتحصن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بليس وحصروه بها ثلاثة أشهر، وقد امتنع أسد الدين بها وسورها من طين قصير جداً، وليس له خندق ولا معقل يحميها، وهو يغادير القتال ويرأوهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيديهم وأرادوا العود إلى البلاد ليحفظوها ولعلمهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يدركوها إلا وقد ملكها على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام، ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل.

قال ابن الأثير: فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بليس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقاتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون، قال: فأناه فرنجي من

الفرنج الغرباء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج قد أحاطوا بك وبأصحابك فلا يبقى لك معهم بقية، فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله كنت والله أضع فيهم السيف فلا أقتل حتى أقتل رجالا، وحيثئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني أبطالهم، فيملك بلادهم ويفني من بقي منهم، ووالله لو أطاعني هؤلاء، يعني أصحابه لخرجت إليكم أول يوم، لكنهم امتنعوا فصلب الفرنجي على وجهه وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم، ثم رجع عنه، وسار شيركوه إلى الشام، وعاد سالما.

وقال العماد الكاتب: وصل شاور إلى نور الدين ملتجئا فألفاه على عدوه معديا مشكيا، وسير معه أسد الدين على قرار عينه، وأمر بينه، وبغية يدرکہا وخطة يملكها، ومحجة واضحة في الملك يسلكها فمضى معه ونصره، وأصفى له مشرعه، واسترد له موضعه، وأظهره بعلوه، وأظفره بعدوه، فلما باد خصمه بدا وصمه، وغدر بعهدده، وأخلف في وعده، وكان قد راسل الفرنج وهاداهم في حرب الاسلام، فوصلوا فتحصن شيركوه ومن معه بمدينة بلبس، فحاصره شاور بجنود مصر، والفرنج، ثلاثة أشهر من مستهل رمضان إلى ذي الحجة، فبدلوا له قطيعة فانصرف عنهم، وعاد إلى الشام، وفي قلبه من شرّ شاور الإحن، وكيف تمت بغدره تلك المحن.

قلت: وقد أشار إلى ذلك عمارة في قوله في مدح شاور وذكر الأفرنج فقال:

وأنفذت من مصر عدوا بمثلده
فلله من ظفر فللت وناب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة
أقامت بها للقوم سقوق ضراب

قد جردت أجناد مصر عزائما
مضاربها في الصخر غير نوابي
تولوا عن الأفرنج فادح ثقلها
ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلة
ثيابا لهم ما بدلت بشياب
وهم بين مطروح هناك وطارح
وبين مصيب خصمه ومصاب

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعله مقدّم عسكره، وصاحب رأيه، وكان لا يفصل أمراً ولا يقرّر حالاً إلاّ بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة، والفكرة الصحيحة، واقتران النصر بحركاته وسكناته، فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم، وخافه أهل مصر، ونصر شاوراً على خصمه، وأعادته إلى منصبه ومرتبته، وقرر قواعده، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلى أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيham والمحال، وكان ابتداء رحيله عنها، متوجّهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مدبراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدّثاً بذلك نفسه، مقررّاً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين.

قلت: ولفعل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعراء بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده على ما سنذكره، وبقي متخوفاً من أسد الدين، فقال عرقلة الكلبي من جملة قصيدة له:
وهل هم يوماً شيركوه بجلق
إلى الصيّد إلا ارتعاع في مصر شاور
هو الملك المنصور والاسد الذي
شذا ذكره في الشرق والغرب سائر

وفيها في ذي الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق،
فقال العرقله يمدحه ويذكر ذلك:
جـار صرف الـردى على جيرون
وسقى أهلها كؤوس المنون
أصبحت جنة وامست جحيم
تتلظى بكل قلب حزين
كيف لا تذرف الدموع عليها
وهي في الشام نزهة للعيون
حبذا حصنها الحصين لقد كا
ن جمالا لكل حصن حصين
أي سيف سطا على دار سيف
وزبون أتى بحرب زبون
خلت نيرانها وكل ظلام
نار ليل تلوح للمجنون
كم غني اليمين أمسى فقيرا
وفقر أمسى غني اليمين
كل حين لها حريق جديد
ليت شعري ماذا لها بعد حين
كل هذا البلاء عاقبة الفسـ
ق وشرب الخمر والتلحين
ولقد ردها بعزم وحزم
أسد الدين غاية المسكين
وحى الجامع المقدس والمشـ
هد من جمرها بباء معين
ملك فعله بدلة والبـ
ب فعـال الامـام في صفين

فصل

في فتح حارم

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة ، يعني تسع وخمسين ، اغتتم نور الدين خلّو الشام من الفرنج ، وقصدهم واجتمعوا على حارم ، فضرب معهم المصاف فرزقه الله تعالى الانتقام منهم ، فأسرهم وقتلهم ، ووقع في الاسار برنس أنطاكية وقومص طرابلس ، وابن لجوسلين ، ودوك الروم ، وذلك في رمضان (٩٥).

وقال في الخريدة: كانت نوبة البقية نوبة عظيمة على المسلمين ، وأفلت نور الدين في أقل من عشرة من عسكره ، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم ، وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفاً ، وأسر من نجا ، وأخذ القومص والابرنس والدوقس وجميع ملوكهم ، وكان منحا عظيماً وفتحاً مبيناً .

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزماً على ما سبق من غزوة ناحية حصن الأكراد ، أقبل على الجّد والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وغزو العدو في عقر داره ، وليرتق ذلك الفتق ويمحو سمة الوهن ويعيد رونق الملك ، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل ، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ، ونجم الدين ألبى بهاردين ، وغيرهم من أصحاب الأطراف ، أما قطب الدين أتاك فإنه جمع عساكره وسار مجداً وعلى مقدّمة عسكره زين الدين نائبه ، وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على أي شيء عزمتم؟ فقال: على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك ، وكلهم وافقه على ذلك ، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة ، فقال له أولئك: ما

عدا مما بدا فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدها ؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، واخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعون عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويكون ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بدّ من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضا، وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبى فإنه سير عسكرياً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا ومقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين ، وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها والدوك، وهو رئيس الروم ومقدّمها، وجمعوا معهم من الراجل ما لا يقع عليه الإحصاء قد ملأوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء، فحرض نور الدين أصحابه، وفرّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح ، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه، فساروا حتى نزلوا على عم، وهو في الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم، ثم تيقنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله، ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة ، وكانت على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين، ، فبدّدوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الأدبار، وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الفرقة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلهم ولا يلجؤون

إليه، ويعود المنهزمون في اثارهم، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم، فكان الأمر على ما دبروا، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين، عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعادت خيالتهم ولم يمعنوا في الطلب خوفاً على راجلهم، من العطب، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين وبدمائهم مخرجين، فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، وخضعت رقابهم وذلوا، فلما رجعوا عطف المنهزمون أعتتهم وعادوا، فبقي العدو في الوسط، وقد أحرق بهم المسلمون من كل جانب، فحيثئذ حمي الوطيس، وبأشر الحرب الرؤوس والرئيس، وقاتلوا الفرنج قتال من يرجو باقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة، وانقضت العساكر الإسلامية، عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور، فمزقوهم بدءاً وجعلوهم قدداً فألقى الفرنج بأيديهم إلى الاسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف، وأما الاسرى فلم يحصوا كثرة، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن ملوكهم أسروا، وهم الذين من قبل ذكروا.

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكها في الحادي والعشرين من شهر رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية، ليملكها لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل، وقال: أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة التي لها فهي منيعة، لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه، ومجاورة بيمند أحب إلي من مجاورة ملك الروم، وبث سراياه في تلك الاعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويدا وغير ذلك، وعادوا سالمين.

ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بهال جزيل أخذه منه وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

وقال الحافظ أبو القاسم: كسر نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفاً.

قال: ووقع بيمند في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بهال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه الله لما التقى الجمعان أو قبيله إنفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ، ومرّ وجهه وتضرّع وقال: يارب هؤلاء عبيدك، وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك فانصر أولياءك على أعدائك، ايش فضول محمود في الوسط، يشير إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر، وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك، ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه، كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق.

فصل

في ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدوح ووفاته في هذه السنة رحمه الله

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته، وأثنى عليه ثناء عظيماً حسناً، فمما ذكره في كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية، أن قال: ذكر جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي، وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهاداً في عهد السلطان ملكشاه بن الب أرسلان، وابنه الكامل أديب لبيب وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النمو، حتي تنافس في استخدام الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء وقد كان زوج بنتاً له ببعض أولاد أخوال العزيز، يعني عم العماد الكاتب.

قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرجه في الأدب، ودرّجه في الرتب، فأول مارتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي، وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعت الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج، واتفق أنه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشام تزوّج بامرأة الأمير كيدغدي وولدها خاص بك بن كيدغدي من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها فرتبته العزيز لخاصبك وزيرا، فسار في الصحبة وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهبي الحشاشة، هبي البشاشة، فتوفرت مني زنكي على منادمته، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته، وعوّل عليه آخر عمره في إشراق ديوانه، وزاد المال وزان الحال، بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زنكي جود، ولا عرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي استبقاء لجاهه، واستعلاء به

على أشباهه، فمكنه زنكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرّ
باساءته ومنهم من انتفع بإحسانه، ولما قتل زنكي صار للدولة الاتابكية
ملاذاً، وللبيت الأقسقري معاذاً، واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وأزره
علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرتة ومظافرتة، وجرى بين
جمال الدين وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي،
التعاقد على التعااضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة
الموصل واستولى فعاش بندااه الجواد، وغشا إلى نادية الوفود، وعادت به
الموصل قبلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سعوده، وسارت في
الآفاق صنائع جوده، وعمر الحرمين الشريفين، وشمل بالبر أهلها، وجمع
بالأمن شملها، وأجرى بحر السباح، ونادى حي على الفلاح،
فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح، وأتوا إليه من كل فج عميق، وقصد
من كل بلد سحيق، فقصده العظماء، ومدحه الشعراء، وممن وفد إليه أبو
الفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف بحيص بيص، قال: وأنشدني
لنفسه فيه قصيدة أولها:

يا للصورم والرماح الذبل
نصرأومــــن أنجــــدتمالم يخذل
لــــوشتمــــاومشيئــــة بمشيئــــة
جادالزمان وبالعلى لم ييخل
فأقنى فخارك يا مجاشع واعلمي
أني لكم من همتي في جحفل
أنافارس اليومين يوم مقالة
ووغى أصول بصارمي وبمقولي
ظلمت فضائي المقاول مثل ما
ظلمت جمال الدين مأوى العيل
مدحوه كي يحووا مناقب نفسه
فطممت فسالت بالمدائح من عل
فأتيت ابذل ما استطعت ومن يرد
نقل الخضم إلى المزايدة ينجل

شمس من الاحسان عم ضياؤها
بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطي الجزيل لسائلي معروفه
ويجود بالنعمى إذا لم يسئل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة
فيكون أبسم ما يرى في العضل
ثقلت به الأعناق من منن الندى
فالهام مطرقة لذاك المثل
فإذا تلاقى الناس كان حديثهم
عن كل جفن بالخجالة مسدل
أسراء معروف الوزير فكلهم
عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمرقند إلى تهامة شاهد
فضل الجمال على الحيال المتهلل
السحب تمطر ما تظلل وجوده
يسري ودار مقامه بالموصل
وتقرر عين محمد بمحمد
محيي دريسي علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه
ومعين أمته بجوده مسبل
جعل المدينة مصر ربعا أهلا
نشوان يمرح بالنعيم المحصل
فكأنها بالخصب من قرباته
بلد على شط الفرات السلسل
فلو أنه في عصره نزلت له
في مدحه سور الكتاب المنزل
عبداً أخ في ضيفه ووداده
لا يستحيل وسيد في المحفل

خرق نياط قميصه ورداؤه
بعباب زخار وهضبة يذبل

قال العماد: وكنت أنا في ذلك العهد متفقهًا في بغداد، واتفق
حضورني بالموصل، سنة اثنتين وأربعين وخمسة، فحضرت عند جمال
الدين بالجامع في جمعتين، وتكلمت عنده مع الفقهاء في مسألتين، ومما
مدحته به قصيدة أولها:

أظنهم وقد عزموا ارتحالا
ثنا وعنا أجمالا لا جمالا
سروا والصباح مبيح الحواشي
فلما حال عهد الوصل حالا
هم اعتادوا الملل فكيف ملوا
وصالهم وماملوا المللا
أحادي عيسهم بالله رفقا
فإن السير أورثها الكلالا
وعجج نحر الأراكبها فإني
أراه لاجتماع الشمس فللالا
سقى صوب الحياة تلعات نجد
وحيا بالحمى تلك التلالا
أخلاني وهل في الناس خلل
به أخلو من الأحزان بالالا
لئن لم أشف صدري من حسودي
ولم أذق العدى داء عضلالا
فلا أدركت من أدبي مرادا
ولا صادفت من حسبي منالا
ولا وختدت إليكم بي جمال
ولا واليت مولانا الجمالا
هو المغني إذا ما المرء أقوى
هو المنجي إذا ما الخطب هالا

وقائلة أفي الدنيا كريم
سواه فقلت: لا وأبي العلالا
أطلت على الوري كرماء وفخراً
كذلك من حوى هذين طالا
وخرت المجد عن كسب وارث
فيا صدر الوري خرت الكمالا
خصصت بكل منقبة وفضل
تعالى من جاك به تعالى

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها:
يهوى تجنيه والصددور كما
يهوى المعالي محمد بن علي
جمال دين الإله خير فتى
للرزق أقلامه ولالأجل
معطي القرى والقرى لقاصده
من غير من الخيل والخول
مثل فتوح الفاروق نائله
شرقاً وغرباً في السهل والجبل
من قال لم يجوز أو يسكن ذا
أصبح ممأيقول في خجل
محمد خاتم الكرام كما
سميه كأن خاتم الرسول

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:
كسى الحرمين لبسة عبد شمس
وهاشم غرّي نسل الخليل
وللبلد الأمين أجدّ أمنّا
تكنف مثله جدّ الرسول

عشيتهم يا ولادة الأمـر عما
أتيح له من الأثر الجميل
وطار لها وأشفقتهم فشدالـ
سـيدين على عرى المجد الأثيل
بيوت بالحجاز مقدسات
رماها الدهر بالخطب الجليل
وكان إذا هنّ فصاب صونا
لمن آوته من ولد البتول
مآثر باقيات يوم يجنى الـ
مقال ويجتنى طيب المقيـل
وكم للموصل الحدباء مما
تنيل يده من ريف ونيل
برود الصفح ملتهب الحواشي
مهيب البطش فراس الدخول

ولأبي المجد قسيم الحموي فيه من قصيدة:
أغريبصر منه الناس في رجل
والليث في بشر والبدر في غصن
سما بهتمته في المكرمات إلى
علياء يقصر عنها هامة الزمن
يلقاك واضح ليل الفكر راجح نـ
لـ الكف طاهر ذيل السر والعلن
ماضي العزيمة ميمون النقية ريـ
بـال الكتيبة عين القائل اللسن
إذا تكلّم واستحليت غـرته
في محفل رحى حالي العين والأذن
كان في الدست منه حين تنظـره
شمس النهار وصبوب العارض الهتن

قال ابن الاثير: وفيها في شعبان من هذه السنة وهي سنة تسع

وخسين وخمسائة توفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، كان قد خدم الشهيد فولاه نصيين، وظهرت كفايته فأضاف إليه الرحبة، فأبان عن كفاية وعفة، وكان من خواصه، فجعله مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيميا لامتد عليه حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضياء الدين بن الكفرتوئي يحكي عن جمال الدين قال: كان يدخل إلى أتاك قبلي، ويخرج بعدي، ولم يزل كذلك إلى أن قتل الشهيد، ثم وزر لولدي الشهيد سيف الدين، ثم قطب الدين، وكان بينه وبين زين الدين علي كوجك عهد ومواريق على المصافاة والاتفاق، وكان أصحاب زين الدين يكرهونه، ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم، وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمن لكل خائف، فسعى به الحساد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه، وقالوا له: إنه يأخذ أموالك فيتصدق بها، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع عليه زين الدين من غيره عن مصافاته ومواخاته، فقبض عليه قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين، فلما قبض تبسطوا في الأمر والنهي، على خلاف غرض زين الدين، فبقي جمال الدين في الحبس نحواً من سنة، ثم مرض ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر، كريم الورد والصدر، عديم النظير في سعة نفس، لم يرو في كتب الأولين أن أحدا من الوزراء اتسعت نفسه، ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوة، كامل المروءة.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفي، وهو رجل من الصالحين، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه، قال: لم يزل الجمال مشغولاً بأمر آخرته مدة حبسه، وكان يقول: كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر، قال: فلما مرض قال لي بعض الأيام: يا أبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني، فقلت في نفسي: قد اختلط الرجل، فلما كان الغداة أكثر السؤال عن ذلك الطائر وإذا طائر أبيض لم ير مثله قد سقط، فقلت له: قد جاء الطائر، فاستبشر، ثم قال،

جاء الحق، وأقبل على الشهادة، وذكر الله تعالى، وتوفي فلما توفي طار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه، ودفن في الموصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً من مات منا قبل صاحبه حمله الحي إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفنه بها في التربة التي عملها، فإن أنا مت فامض إليه وذكره، فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى، فأعطاه مالا صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل، وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد بالصلاة على فلان، ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير، فلما كان في الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه، فإذا شاب قد ارتفع إلى موضع عال ونادى بأعلى صوته:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى بره فوق الركاب ونائله
يمرّ على الوادي فتثنى رماله
عليه وفي النادي فتبكي أرامله

فلم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم، وحملوه إلى المدينة فصلوا عليه أيضاً ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذراعاً.

قلت: كذا قال ابن الأثير، ولقد رأيت المكان، ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، لانفس القبر الشريف زاده الله شرفاً وصلى على ساكنه.

ثم قال: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلاً للمال، رحيمًا بالناس ومتعطفًا عليهم عادلاً فيهم، فمن أعماله

الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى، وغرم عليه أموالاً عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة، وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة، ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتني لأمر الله هدية جليلة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى ابن هاشم خلعة سنوية وهدية كثيرة حتى مكنه منه، وعمر أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعلان في طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس، فغرم على ذلك مالاً كثيراً، وكان يعطي أهل نعلان كل سنة مالا كثيراً ليركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة.

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا أنه بنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضنك وضر معهم، رأيت بالمدينة إنسانا يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له، لأننا كنا في ضر وضيق ونكد عيش مع العرب، لا يتركون لأحد منا ما يواريه ويشبع جوعته، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا فكيف لاندعوله.

قال: وكان الخطيب في المدينة يقول في خطبته: اللهم صن حرم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي منصور، قال: فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها.

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء

سوى الإدارات والتعهدات قال: كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدق بها على باب داره.

قال: ومن أبنته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، إلا أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه، وبنى أيضا جسرا على نهر الباريا عند الجزيرة أيضا، وبنى الربط بالموصل وسنجار ونصيبين وغيرها، وقصده الناس من أقطار الأرض، ويكفيه أن صدر الدين الخجندی رئيس أصحاب الشافعي رضي الله عنه بأصبهان، وابن الكافي قاضي قضاة همذان قصدها، فأخرج عليهما مالا جزيلا وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية، وصارت الموصل في أيامه مقصداً وملجأ، وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال من الصدقات، وكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق.

حكى لي والدي قال: كنت يوما عنده وقد أحضر بين يديه قنذر ليعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير اشتروا لي قنذر بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير، قال: فراجعناه غير مرة، فلم يفعل.

قال: وحكى لي من اثق إليه من العدول بالموصل: أن الأقوات تعذرت في بعض السنين بها، وغلت الأسعار، وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملاء فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا وقال له: تخرج هذا على مستحقه، وكلما فرغ أرسل إلي لأنفذ غيره، فلم يمض إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئا آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرج ففني فقال جمال الدين للرسول: والله ما عندي شيء ولكن خذ هذه المحافير التي في داري فبيعوها وتصدقوا بثمانها إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر، فبيعت المحافير وتصدقوا بثمانها، وعرفوه ذلك فلم يكن عنده ما يرسله فأعطاه

ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي كانت على رأسه، وأرسل الجميع وقال للرسول: قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدق بثمانها.

قال: وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل قال: أحضرتني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير وهو بظاهر الموصل واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فأحفظه إلى أن أحضر عندك ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالاً من النصافي والخام، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لي: تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا حضر لك فلان العربي، فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب وهكذا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، توصل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى.

قال: فسرنا كذلك إلى وادي القرى فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغداد، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة أصع بدينار، فانقلبت المدينة بالدعاء له، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه، قبل أن يصير وزيراً فطلب منه شيئاً وتردد إليه عدة أيام، ثم انقطع فسأل عنه فقيل إنه سافر فشوق ذلك عليه، ثم قال: هكذا ينصرف الأحرار عن دور الكلاب، ورد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه فقيل إنه سار نحو ماردين، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين.

قال: ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت، وهي ظاهرة لاحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلّي سنة خمس وخمسين وخمسة، وأنا متوجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة، وعشرة ومؤانسة فعرض عليّ الدخول إلى داره في الموصل فامتنعت ونزلت بخيمتي على الشط فكان مدّة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى، وأتابك قد ركب إلى الميدان وينفذ إليّ يقول: أركب فأنا واقف أنتظر، فأركب فأسير أنا وهو فتحدث، فوجدت يوماً منه خلوة من أصحابي فقلت له: في نفسي شيء يتردد من حيث اجتمعنا اشتهدني أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة، قال: قل، قلت: أقول ما قاله الشريف الرضي:

ما ناصحتك خفايا الوء من أحد
ما لم يصبك بمكروه من العذل
موءّي لك تأبى أن تسامحني
بأن أراك على شيء من الزلل (٩٦)

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولا تصبر نفوسهم عليه، ولو أن الانسان يخرج من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه، فأطرق ساعة، وقال: جزاك الله خيراً لكن الأمر قد عبر عما تخافه، ففارقت وسرت إلى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين ومات في الحبس.

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني في هذا الوزير الجواد لما نكب:

ما حط قدرك من أوج العلى القدر
كلا ولا غيرت أفعالك الغير
أنت الذي عم أهل الأرض نائله
ولم ينل شأوه في سؤدد بشر
سارت صفاتك في الآفاق واتضحت
وصدق السمع عنهما ما رأى البصر
فأصبر لصرف زمان قد منيت به
فاخر الصبر يا طود النهى الظفر
فما ترى أحدا في الخلق يسلم من
صروف دهر لـه في أهله غير
سعوا بقصدك سرا واستتب لهم
ولو سعوا نحوه جهرا لما قدروا
لولا الأمانى التي تحيى النفوس بها
لمت من لوعة في القلب تستعر

ومنها في ذكر الشيخ عمر الملاء:
وأصدق الناس في حفظ العهد إذا
ميزت بالفكر أحوال الورى عمر
الزاهد العابد البرّ التقي ومن
يـزوره ويقـوي أزره الخضر

وقال العرقلة يرثي جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك:
لا خير في الدينـيـا ولا أهلها
بعد جمال الدين والصالح
بحران لـولا دمـع باكيهما
ما كان ماء البحر بالمالح

قال ابن الأثير: قال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام
الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحاqqة فيها ما

يدل على تمكنه من الكفاية ، فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ، وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور ، قال: فقلت له يوما: أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدة، ما أرى الآن منها شيئا؟ فقال لي: والآن ما عندي كفاية؟ فقلت: ما هذا العمل من ذلك بشيء، فقال: أنت صبي غرّ ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسبه ، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوي العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه، ولا يتلون بأقوال أصحابه، فحفظناه فكان ما أفعله هو الكفاية ، وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن ، وهو محكوم عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

ثم دخلت سنة ستين وخمسة

قال ابن الأثير : فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس، لعلمه بقلعة من فيها من الحماة، الممانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت أن تذهب الأخرى، وجدّ في حصارها، وسمع الفرنج بذلك، فجمعوا فلم تتكامل عدّتهم حتى فتحه الله تعالى، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرههم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدّة ورجالا عدّة، وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر فسقط من يده في شعراء بانياس وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع، فعادوا إليه فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشاميين وأظنه، أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت:

إن يمتراك فيك فإنك الـ

سمهدي مطفي جمرة الدجال

فلعودة الجبل الذي أضللتـه

بالامس بين غياطل وجبال

مسترجعالك بالسعادة آية

ردت مطال الفال غير مطال

لم يعطه إلا سليمان وقـد

نلت الوفاء بموشك الاعجال

زجر جرى لسرى ملكك إنه
كسرىره عن كل جذر عال
فلو البحار السبعة استهوينه
وأمرتتهن قذفنّه في الحال

قلت: هذه الابيات لابن منير بلاشك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن
ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين، وفتح بانياس كما تراه في
سنة ستين، وقد قرأت في ديوان ابن منير وقال: يمدحه ، يعني نور الدين
ويهنيه بالعود من غزاة وضياح فص ياقوت جبل من يده، لاشتغاله
بالصيد، شراه ألف ومائة دينار، وفي نسخة : ووجد أن خاتم ضاع منه
في الصيد قيمته ألف ومائة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص فذكر
القصيدة أولها : (يوماك يوم ندى ويوم نزال)

يقول فيها:

أخرست شقشقة الضلال وقدرته
قود الذلول أطاع بعد صيال
ورميت دار المشركين بصيلهم
القحت فيها الحرب بعد جبال
وسعرت بين تريبهم وتراهم
ذعر ايشيب نواصي الاطفال
فوق الخطيم وقد خطمت زعيمهم
ضربا سوابقه بغير توالي
ضربا ملأت فرنجة من جرّه
رهبأبه سيف الصقالب صالي
وبفج حارم أحرمت لقراعهم
هيم أحلن النوم غير حلال
عجموا على جسر الحديد حديدها
نعايعا ذمه أدير دصال

زلزلت أرضهم بوقع صواعق
أعطيتنا أمنا من الزلزال
في مأزق شممرت ذيلك تحته
والنصر فوقك مسبل الأذيال
في دولة غراء محمودية
سحبت رداء الحمى غير مئذال
تنسي الفتى وحتنسي
زهر المقال بياهر الأفعال
لبست بنور الدين نور حدائق
ثم راتهن غرائب الأفضال
ملك تحجب في السرى برزارة
زرت حواشيه على ريبال
تنجاب عن ذي لبدتين شداته
في بردي بدل من الأبدال
رفع الرواق بروق أنطاكية
فرمى الخليج بمرهق البلبال
بدر لأربع عشرة أقتبس السنا
من خمس عشرة سورة الأنفال
فوز المآل أخاضه ماء الطل
وسواه يقعده احتيازا مال
متقسم بين القسيمين العلى
عن عمّ عم أوغيايل حال
لازلت تطلع من ثنايا جفيل
يقفولوا لك كاللوى المنهال
لك أن تطل على الكواكب راقيا
ولحاسديك بكاعلى الأطلال

وما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك
والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم

القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألح عليه فيه فحنق الرشيد ومرّ على جسر بغداد فرماه في دجلة ، فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه، ثم أمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الأول، فعُدّ ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الأفرنج قائماً على رأسه فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم، وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن، وكان عالماً دينا مدبراً، حنبلي المذهب ووزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده ، وله عدّة مصنفات منها الافصاح في شرح الأحاديث الصحاح، وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة، ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة، ورؤيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء، ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق، وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره، ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: واجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الاسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسد شيركوه، أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجمية إلى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب في قبة فيها أربع قبور هما الأوسطان منها، وفي هذين الأخوين ناصر الدين وفتح الدين يقول العرقلة حسان:

لله شبل أسد خادر
ما فيها جبن ولا شح
ما أقبل إلا وقال السورى
قد جاء نصر الله والفتح

وفيها سار نور الدين أيضا إلى حصن المنيطرة، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولا جمع عساكره إنما سار إليه على غرة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا، فانتهاز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها، وجد في قتالها وأخذها عنوة وقهرا، وقتل من بها وسبى، وغنم غنيمة كثيرة لأمن من به فأخذتهم خيل الله (بغته وهم لا يشعرون^(٩٧))، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا وقد ملكه، ولو علموا أنه جرد جريدة لأسرعوا، وإنما ظنوا أن نور الدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرقوا وايسوا منه، وهذا قول ابن الأثير.

وذكر القاضي ابن شداد أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين، كما سيأتي والله أعلم.

وفيها توفي الجليس بن الحباب بمصر

قال العماد في الخريدة: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن

الحسين بن الحباب الأغلبى السعدي التميمي، جليس صاحب مصر،
وفضله مشهور، وشعره ماثور، وكان أوحده عصره في مصره نظماً ونثراً
وترسلاً وشعراً، ومات بها في سنة إحدى وستين وقد أناف على السبعين،
وأنشدني له الأمير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها:
ومـن عجب أن السيوف لـديهم
تـخيض دماء والسيوف ذكور
واعجب مـن ذا أنها في أكفهم
تأجج ناراً والأكف بحور

قال: وأنشدني له الشريف ادريس الادريسي قصيدة سيرها إلى
الصالح رزيق قبل وزارته يخرضه على إدراك ثار الظافر، وكان عباس
وزيرهم قتله وقتل أخوته يوسف وجبريل يقول فيها:
أصـادفهم قـولا وغـيا ومـشهدا
نحوهم على عمد بفعل أعادي
فأين بنو رزيق، عنها ونصرهم
وما لهم من منعة وذواد
فلو عاينت عيناك بالقصريومهم
ومصرعهم لم تكتحل برقـاد
فمـزق جموع المارقين فـانها
بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة:
ولما ترامى البربري بجهله
إلى فتكة مارامها قـطرائم
ركبت إليه متن عزمتك التي
بأمثالها تلقى الخطوب العظام
أعدت إليهم ملكهم بعد مالوى
به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ إليه في المعنى يقول:
أعدت إلى جسم الوزارة روحها
وما كان يرجى بعثها ونشورها
أقامت زمانا عند غيرك طامثا
فهذا الأوان قرؤها وطورها
من العدل أن يحظى بها مستحقها
ويخلصها من مردودة مستعيرها
إذا ملك الحسناء من ليس كفؤها
أشار عليه بالطلاق مشيرها

وله يشكو طبيبا:
وأصل بليتني من قد غزاني
من السقم الملح بعسكريين
طبيب طبعه كغراب بين
يفرق بين عافيتي وبينني
أتى الحمى وقد شاخنت وباخت
فرد لها الشيباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف
حكاه عن سنان أو حنين
وكانت نوبة في كل يوم
فصيرها بحذق نوبتين (٩٨)

قلت: الأبيات الرائية تمثل بها الجليس وهي لصردر قرأتها في ديوانه،
وهي من قصيدة يمدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر
محمد بن محمد بن جهير ويهنيه بعوده إلى الوزارة وأول القصيدة:
لحاجة قلب ما يفيت غرورها
وحاجة نفس ليس يقضى يسيرها

وهي طويلة يقول في غزلها:

وقفنا صفوفا في السديار كأنها
صحائف ملقاة ونحن سطورها
يقول خليلي والظباء سوانح
أهذي التي تهوى فقلت نظيرها
وقد قلت لي ليس في الأرض جنة
أما هذه فوق الركائب حورها
أراك الحمى قل لي بأي وسيلة
وصلت إلى أن صادفتك ثغورها
ومالي بها علم فهل أنت عالم
أفواهها أولى بها أم نحورها
على رسلكم في الهجر أنا عصابة
إذا ظفرت في الحب عفف ضميرها

ويقول في مديحها:
فقل لي ليالي كيف شئت تقلبي
ففي يد عبل الساعدين أمورها
أما في نفس الوزارة بلغت
به كنهها حتى استحققت نذورها
لوت وجهها عن كل طالب متعة
إلى خاطب حل عليه سفورها
إذا مثل الأقوام دون عرينه
تساوى به ذو طيشها ووقورها
تكاد لما قد ألبست من سكينه
تurf على تلك الرؤوس طيورها

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها يتحدث به مع كل من يثق إليه، وكان مما يهيج على العود زيادة حقه على شاور وما عمل معه، فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفي ذلك يقول العرقلة :

أقول والآثر أذكرك قد أزمعت

مصر إلى حرب الأعاريب

رب كما ملكتها يوسف الـ

صديق من أولاد يعقوب

ملكها في عصرنا يوسف الـ

صادق من أولاد أيوب

من لم يزل ضراب هام العدى

حقا وضراب العراقيب

ثم أن أسد الدين جدّ في السير على البر، وترك بلاد الافرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية، وقصد أطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وأقام بها أربعة وخمسين يوما، وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدّ والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوري على الاسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد، فبلغوا مكانا يعرف بالباين، وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، وكان قد أرسل إليهم

جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجددهم في طلبه، فعزم على قتالهم وبقائهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم في الثبات في هذا المقام الخطير الذي عطيهم فيه أقرب من السلامة لقلّة عددهم وبعدهم عن بلادهم، فاستشارهم فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا له: إن نحن إنهزمنا وهو الذي لاشك فيه فلإي أين نلتجى وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ويودون لو شربوا دماءنا، وحق لعسكر عدّتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم، وقل ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف، مع أن كل البلاد عدو لهم، فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين بزغش، وكان من الشجاعة بالمكان المشهور، وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرّون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار، قال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل ووافقها صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وقد جعل الأثقال في القلب يتكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج

ما ذكره أسد الدين، وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه فقاتلهم من به قتالا يسيراً ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم، فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزمهم، ووضع السيف فيهم، فأثنى وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثرالمنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقياً ليس بها منهم ديار، فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل، ثم سار أسد الدين إلى ثغر الاسكندرية وجبى ما في طريقها من القرايا والسواد من الأموال، ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال سلمها إليه أهلها، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان، وأما المصريون والفرنج، فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قتل منهم واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الاسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتد الحصار، وقل الطعام بالبلد فصبر أهلها على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة، وأن الاسكندرية تعاد إلى المصريين، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا، وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال، وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، ويكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكر إليهم ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار، وهذا كله يجري بين الفرنج وبين شاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء، ولا يعلم بشيء من ذلك، قد

حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة، ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف، ينهي محبته وولاءه ويسأله أن يأمر باصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الاسلام، وبذل مالا يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلاً فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سنة أربع وستين.

قال القاضي أبو المحاسن: ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية وهي المعروفة بوقعة البابين، لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لا بد له من قصدها، فكتب الفرنج وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكيناً كلياً ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها، وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتد خوفهما على مصر، أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها، فتجهز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالسير معه على كراهة منه لذلك، وذلك في أثناء ربيع الأول وكان وصولهم البلاد المصرية مقارباً لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريين بأسرهم، وجرى بينهم حروب كثيرة، ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية، وانفصل أسد الدين، وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين قدس الله روحه جرد العساكر إلى بلاد الأفرنج، وأخذ المنيطرة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم، وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد، وعانوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج

على أن ينصرفوا كلهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السنة، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها، فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجره إلى شيء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك.

قال: وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرّب قلعة أكاف بالبرية، وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فخربوا هونين في شوال منها، وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر، وفيه مات قرا أرسلان بديار بكر.

فصل

وفي شعبان من هذه السنة قدم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني مصنف كتابي الفتح والبرق فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية، عند حمام القصير بباب الفرّج المنسوبة إلى العماد وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه الله ولاه إياها في رجب سنة سبع وستين ، بعد الشيخ الفقيه ابن عبد، وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين تيركوه، ابني شاذي من تكريت بسبب أن عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت ، ونجم الدين أيوب آنذاك واليها، فانتسجت المودة بينهم من هناك، فلما سمع نجم الدين بوصوله بكر إلى منزله لتبجيله، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أولها يوم النوى ليس من عمري بمحسوب

ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

ما اخترت بعدك لكن الزمان أتى
كرها بما ليس يا محبوب محبوب
أرجو إياي إليكم ظافرا عجلا
فقد ظفرت بنجم السدين أيوب
موفق الرأي ماضي العزم مرتفع
على الأعاجم مجداً والأعاريب
أحبك الله إذ لازمت نجدة
على جبين بتاج الملك معصوب
أخوك وابنك صدقاً منها اعتصم
بالله والنصر وعد غير مكذوب
هما همامان في يومى وغى وقرى
تعودا ضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان في الكفار نار وغى
بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غدا
تحظى النفوس بتأنيس وتطيب
ويستقر بمصر يوسف وبه
تقر بعد التناهي عين يعقوب
ويلتقي يوسف فيها بأخوته
والله يجمعهم من غير تشريب
وكان أنشده هذه القصيدة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسة،
وتم ملكهم مصر بعد سنتين.

قال: فنظمت ما في الغيب تقديره.

قال: وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرمل في النصف
من ربيع الأول ووصل في سادس ربيع الآخر إلى أطفح ، وعبر منها إلى
الجانب الغربي، وأناخ بالجيزة محاذة مصر فأقام عليها نيفا وخمسين يوما

واستعان شاور بالفرنجة ، ورتبوا لهم سوقا بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم فالتقوا بموضع يعرف بالبايين فكسروهم أسد الدين وأصحابه وقتلوا من الفرنجة ومن تبعهم من المصريين ألوفاً، وحصل منهم في الأسار سبعون فارساً من بارونيتهم، فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الاسكندرية ، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها، ثم قال أسد الدين: أنا لا يمكنني أن أحصر نفسي فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد، فاستولى عليها وجبى خراجها، وأقام صلاح الدين بالاسكندرية، فسار إليه شاور والفرنجة فحاصروه أربعة أشهر، وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بقوص ، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص، فسمع الفرنجة أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار، وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب، فلما راسلوا في المهادنة أجاب، وطلب منهم عوض ما غرمه ، فبذلوا له خمسين ألف دينار ، فخرجوا من الاسكندرية في النصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وعادوا إلى الخدمة النورية، فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشده هذه القصيدة:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر
ونلت ما عجزت عن نيله القدر
من يتهدي للذي أنت اهتديت له
ومن له مثل ما أثرت له أثر
أسرت أم براك الأرض قد طويت
فأنت اسكندر في السير أم خضر
أوردت خيل بأقصى النيل صادرة
من الفرات تقاضى وردها الصدر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها
إلا حديثك ما بين الوري سمر
فأنت من زانت الأيام سيرته
وزاد فوق الذي جاءت به السير

لو في زمان رسول الله كنت أتت
في هذه السيرة المحمودة السور
أصبحت بالعدل والاقدام منفردا
فقل لنا أعلي أنت أم عمر
اسكن در ذكروا أخبار حكمته
ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته
وصار فيك عيتانا ذلك الخبر
أفخر فإن ملوك الأرض أذهلهم
ما قد فعلت فكل فيك مفتكر
سهرت إذ رقدوا بل هجت إذ سكنوا
وصلت إذ جنبوا بل طلست إذ قصروا
يستعظمون الذي أدركته عجبا
وذاك في جنب ما نرجوه محتقر
قضى القضاء بما نرجوه عن كذب
حتما ووافقك التوفيق والقدر
شكت خيولك إدمان السرى وشكت
من فلها البيض بل من حطمها السمر
يسرت فتح بلاد كان أيسرها
لغير رأيك قفلا فتحه عسر
قرنت بالحزم منك العزم فاتسقت
ما أرب لك عنها أسفر السفر
ومن يكون بنور الدين مهتديا
في أمره كيف لا يقوى له المرر
يرى برأيك ما في الملك يبرمه
فأنت منه بحيث السمع والبصر
لقد بغت فئة الأفرنج فانتصفت
منها باقدامك الهندية البتر

غرسست في أرض مصر من جسومهم
أشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع في مقام وغى
به الحديد غمام والدم المطير
انهرت منهم دماء بالصعيد جرى
منه إلى النيل في واديهم نهر
رأوا إليك عبور النيل إذ عدوا
نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا
تحت الصوارم همام المشركين كما
تحت الصوالج يوم ما خفت الأكر
أفنت سيوفك من لاقت فإن تركت
قوم ما فهم نفر من قبلها نفروا
لم ينج إلا الذي عافته من خبث
وحش الفلا وهو للمحذور منتظر
والساكنون القصور القاهرة قد
نادى القصور عليهم أنهم قهروا
وشاور شاوروه في مكايدهم
فكاده الكيد لما خاناه الخدر
كانوا من الرعب موتى في جلودهم
وحين أمتهم من خوفهم نشروا
وإن من شيركوه الشرك من خزل
والكفر من خذل والدين منتصر
عول على فئة عند اللقاء وفيت
وعاد عن تركها قبله غدروا
وكيف يخذل جيش أنت مالكة
والقائدان له التأيد والظفر
أجاب فيك إله الخلق دعوة من
يطيب بالليل من أنفاسه السحر

قال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف ابن أخيه مؤدّة،
تمت لي بها على الزمان عدّة، ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعري
أنه يميل إلى شعري، فأول ما خدمته به هذه الكلمة:
كيف قلتهم بمقلته فتور
وأراهـابـاً لافـتـور تجور

ومنها:

مستجيب زجوري وإني منه
بابن أيوب يوسف مستجير
فضله في يد الزمان سوار
مثلها رأيه على الملك سور
كرم سابغ وجود عميم
وندى سائح وفضل غزير
أنت من لم يزل يحن إليه
وهو في المهـد سرجه والسريـر
من دم الغادرين غادرت بالأمر
س صعيد الصعيد وهو غدير
ولكل مما تطلت فيه هم
أمل قاصر وعمـر قصير
لاذبالنيل شاوور مثل فرعو
ن فذل الـلاجي وعز العـبور
شارك المشركين نعيًا وقدمًا
شاركتهـا قريظة والنضير
والذي يدعي الامامة بالـقا
هرة ارتاع أنه مقهور
وغدا الملك خائف من سطاكم
ذا ارتعاد كأنه مقرور
وبنواهنفري هانوا ففروا
ومن الاسد كل كلب فرور

إنما كان للكلاب عواء
حيث ما كان للأسود ذئير
وفليب عند الفرار سليب
فهو بالرب مطلق مأسور
لم يبق واسوى الأصاغر للسب
في فودو الو أن الكبير صغير
وحيت الاسكن درية عنهم
ورحى حرهم عليهم تدور
حاصروها والذي بان من ذب
كك عنها وحفظها محصور
كحصار الأحزاب طيبة قدما
ونبي الهدى بها منصـور
فاشكر الله حيث أولاك نصراً
فهو نعم المولى ونعم النصير
ولكم أرجف الأعادي فقلنا
ما لم تذكر ونه تأثير
ورقنا كالعيد عودك فاليو
م به لانام عيد كبير
عاد من مصر يوسف وإلى يعـ
لقوب بالتهنئات جاء البشير
فلأيوب من إياب صلاح الـ
لدين يوم به توفي النذور
ولكم عودة إلى مصر بالنصـ
ر على ذكرهم أتمر العصور
فاستردوا حق الإمامة ممن
خان فيها فإنه مستعير
وافترعها بكرها بمدى الدهـ
ر رواح في مدحكم وبكـور

أناسيرت طالع العزم مني
وإلى قصصك انتهي التسيير
وأرى خاطري لمدحك ألف
إنما يـ ألف الخطير الخطير

وهي والتي قبلها طويلتان جداً، فانتظمت معرفة العماد بصلاح الدين، وكان له مساعدا عند نور الدين، وقرأت في ديوان العرقلة، وقال يمدح أسد الدين شيركوه، وقد أخذ الشقيف، ورحل طالبا حصناً يقال له العراق:

رحلت من الشقيف إلى العراق
بعزم كالمهندة الرقاق
ونكست الأعادي منه قهراً
ومجدك في ذرى الجوزاباقي
بجاشك لا بجيشك نلت هذا
وبالتوفيق لا بالإنفاق
فداؤك من مضى بالحصن قبلي
إلى دار الخلود من الرفاق
وما نخشى على الإسلام بؤساً
إذا هلك الجميع وأنت باقي
أشاوركم فشاور كل خب
وتنفق عند مثلك بالنفاق
أتصبر إن أتتك بحار خيل
وقدم ما صبرت على السواق
متى رفعت لك السودان رأساً
وقد خلاهم مثل الزقاق
وعيشك ماله من مصر بد
ومن عندي ثلاثاً بالطلاق
هو الأسد الذي مازال حتى
بنماجداً على السبع الطباق

فصل

قال ابن الإثير : وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بعساكره ، فتجهز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج، واجتاز على حصن الأكراد فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها وحصروا جبلة وأخربوها، وتوجهت عساكر المسلمين يمينا وشمالا تغير وتخرب البلاد، وفتح العريمة وصافيتا، وعاد إلى حمص فصام بها شهر رمضان، ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين، وهي للفرنج أيضاً من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها فقصدتها نورالدين فوصلها من الغد، وخرب سورها جميعة وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خلل أوجب التفرق، فعاد وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرقة فأخذها في طريقه.

قال: وفي هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكرياً حصره بها وأخذها منه وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عاقلاً خيراً حسن السيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة إثنتين وسبعين كما سيأتي.

وفيهما توفي القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير، صاحب كتاب الجنان.

قال العماد في الخريدة: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاور صبراً في سنة إثنتين وستين، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده، وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه، وتوفي

قبله بسنة، لم يكن في زمانه أشعر منه، وله شعر كثير منه قصيدة غراء في مدح الصالح بن رزيك، وذكر فيها نور الدين أولها:

أعلمت حين تجاور الحيان
أن القلوب مـواقـد النيران
يا كاسر الأصنام قم فانفض بنا
حتى تصير مكسر الصليبان
فالشام ملكك قد ورثت بلاده
عن قومك الماضين من غسان

وإذا شككت بأنها أوطانهم
قدمافسل عن حارث الجولان
أورمت أن تتلو محاسن ذكرهم
فاسندروايتها إلى حسان
مازلت أرض العدى بل ذاك ما
بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول إن حصونهم سجدت لما
أوتيت من ملك ومن سلطان
ولقد بعثت إلى الفرنج كتابا
كالأسد حين تصول في خفان

لبسوا الدروع ولم يخل من قبلهم
أن البحار تحلّ في غدران
عجلت في تل العجول قراهم
وهم لك الضيفان بالذيفان
وثلثت في يوم العريش عروشهم
بشبا ضراب صادق وطعان
ألجأتهم للبحر لما أن جرى
منه ومن دمهم معا بحران
ولقد أتى الاسطول حين غزاها
لم يأت في حين من الأحيان

وأعدت رسل ابن القسيم إليه في
شعبان كي يتلاءم الشعبان
والفال يشهد في اسمه أن سوف يغـ
سدو الشام وهو عليكما قسمان
وأراك من بعد الشهيد أبأله
وجعلته من أقرب الإخوان
وهو الذي ما زال يفعل في العدى
ما لم يكن ليعد في الامكان
قتل البرنس ومن عساه أعانه
لما عساه في البغي والعدوان
وأرى البرية حين عاد برأسه
مرّ الجنى يبدو على المزان
وتعجبوا من زرقه في طرفه
وكأن فوق الرمح نصلا ثاني
عجا لجود يديه إذ بيني العلا
والسيل يهدم ثابته الأركان
قلدت أعناق البرية كلها
مننا تحمل ثقلها الثقلان
حتى تساوى الناس فيك وأصبح الـ
قاصي بمنزلة القريب الداني

وفي هذه السنة ذكر القاضي كمال الدين بن الشهرزوري للسلطان نور
الدين رحمه الله حال العماد الكاتب، وعرفه به وعرض عليه قصيدة له في
مدحه مطلعها:

ومنها :

لو حفظت يوم النوى عهدا
ما مقلت بوصلكم وعودها
وإنما يحمد عيش بلدة
ما لكها بعد له محمودها

مؤيد أموره بعزيمة
من السموات العلى تأيدها
آثاره حميدة وإنها
للمرء من آثاره حميدها
ان الورى بحببه وبغضبه
يعرف من شقيها سعيدها
قد جاءكم نور من الله فممن
به اهتدى فإنه رشيدها
جلا ظلام الظلم نور الدين عن
أرض الشام فله تحميدها
إن الرعايا آمنه في رعايته
ونعمة مستوجب مزيدها
لنومها يسهر بل لأمنها
يخاف بل لخصبها بجودها
بالدين والملك له قيامه
والملوك عنها قعودها
ودأبه ثلم ثغور الكفر لا
لثم ثغور نافع برودها
قد أسبغ الله لنا بعدله
ظلام أمن وارف مديدها
غدا ملوك السروم في أولته
وهم على رغمهم عبيدها
لما أبتهاماتهم سجودها
لله أضحى للطبى سجودها
إن فارقته سيوفه غمودها
فإن هاماتهم غمودها
كم مغلقات من حصون عزمه
مفتاحها وسيفه أقليدها

قد ودت الفرنج لو فرّت نجت
منك ولكن روعها مبيدها
قهرتها حتى لودّ حيهها
من ذلة لو أنه فقيدها
أماتها رعبك في حصونها
كأنها حصونها لحدوها
وإن مصر الك تعنوب عيدها
لسيفك الصعب عنا صعيدها
والملة الغراء خال بالها
عال سناها بك حال جيدها
مفترّة ثغورها ممنوعة
ثغورها محفظة حدودها
وإن بغى جالوتها ضلالة
فأنت في إهلاكه داودها
يابن قسيم الدولة الملك الذي
خرّت له من الملوك صيدها
دع العدى بغيطها فإنا
يذيب أكباد العدى حقودها
يادولة نورية أمن الورى
وخصبها وجودها وجودها
ما مثل الدنيا لمن يجمعها
بالحرص إلا قسرة ودودها
أين الذي يرفضها عن قدرة
فلا يشوب زهده زهيدها
فابق لنا يا ملكا بقاءه
في كل عام للرعايا عيدها
في نعمة جديدة سعودها
ودولة سعيده جدودها

وهي طويلة، فرتبه نورالدين في ديوانه منشأ لاستقبال سنة ثلاث وستين.

قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمكين .

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو البشر شاكر بن عبد الله من الخدمة في كتابة الانشا وقعد في بيته، كذا ذكر العماد في الخريدة، وقال : تولى ديوان الانشا بالشام سنين كثيرة وله مقاصد حسنة في الكتب وهو جيد السيرة جميل السريرة^(٩٩) .

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أن نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حماه ثم شتى بقلعة حلب ومعه الأسد والصلاح، ونزل العماد بمدرسة ابن العجمي وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لاتنكرن لسابح عثرت به
قدم وقد حمل الخضم الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه
فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الريح بجريه وكففته
عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكرانه
في السرج منك يقل ليثا خادرا
ومتى تطيق الريح طودا شاخا
أويستطيع البرق جونا مطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره
فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقل جوادك عشرة ندرت له
إن الجواد لمن يقي لالعائرا
وتوق من عين الحسود وشرها
لا كان ناظرها يسوء ناظرا
وأسلم لنور الدين سلطان الوري
في الحادثات معاضدا ومؤازرا
فإذا صلاح الدين دام لأهله
لم يجذروا للدهر صرفا ضائرا

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي
عصرون مكاتبات، كتب إليه العماد:

أيما شرف الدين إن الشتا
بكافاته كف آفاقه
وكفك من كرم كافها
قد كفلت لي بكافاته
وإنك من عرفه شكرنا
غدا عاجزا عن مكافاته

قال: فكتب إلي شرف الدين في جوابها
إذا ما الشتاء وأمطاره
عن الخير حاسبة رادعه
فكافاته ألت أعطيتها
وحوشيت من كافه الرابعة
وكف المهابة والاحتشا
م لكفي عن بره مانعة
وهمة كل كريم النجا
ربميسور أجاب به قانعة
ونفسي في بسط عذري إلي
—
جعله جعلت الفداء له طامعه
وشوقي إلي قربه زائد
ومعذرتي إن جفا واسعه

قال: فكتبت إليه في جوابها:
أيما من له همة في العلى
لذروتها أبدا فارعه
ومن كفه ديمة ماتزا
ل بالعرف هامية هامعه
وللفضل في سوق أفضاله
بضائع نافقة نافعة
وهل كابن عصرون في عصرنا
إمام أدلت به قاطعة

ما أعجزتك الشهب في أبراجها
طلباً فكيف خوارج في أبرج
ولقد رمن عصيك أحقر أن يرى
أثر العبوس بوجهك المتبلج
لكن تهذب من عصاك سياسة
في ضمنها تقويم كل معوج
فانهذ إلى البيت المقدس غازياً
وعلى طرابلس ونابلس عج
قد سرت في الإسلام أحسن سيرة
مأثورة وسلكت أوضح منهج
وجميع ما استقرت من سنن الهدى
جددت منه كل رسم مبهج

قال العماد: وسار نور الدين من منبج إلى قلعة نجم وعبر الفرات إلى
الرها، وكان بها ينال صاحب منبج، وهو سديد الرأي رشيد المنهج فنقله
إليها مقطوعاً ووالياً، وأقام نور الدين بقلعة الرها مدة فمدحه العماد
بقصيدة وتحجب له صلاح الدين في عرضها وهي:
أدركت من أمر الزمان المشتى
وبلغت من نيل الأمان المنتهى
وبقيت في كنف السلامة آمناً
متكرماً بالطبع لا متكرهاً
لأزلت نور الدين في فلك الهدى
ذاغرة للعالمين بها البهـ
يا محيي العدل الذي في ظله
من عدله رعت الأسود مع المها
محمود المحمود من أيامه
لبهائها ضحك الزمان وقهقهها
مولى الورى مولى الندى معلى الهدى
مردى العدى مسدى الجدى معطى المها

أراؤه بصـوا بهامقـرونـة
وبمقتضاها دائر فلـك النـها
متلبس بحصافه وحصانه
مقدس عن شوب مكر أو دها
يا من أطاع الله في خلواته
متأوبا من خوفه متأوها
أبدا تقدم في المعاش لوجهه
عملا يبيض في المعاد الأوجها
كل الأمور وهما وأمر كمبرم
مستحكم لا نقض فيه ولا وها
ما صين عنك الصين لو حاولتها
والشرقان فكيف منبج والرها
ما للملوك لدى ظهورك رونق
وإذا بدت شمس الضحى خفي السها
إن الملوك لهوا وإنك من غدا
وبما له والملـك منه ما لها
شرفت نفوسهم إلى دنياهم
وأبى لنفسك زهدا أن تشرها
مانمت عن خير ولم يك نائما
من لا يزال على الجميل منبها
أخلت ذكر الجاهلين ولم تزل
ملكاي ذكر العالمين منوها
ورأيت إرعاء الرعايا واجبا
تغني فقيرا أو تجير مـد لها
لرضاهم متحفظا ولحالمهم
متفقداد ولدينهم متفقهـا
وبما به أمر الاله أمرتهم
من طاعة ونهيتهم عما نهى

عن رحمة لصغيرهم لم تشتغل
عن رافة لكبيرهم لن تشدها
باليأس عندك أمل لم يمتحن
بالردّ دونك سائل لن يجبها
أتعبت نفسك كي تنال رفاهة
من ليس يتعب لا يعيش مرفها
فقت الملوك ساحة وحماسة
حتى عد منافيهم لك مشبها
ولك الفخار على الجميع فدوهم
أصبحت عن كل العيوب منزها
وأراك تحلم حين تصبح ساخطا
ويكاد غيرك ساخطا أن يسفها

قلت : رحم الله العباد فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه، وهذا البيت الأخير مؤكد لما نقلناه في أول الكتاب من قول الحافظ أبي القاسم رحمه الله في وصف نور الدين رحمه الله أنه لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وقل من الملوك من له حظ من هذه الأوصاف الفاضلة، والنعوت الكاملة.

قال العباد: ثم عاد نور الدين إلى حلب في شهر رجب، وضربت خيمته في رأس الميدان الأخضر، قال: وكان مولعا بضرب الكرة، وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المسفرة، ويركب صلاح الدين مبكراً كل بكرة، وهو عارف بأدائها في الخدمة وشروطها المعثرة، قال: وأقطعه في تلك السنة ضيعتين، إحداهما من ضياع حلب، والأخرى من ضياع كفر طاب، قال : وكتب إليه في طلب كنبوش:

أصبحت بغلتي تشكي من العر
ي واسراجها بلا كنبوش
قلت كفي فخيري وميك عندي
أن تفوزي بالتين أو بالحشيش

وأفرحي ليلية الشعر كما يفر
ح قوم بليلىة المأشوش
لو تبصرت حالتي لتصبر
ت فإياك عندها أن تطيشي
أومامات في الشتاء من البر
دومن فرط جوعه اكديشي
فيقي واسكني بجود صلاح الد
ين غرس الملوك ملك الجيوش
فهو يملوك للعيون بكنبو
ش جديد مستحسن منقوش
كم عدو من بأسه في عثار
وولي بجوده منعوش
والموالي على الأسرة والأع
داء تحت الهوان فوق النعوش

قال: وأقطع أسد الدين حمص وأعمالها، فسار إليها فسد ثغورها،
وضبط أمورها، وحمى جمهورها، وكان نور الدين قد جدد سورها،
وحصن دورها وبلي الفرنج منه بالمغاور، والمراوغ ذي البأس الدامغ،
وسأله نور الدين في السلو عن حب مصر وقال: قد تعبت مرتين
واجتهدت، ولم يحصل لك ما طلبت، وقد أذعنوا بالطاعه وشفعوا
السؤال بالشفاعة وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة (١٠) قلت
وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنة:

دمت في الملك أمراً ذانفاذا
أسد الدين شيركوه بن شاذي
يا كريم عن كل شر بطيا
وإلى الخير دائم الأغذا
وماذا لإسلام أنت فلا زلت
لأهل الإسلام خير ملاذا

في نفوس الكفار رعيك قد حل
بصدع الأكباد والأفلاذ
لم تدع بالظبي رؤوساً وأصناً
مما من المشركين غير جذاذ
أنت من نازل الدعين في مصـ
ر لنصر الإمام في بغداد
وبلاد الإسلام أنقذتها أنـ
ت من الشرك أيما انقاذ

فصل في وفاة زين الدين

قال ابن الأثير وغيره: في سنة ثلاث وستين سار زين الدين علي بن بكتكين نائب أتابك قطب الدين عن الموصل إلى إربل وسلم جميع ما كان ببلاده من البلاد والقلاع إلى قطب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله تعالى، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية جميعها، وكان نائبه بتكريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلمها فقال: إن المولى أتابك لا يقيم بتكريت ولا بدّ له من نائب فيها، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد، وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان فقال مثله أيضاً، فأقرت بيده، فكان في طاعة قطب الدين، وسبب فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم وأقام بإربل إلى أن توفي بها في ذي الحجة من هذه السنة، وكان قد استولى عليه الهرم، وضعفت قوته، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة، جواداً محافظاً على حسن العهد، وأداء الأمانة قليل الغدر بل عديمه وكان إذا وعد بشيء لا بدّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً، وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة

الدهاء، بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له فأمر له بفرس فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيره من الأجناد فأحضره وذكر أنه نفق له دابة فأمر له بفرس، وتداول ذلك الذنب إثنا عشر رجلاً كلهم يأخذ فرساً، فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تستحيون مني كما أستحي أنا منكم، قد أحضر هذا عندي إثنا عشر رجلاً وأنا أتغافل لئلا ينجل أحدكم أتظنون أنني لا أعرفه، بلى والله وإنما أردت أن يصلحكم عطائي بغير من ولا تكدير فلم تتركوني.

ليس الغبي بسيد في قومه

لكن سيد قومه المتغابي

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً، وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلف شيئاً بل أنفذه جميعه في العطايا والإنعام على الناس، وكان يلبس الغليظ، ويشد على وسطه كل ما يحتاج إليه من سكين ودرفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك، وكان أشجع الناس ميمون النقية لم تهزم له راية، وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته، وكان تركيا أسمر اللون خفيف العارضين قصيراً جداً، وبنى مدارس وربطاً بالموصل وغيرها، وبلغني أنه مدحه الخيص بيص فلما أراد الإنشاد قال له: أنا لا أدري ما تقول لكن أعلم أنك تريد شيئاً، فأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرساً وخلعاً وثياباً يكون مجموع ذلك ألف دينار، قال: ومكارمه كثيرة، ولما توفي بإربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدين قايماز وهو المتولي لأموها، وولي بعد زين الدين ولده مظفر الدين كو كبري مدّة، ثم فارقتها بخلف كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز، وجرت أمور يطول ذكرها، ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذموه، فلم تطل أيامه وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففي أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر، وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذكر ذلك، وهي من أمنع الحصون وأحسنها مطلة على الفرات لا يطمع فيها بحصار، وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه، وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين، ثم اتفق أن خرج صاحبها منها يوماً يتصيد، فصاده بنو كلاب فأخذوه أسيراً وأوثقوه وحملوه إلى نور الدين فتقربوا به إليه وذلك في رجب من سنة ثلاث وستين، فحبسه بحلب وأحسن إليه ورغبه في الإقطاع والمال ليسلم إليه القلعة، فلم يفعل فعذل به نور الدين إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل أيضاً، فسير إليها عسكرياً مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني فحصرها مدة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية، وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله، فأقام عليها وطاف حوالها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصار متعذراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها والملاحاة التي في عمل حلب والباب وبزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، فأخذ جميع ما شرط مكرها في صورة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جداً، لكنه لاحظ فيه، وتسلم مجد الدين قلعة جعبر، وصعد إليها منتصف المحرم، ووصل كتابه إلى نور الدين بحلب، فسار إليها وصعد القلعة في العشرين من المحرم، ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين بن الداية، فولأها أخاه شمس الدين

علي، وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر آخر ولكل ولاية نهاية
يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء (١٠١)

قال ابن الأثير، بلغني أنه قيل لشهاب الدين أيما أحب إليك وأحسن
مقاماً أسروج والشام أم القلعة؟ قال: هذا أكثر مالا، والعز بالقلعة فارقتاه.

قال العماد: وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها:
أسلم لبكر الفتوح مفترعا
ودم للملك البلاد متمزعا
فإن أولى السورى بهاملك
غدا بعيب الخطوب مضطلعا
إن ضاق أمر فغير همته
لكشف ضيق الأمور لن يسعا
يا محيي العدل بعد ميتته
ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذي قمع الـ
شرك وعفى الضلال والبدها
أنت سليمان في العفاف وفي الـ
ملك وتحكي بزهدك اليسعا
حزت النقا والحياء والكرم المحـ
ض وحسن اليقين والسورعا
أسقطت أقساطاً وجدت من المكـ
س بعدل والقاسط إرتدعا
ولم تدع في ابتغاء مصلحة الد
ين لنا باقياً ولن تدعا
وكل ما في الملوك مفترق
من المعالي لملكك اجتمعا
همتكم الربط والمدارس تبنيا
هائوا بها وتهدم البيعا

مازلت ذا فطنة مؤيدة
على غيوب الأسرار مطلعاً
بأسك البيض والطلی اصطحبت
بعد لك الذئب والطلار تعاً
كم صائد لم يقع له قنص
في شرك وهو فيه قد وقعاً
ومالك حين رميت قلعتة
غدا مطيعاً للأمر متبعاً
عنا خشوعاً لرب مملكة
لغير رب السماء ما خشعاً
كان مقبلاً منها على الفلك الـ
أعلى شهاباً بنوره سطعاً
لكنها الشهب ما تنير إذا
لاح عمود الصباح فأنصدا
يدفعها طائعا إليك وكم
عنها إباء بجهده دفعاً
هي التي في علوها حل
كر على وردها وما كرعاً
وهي التي قاربت عطاردي الـ
أفق فلاحاً والفرقدين معا
كان منها السها إذا استرق السـ
مع أتاها في خفية ودعا
هضبة عز لولاك ما ارتقيت
وطود ملك لولاك ما فرعاً
ما قبلت في ارتقاء ذروتها
من ملك لا رقى ولا جذعاً
عزت على المالك الشهيد واعـ
طتك قياداً ما زال ممتنعاً

للأب لـو حل خطبها الغدا
محرمنا لابننه وما شرعنا
لازلت محمود في أمورك محمود
دأبثوب الأقبال مدرعا

وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد
الدين بن الداية، وفيه وفي أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة:
أنتم لمحمود كآل محمد
متصا دقي الأفعال والأسماء
يتلو أبابكر على حسناته
عمر الممدوح في سنا وسنا
ويليه عثمان المرجى للعلا
وعلي المأمول في الأواء
وتقبل الحسن المجد مجدهم
فهم ذوو الإحسان والنعماء
فرعت لمجد الدين أخوته الذرى
دون السورى في المجد والعلواء
من سابق كرما وشمس سياده
شرفا وبدر دجنة وبهاء
سرج الهدى سحب الندى شهب النهى
أسد الحروب ضراغم الهيحاء

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علي، وبدر الدين حسن،
وبهاء الدين عمر، ومجد الدين هو الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى.

فصل

وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية سار إليها أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العدو، وقتل شاوراً وولي الوزارة مكانه، ثم مات فوليه صلاح الدين، وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد، فجمعوا وحشدوا وقالوا: ما بمصر من يصدنا، وإذا أردناها فمن يردنا، ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفراتية، وعسكر الشام متفرق كل منهم في بلده حافظاً لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها معقل، ولا لأهلها منا موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام وقوينا بتملك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام، فتوجهوا إليها سائرين ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة وغيرهما من أعداء شاور، وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة، واسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم على ما سبق ذكره، وتحكموا تحكماً كبيراً، فطمعوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم مرى، ولم يكن ملك الفرنج مخرجوا إلى الشام مثله شجاعة و مكرأ ودهاء يستدعونه لتملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهلوا أمرها عليه فلم يجيبهم إلى المسير، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم وأشاروا عليه بالمسير إليها، والاستيلاء عليها، فقال لهم: الرأي عندي أن لانقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده وفلاحيه لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج

وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لا مانع لها ولا حافظ وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحيثئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها، وكانوا قد عرفوا البلاد، وانكشف لهم أمرها فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عسقلان في النصف من المحرم، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبس ونازلوها وحصروها فملكوها قهراً ونهبوها، وسبوا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبس ملكوا مصر والقاهرة سرعة، ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً، وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفاً عليها من الفرنج . فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر، ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية فشرع في تمحل الحيل وأرسل إلى ملك الأفرنج يذكر له مودته ومحبة القديمة وأن هواه معه، وتخوفه من نور الدين والعاضد، وإنها المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويؤخر البعض، واستقرت القاعدة على ذلك، ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين، وقالوا نأخذ المال نقوى به ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولا غيره (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)^(١٠٢) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً، وكان خليفة مصر العاضد

عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغن بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر، ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث البلاد من مصر، وأن يكون أسد الدين شريكوه مقيماً عنده في عسكر، واقتاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين، هذا قول ابن الأثير

وقال العماد: عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً وإرغاماً له وإطعاماً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخاً مستنفراً، وبمنايا الإسلام من الكفر مخبراً، ويقول إن لم تبادر ذهبت البلاد، وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب مجزوزة، أظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عبراهم من بلية الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجابين سراعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيراً، وعامل الفرنج بالمطال ينقدهم في كل حين مالأً، ويطلب منهم إمهالاً، ومازال يعطيهم ويستميلهم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله.

فصل فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين ليستدعيه من حمص، وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار مغلوب الاصطبار لأنه كان قد

طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفر، فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره، وأمره بالتجهز إلى مصر، والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن، فاختر من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، فكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء والمماليك منهم مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وناصر الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنزلين من الله تعالى النصر، وذلك منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان يعني صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) (١٠٣)

وقال ابن الأثير: أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته ومملكه.

حكى لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستحضرين أحضرتني وأعلمتني الحال، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه تأمره بالحضور وتحتة أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير، قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادمًا في هذا المعنى، فقال له نور الدين: تجهز للمسير. فامتنع خوفًا من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين، وقال: تجهز يا يوسف. قال: فكأننا ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين لا بد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقيله، ثم انقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة، وقلة الدواب، وما احتاج إليه فأعطاني ما تجهزت به، وكأنها أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحرصة أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلًا
إذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحاً
وللاعداء لم يبرح فسادا

لئن أعطاه نور الدين حصنا
فإن الله يعطيه البـلـادا
إلى كم ذا التـواني في دمشق
وقد جاءكم مصر تهادى
عروس بعلها أسدهـ زبر
يصيد المعتدين ولن يصادا
ألاينا معشر الأجنـاد سـيروا
وراء لـوائه تلقـوا رشادا
فما كل أمرىء صلى مع النـا
س مأموما كمن صلى فرادا

فلما سار صلاح الدين إلى مصر، عبر العرقة على داره فوجدها مغلقة
فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد دخلت
من القمر الوضاح والمنهل العذب
فوالله لولا سرعة مثل عزمه
لغرقها طرفي وأحرقها قلبي

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفية بحارة قطامش،
جوار قيسارية القصاع، وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله،
فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج، وتملك صلاح الدين على
ماسياتي، وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ في صلاح الدين من قصيدة
أولها:

(سلم على مصر لاربع بذي سلم)

يقول فيها:
الناصر الملك الموفى بذمته
ومن ندى كفه يغني عن السديم

ومن إذا جرد البيض الصوارم في الـ
— هيجاء أغمدها في البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطاعة في أنـ
تزعاه بشبا الهندية الخدم
ورد طاغية الأفرنج بحسب ما
رجاه من ملك مصر كان في الحلم
ولى وراحته صفر وقد ملئت
بعد الطاعة من يأس ومن ندم
يصعدون على ما فاتهم نفسا
لولا فح البحر أضحى الموج كالحمم
وفي السلامة لولا جهلهم ظفر
لمن أراد نزال الأسد في الأجـم
وهم أسود الثرى لكن أذلهم
ملك لديه الأسود الغلب كالغنم

وله من قصيدة أخرى:
أقمت عمود الدين حين أماله
لطاغي الفرنج الغتم طاغي بني سعد
وجاهدت حزب الكفر حتى رددتهم
خزايا عليهم خيبة الذل والرد
أفدت بما قدمت ملكا مخلدا
وذكرامدى الأيام يقرن بالحمد
وذكرك في الأفاق يسري كأنه الـ
— صباح له نشر الألوّة والنـد

ولأبى الحسن بن الذروي فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مري:
ولكم أشمت الروم أشأم بارق
أضحى مياه نفوسها من قطره
وأفالك بحر دروعها عن مدّه
ومضى وقد حكمت ظباك بجزره

ولقيت مرياً وطعم حياته
حلوفبذله القتال بمرة
فاعقد إليه الرأي في عذب القنا
واحلل بها عجلاً معاً قد كره
واطرده من وكر الشأم فإنه
قد طار منك بخافق من ذعره

فصل في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاخذ خليفة مصر فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاخذ معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين، ويسير معه ويعدده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً)^(١٠٤) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين، فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعاً، فقال : صدقت ولئن. نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاخذ إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد فتترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد

الدين بذلك فنهاهم فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكريه على عادته للإجتماع به، فلقية صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه فسار وهما معه قليلاً، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه، وأخذ أسيراً، ولم يمكنهم قتله بغير إذن أسد الدين فسيجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه، فعلم أسد الدين الحال، فعاد مسرعاً ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله، وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدوها الناس ينهبونها، فتفرقوا عنه، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابن شدّاد : أقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بهال في مقابلة ما خسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقت مغاليل الأسد في البلاد، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد، وأن ترددهم إليها في كل وقت لا يفيد، وأن شاوراً يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لاسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به، وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلا السلطان نفسه، يعنى صلاح الدين، وذلك أنه لما سار إليهم، تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخذ بتلايبه وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وقبض شاور وأنزل إلى خيمة مفردة، وفي

الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادِم خاص يقول: لا بد من رأسه جريا على عادتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبتَه وأنفذوا رأسه إليهم.

قال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخلع عليه، ولقى الإحسان، وتردّد شاور إلى أسد الدين وتودّد، وتجدّد بينهما من الوداد ماتأكد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة والحلاوات والميرة، فقال صلاح الدين: هذا أمر يطول، ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، لاسيما إذا راوغ وغادر، فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى إلى شاور يشير عليه بالاحتراس، وقال له: أخشى عليك من عندي من الناس، فلم يكثر بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النورية، وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته وقبضه وأثبتته، ووكل به في خيمة ضربها له، وحاول إمهاله فجاء من القصر من يطلب رأسه ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا أن يرجعوا إلا بنجح السول، فحم حمامه، وحمل إلى القصر هامة.

قلت: وبلغني أن الذي حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجانبه وأراد إفراذه عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفرسيهما، فأجابه ووافقهما في ذلك جرديك، وكان ذلك عن أمر قد تقرّر فحرّكوا خيلهم، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة، وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة

له شيركوه العاضدي وزير

كان ابن شاذي والصلاح وسيفه
عليّ لـديـــــــــــــــــه شهر وشبير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل
على مثله اكان اللعين يدور
فلارحم الرحمن تربة قبره
ولا زال فيه امانكـــــــــــــــــر ونكير

وقال أيضاً:

إن أمير المؤمنين الـــــــــــــــــذي
مصر حماه وعليّ أبـــــــــــــــــوه
نصص على شاور فرعونها
ونصص موساهـــــــــــــــــا على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليميني في كتاب الوزراء المصرية الذي صنفه حال شاور في وزارته الأولى، ثم قال: وزارة شاور الثانية: فيها تكشفت صفحاته، وأحرقت لفحاته، وأغرقت نفحاته، وغضبه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه، وبان غمره وثماده وجمره ورماده، ولم يجف من الانكاء لبده، ولا صفا من الاقضاء ورده، وما هو إلا أن تسلمها بالراحة، وسلمت له الهموم عوضاً عن الراحة، وفي أول ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بلبيس، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة، فكسر الناس يوم التاج، وأسر أخوه صبح، وأصيب على باب القنطرة بحجر كاد يموت منه، وتعقب ذلك بنقل القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة، ثم تبع هذا مجيء الفرنج وعمل البرج وحصار بلبيس، ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالباً للوزارة، ثم تلا ذلك نفاق لواته ومن ضامها من قيس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم، ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر، وفي

أثناء هذه المدة قبضه على الأثير ابن جلب راغب وقتله ، وأسر معالي بن فريج ثم قتله ، واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى أطفيح بأم النوائب الكبرى ، ووافق مجيء الغز قدوم الفرنج ناصرين للدولة ، وتوجهوا من مصر في البرّ الشرقي تابعين للغز ، ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الآمال وخيموا على ساحل المقسم ، وأظهروا رجوعهم إلى الشام ، فتجهز الكامل للمسير صحبة الأفرنج .

حدّثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني قال : أنا أذكر وقد خلونا في خيمة ، وليس معنا أحد إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم ، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج ، وعزم نجم على التغرب إلى سليم وما وراءها ، وقال شاور : لكن لأبرح أقاتل بمن صفا معي حتى أموت ، فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الداعي ابن عبد القوي وصنيعة الملك جوهر وعز ، وقد التزموا المال ، وتفرّع على هذا الأصل مقام الغز بالجيزة ونوبة البابين ، وحصار الاسكندرية ، وانصراف الغز راجعين والفرنج بعدهم ، فما هو إلّا أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفأ ، وصفح عن عادته معه وعفأ ، وإذا الأيام لا تخطب إلّا زواله وفوته ، ولا تريد إلّا إنتقاله وموته ، فكان من قدوم الفرنج إلى بليس ، وقتل من فيها ، وأسرههم بأسرههم ما أوجب حريق مصر ، ومكاتبة الأجل نور الدين ابن القسيم ، وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين ، ومن معه من المسلمين ، الذين قلت فيهم ، وقد ربط الأفرنج بالطريق عليهم :

أخذتم على الأفرنج كل ثنية
وقلتم لأيدي الخيل مرّي على مرّي

لئن نصبوا في البرّ جسراً فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت: وهذان البيتان من قصيدة ستأتي، ومَرِي هو اسم ملك الأفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغز بشمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له، قال: ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته تسعة أشهر مدة حمل الجنين، ولا أنلف أموالهم مثل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغز والأفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها، ولما عاد من حصار الاسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيف من شر شاور ومكره، لما عرف من غدره وختره، واتضح الأمر في ذلك واستبان، تمازض الأسد ليقتنص الثعلبان، فجاءه قاصداً لعيادته جارياً في خدمته على عادته، فوثب جرديك وبزغش موليا نور الدين فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شره وما شاوراً، وكان ذلك برأي صلاح الدين فإنه أول من تولى القبض عليه، ومدّ يده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين، وملك وخلع عليه الخلع وحنك، واستولى أصحابه على البلاد، وجرت أموره على السداد، وظهر منه جميل السيرة، وظهرت كلمة السنة.

فصل في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقر في الأمر، ولم يبق له فيه منازع ولا مناو، وولى الأعمال من يثق إليه، واستبد بالولاية فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصالح الدين مباشر للأمور مقرر لها وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحسن تأتبه وسياسته.

قال العماد: وكتب لأسد الدين منشور من القصر بسيط الشرح طويل الطي والنشر، كتب العاضد في طرته بخطه، ولاشك أنه باملاء كتابه: هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعترت خدمتك إلى بنوة النبوة، واتخذ للفوز سيلاً: (و لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كهيلاً) (١٠٥).

نسخة المنشور

من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد

الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضد، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليماً.

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتأخرين، الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «بعثت بجوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة، طلب من القصر كاتب إنشاء فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم ابن البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كاتباً بالاسكندرية على باب السدرة، ثم إنه اتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه، وزاحم به كتاب القصر فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتباً أرسل إليه، وظنّ رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم، وأن أسد الدين سيقول كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا، فكان من أمره ما كان واستمر في الدولة ولم يزد في كل يوم الا تقدماً بصدقه ودينه، وحسن رأيه رحمه الله.

وأنفذ العباد قصيدة طويلة تهنته لأسد الدين أولها.

بالجد أدركت ما أدركت لا للعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب

ياشير كوه بن شاذي الملك دعوة من
نادى فعرف خير اب بن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا ببركضهم
من المدى في العلى ما حزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصر وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتح بيت القدس عن كئيب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من
فتح البلاد فبادر نحوها واثب
أنت الذي هو فرد من بسالته
والدين من عزمه في جحفل لجب
في خلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجا
والقلب في شجن والنفس في شجب
زارت بني الأصفر البيض التي لقيت
حمر المنايا بها مرفوعة الحجب
ولمنا نل من خلفها أسد
أرى سلامتها من أعجب العجب
لقد رفعنا إلى الرحمن أيدينا
في شكرنا ما به الاسلام منك حبي
شكا إليك ينو الاسلام يتمهم
فقممت فيهم مقام الوالد الخدب
في كل دار من الأفرنج نادبة
بيادهاهم فقد باتوا على ندب
من شر شاورا نقتد العباد فكم
وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذي أطبع الأفرنج في بلد الـ
إسلام حتى سعو للقصص والطلب

وإن ذلك عند الله محتسب
في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
أذله الملك المنصور منتصرا
لما دعا الشرك هذا قد تعززي
وما غضبت لدين الله منتصيا
إلا لنيل رضى الرحمن بالغضب
وأنت من وقعت في الكفر هيته
وفي ذويه وقوع النار في الخطب
وحين سرت إلى الكفار فانهزما
نصرت نصر رسول الله بالرعب
يا محيي الأمة الهادي بدعوته
للرشد كل غوي منهم وغبي
لما سعت لوجه الله مرتقبا
ثوابه نلت عفوأك كل مرتقب
أعدت نقمة مصر نعمة فغدت
تقول كم نكت الله في النكب
أركبت رأس سنان رأس ظالمها
عدلا وكنيت لوزر غير مرتكب
رد الخلافة عباسية ودع الـ
سـدعي فيها يصادف شر منقلب
لاتقطع عن ذنب الأفعى وترسلها
فالخزم عندي قطع الرأس كالذنب

وقال العماد في الخريدة: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى
الملك العادل نور الدين قدس الله روحه أهل دمشق من المطالبة
بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنئه
لما سمحت لأهل الشام بالخشب
عوضت مصر بما فيها من النشب

وإن بذلت لفتح القدس محتسبا
لأجر جوزيت أجر غير محتسب
والأجر في ذلك عند الله مرتقب
فيما يشب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه
خير من الفضة البيضاء والذهب

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد
أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممثلاً
لما تريد فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزيمته
حتى ينال بها العالي من الرتب
فالجد والجد مقرونان في قرن
والحزم في العزم والإدراك بالطلب
فظهر المسجد الأقصى وحوزته
من النجاسات والأشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا
وفي القيامة تلقى خير منقلب (١٠٦)

المحتوى

توطئة	٣-
خطبة الكتاب	٧-
فصل - أصل الدولة النورية وسمات نور الدين	١٤-
فصل - ما مدح به نور الدين	٥٠-
فصل - أصل البيت الأتابكي	٦٦-
مقتل نظام الملك	٦٩-
وفاة ملكشاه والحوادث جده	٧١-
ذكر أخيار زنكي	٧٢-
مولد نور الدين محمود	٧٦-
ولاية جيوش بك الموصل	٧٨-
ولاية زنكي الموصل	٨٢-
أعمال زنكي التوسعية	٨٤-
جهاد زنكي للفرنج	٨٧-
فتح شهرزور وبعليك وحصار دمشق	٩١-
حوادث سنة ٥٣٤	٩٤-
حوادث سنة ٥٣٧	٩٩-
فتح الشهيد الرها	١٠١-
حصار البيرة ومقتل جقر	١١١-
وفاة زنكي	١١٤-
بعض سيرة زنكي	١١٩-
ما جرى بعد مقتل زنكي وتملك ولديه غازي ومحمود	١٢٨-
ما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والفرنج	١٣٣-
تشدد الفاطميين في القضاء	١٣٨-
سنة ٥٤٢	١٤٠-
نزول الفرنج على دمشق	١٤٢-
سنة ٥٤٣	١٤٣-
مأذكرة أسامة بن منقذ من حصار دمشق	١٤٤-
استشهاد الفندلاوي	١٤٨-
رحيل الفرنج عن دمشق	١٥٢-
مسير نور الدين الى بصرى	١٥٥-
أعمال نور الدين بحلب	١٥٩-
سنة ٥٤٤	١٦١-
مسير نور الدين الى فامية	١٦٣-
وفاة انروأمر ابن الصوفي	١٧٨-
وفاة غازي بن زنكي	١٨١-
ولاية قطب الدين الموصل	١٨٤-
توجه نور الدين الى سنجار	١٨٦-
قصد نور الدين حوران للجهاد	١٩٣-

- ٧٩٤٤ -

سنة ٥٤٥	- ١٩٤
فتح عزاز	- ١٩٧
أسر جوسلين	- ٢٠٠
مشاكل بين مجير الدين وصاحب صرخد	- ٢١٤
سنة ٥٤٦	- ٢١٦
باقي حوادث هذه السنة	- ٢٢٩
سنة ٥٤٧	- ٢٤٠
سنة ٥٤٨	- ٢٤٩
تحركات آل الصوفي بدمشق	- ٢٥٠
سنة ٥٤٩	- ٢٥٣
وفاة بنان	- ٢٦٩
وصول أبو بكر بن الداية الى دمشق	- ٢٧٤
سنة ٥٥٠	- ٢٧٧
سنة ٥٥١	- ٢٨١
نشاطات نور الدين	- ٢٨٧
سنة ٥٥٢ والزلازل	- ٢٩٠
توجه نور الدين الى حلب ومرضه	- ٣٠٢
حصن شيزر وولاية بني منقذ	- ٣١٠
بواقي حوادث سنة ٥٥٢	- ٣١٦
سنة ٥٥٣	- ٣١٨
زلازلة في حلب	- ٣٣٢
تحريض نور الدين على اعادة المكوس	- ٣٣٦
سنة ٥٥٤	- ٣٣٨
سنة ٥٥٥	- ٣٤٣
سنة ٥٥٦	- ٣٤٦
سنة ٥٥٧	- ٣٥٤
سنة ٥٥٨	- ٣٥٦
سنة ٥٥٩	- ٣٥٨
ذكر جمال الدين وزير الموصل	- ٣٧٥
سنة ٥٦٠	- ٣٨٩
سنة ٥٦١	- ٣٩٣
سنة ٥٦٢	- ٣٩٧
سنة ٥٦٣	- ٤١٥
وفاة زين الدين علي	- ٤٢٢
سنة ٥٦٤	- ٤٢٤
فتح الديار المصرية	- ٤٢٨
فيما فعله نور الدين	- ٤٣٠
القبض على شاور وقتله	- ٤٣٥
وزارة أسد الدين	- ٤٤١